http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٥

بعض الحكماء : كنت أقرأ القرآن ولا أجد حلاوة ، حتى تلوته كأنه أسمعه من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يتلوه على أصحابه ، ثم رفعت إلى مقام ، كأنى أسمعه من جبريل ، يلقيه على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، ثم جاء اللّه بمنزلة أخرى ، فأنا الآن أسمعه من المتكلّم به ، فعندها وجدت له لذة ونعيما لا أصبر عنه.

العاشر : التبري ، وهو أن يتبرأ من حوله ، وقوته ، والالتفات إلى نفسه بعين الرّضا. انظر بقية كلامه فقد اختصرناه غاية.

ثم ذكر سليمان عليه السّلام ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٣٠ الى ٣٣]

وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ (٣١) فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ (٣٢) رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ (٣٣)

يقول الحق جل جلاله : وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ أي : سليمان ، فهو المخصوص ، إِنَّهُ أَوَّابٌ أي : رجّاع إلى اللّه تعالى فى السراء والضراء ، وفى كلّ أموره ، إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ أي : واذكر ما صدر عنه حين عرض عليه بِالْعَشِيِّ وهو ما بين الظهر إلى آخر النّهار ، الصَّافِناتُ الْجِيادُ أي :

الخيل الصافنات ، وهى التي تقوم على طرف سنبك يد أو رجل. وهى من الصفات المحمودة ، لا تكاد توجد إلا فى الخيل العراب ، الخلّص. وقيل : هو الذي يجمع يديه ويستبق بهما ، والجياد : جمع جواد ، أو : جود ، وهو الذي يسرع فى جريه ، أو : الذي يجود عند الرّكض ، وقيل : وصفت بالصفون والجودة لبيان جمعها بين الوصفين المحمودين ، واقفة وجارية ، أي : إذا وقفت كانت ساكنة ، وإذا جرت كانت سراعا خفافا فى جريها.

روى أنه عليه السّلام غزا أهل دمشق ونصيبين ، وأصاب ألف فرس ، وقيل : أصابها أبوه من العمالقة ، وورثها منه ، وفيه نظر فإن الأنبياء لا يورثون ، إلا أن يكون تركها حبسا ، فورث النّظر فيها. ويكون عقرها بنية إبدالها. وقيل :

خرجت من البحر لها أجنحة ، فقعد يوما بعد ما صلّى الظهر على كرسيه ، فاستعرضها ، فلم تزل تعرض

عليه حتى غربت الشمس ، وغفل عن العصر ، أو : عن الورد ، كان له من الذكر وقتئذ ، وهو أليق بالعصمة ، فاغتم لما فاته ، فاستردها ، فعقرها ، تقربا إلى اللّه تعالى ، وبقي مائة ، فما فى أيدى النّاس اليوم من الجياد فمن نسلها «١».

---

(١) انظر تفسير البغوي (٧/ ٨٨). [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٦

وقيل : لمّا عقرها أبدل اللّه تعالى له خيرا منها ، وهى الرّيح تجرى بأمره ، فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ، قاله عليه السّلام عند غروب الشمس ، اعترافا بما صدر عنه من الاشتغال بها عن الصلاة أو الذكر ، وغايته حينئذ : أن الأولى استغراق الأوقات فى ذكر اللّه من الاشتغال بالدنيا ، فترك الأولى ، وتحسر لذلك ، وأمر بالقطع.

وأما حمله على الصلاة والاشتغال بها حتى يفوت الوقت ، فذنب عظيم ، تأباه العصمة. قاله شيخ شيوخنا الفاسى.

وقد يجاب بأنّ تركه كان نسيانا وذهولا ، لا عمدا ، فلا معصية.

وعدّى «أحببت» ب «عن» دون «على» لتضمنه معنى النّيابة ، أي : أنبت حب الخير «١» ، وهو المال الكثير ، والمراد : الخيل التي شغلته عن ذكر ربه ، حَتَّى تَوارَتْ أي : استترت بِالْحِجابِ أي : غربت واحتجبت عن العيون ، و«عن» : متعلق بأحببت ، باعتبار استمرار المحبة ودوامها. حسب استمرار العرض ، أي : أنبت حب الخير عن ذكر ربى ، واستمر ذلك حتى غربت الشمس. وإضمارها من غير تقدم ذكر لدلالة «العشى» عليها.

رُدُّوها عَلَيَّ ، هو من مقالة سليمان ، فَطَفِقَ مَسْحاً ، الفاء فصيحة ، مفصحة عن جملة حذفت ، لدلالة الكلام عليها ، إيذانا بسرعة الامتثال ، أي : فردّوها عليه ، فأخذ يمسح السيف مسحا بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ أي : بسوقها وأعناقها يقطعها ، من قولهم : مسح عنقه بالسيف ، وقيل : جعل يمسح بيده أعناقها وسوقها ، حبا لها ، وإعجابا بها ، وهو ينافى سياق الكلام «٢».

الإشارة : لم يذكر الحق تعالى لسليمان ترجمة مخصوصة ، كما ذكر لغيره بقوله : وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ، وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ ، بل خرطه فى سلك ترجمة أبيه ، وجعله هبة له تنبيها على أن مقام أهل الجمال الدنيوي ، لا يبلغ مقام أهل الجلال ففيه تنبيه على أن الفقير الصابر أعظم من الغنى الشاكر. قاله فى القوت.

وقوله تعالى : فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ ، فيه : أن من ترك شيئا عوّضه اللّه خيرا منه ، فمن كان فى اللّه تلفه ، كان على اللّه خلفه. وفيه حجة للصوفية على إتلاف كلّ ما شغل القلب عن اللّه ، كما فعل الشبلي من تمزيق الثياب الرفهة «٣». واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أي : أنبت حب الخير عن ذكر ربى ووضعته موضعه.

(٢) وقيل معناه : أنه حبسها فى سبيل اللّه ، وكوى سوقها وأعناقها بكىّ الصدقة. وهذا هو الذي رجحه أبو حيان ، لأنه يناسب مناصب الأنبياء ، لا القول الأول فإن فيه ما لا يليق ذكره بالنسبة للأنبياء. انظر البحر المحيط (٧/ ٣٨٠).

(٣) قال القرطبي فى تفسير (٦/ ٥٨٠٦) : وقد استدل الشبلي وغيره من الصوفية فى تقطيع ثيابهم وتخريقها بفعل سليمان هذا ، وهو استدلال فاسد ، لأنه لا يجوز أن ينسب إلى نبى معصوم أنه فعل الفساد. والمفسرون اختلفوا فى معنى الآية ... وأما إفساد ثوب صحيح لا لغرض صحيح ، فإنه لا يجوز .. انظر بقية كلامه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٧

ثم ذكر امتحانه ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٣٤ الى ٤٠]

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ (٣٤) قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ (٣٦) وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (٣٨) هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ أي : ابتليناه ، وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ سرير ملكه ، جَسَداً شق ولد ، أو جنيا ، ثُمَّ أَنابَ رجع إلى اللّه تعالى ، وأظهر ما قيل فى فتنته عليه السّلام ما روى مرفوعا : أنه قال : لأطوفنّ الليلة على سبعين – أو تسع وتسعين – امرأة ، تأتى كلّ واحدة منهن بفارس ، يجاهد فى سبيل اللّه ، ولم يقل «إن شاء اللّه» فطاف عليهنّ ، فلم تحمل إلا امرأة واحدة ، جاءت بشقّ رجل. قال نبينا عليه الصلاة والسّلام : «والذي نفسى بيده لو قال : إن شاء اللّه ، لجاهدوا فى سبيل اللّه فرسانا أجمعون»»

فالفتنة على هذا : كونه لم يقل : «إن شاء اللّه» والجسد هو شق الإنسان الذي ولد له. وقيل : إنه ولد

له ابن ، فأجمعت الشياطين على قتله ، وقالوا : إن عاش له ولد لم ننفك من خدمته ، فلمّا علم ذلك ، حمله فى السحاب ، فما شعر حتى ألقى على كرسيه جسدا ميتا ، فتنبه لخطأه ، حيث لم يتوكل على اللّه.

وقيل : إنه غزا صيدون من الجزائر ، فقتل ملكها ، وأخذ بنتا له تسمى جرادة ، من أحسن النّاس ، فاصطفاها لنفسه ، وأسلمت على جفاء ، وأحبها ، وكان لا يرقأ دمعها ، جزعا على أبيها ، فأمر الشياطين فمثّلوا لها صورته ، فكانت تغدوا عليها وتروح مع ولائدها ، فيسجدن لها ، كعادتهن فى ملكه ، فأخبره صاحبه آصف بذلك ، فكسر الصورة ، وعاقب المرأة ، ثم خرج إلى فلاة ، وفرش له الرّماد ، وجلس عليه تائبا إلى اللّه متضرعا. وكانت له أم ولد ، يقال لها : «أمينة» إذا دخل للطهارة ، أو لإصابة امرأة ، يعطيها خاتمه ، وكان فيها ملكه ، فأعطاها يوما ، فتمثل لها بصورته شيطان ، اسمه «صخر» وأخذ الخاتم ، فتختم به ، وجلس على كرسيه ، فاجتمع عليه الخلق ، ونفذ حكمه فى كل شىء ، إلا فى نسائه ، على المشهور ، وغير سليمان عن هيئته ، فأتى «أمينة» لطلب الخاتم ، فأنكرته وطردته ، فعلم

---

(١) أخرجه البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ ح ٣٤٢٤) ومسلم فى (الأيمان ، باب الاستثناء ٣/ ١٢٧٥ ح ١٦٥٤) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

أن الخطيئة قد أدركته ، فكان يطوف على البيوت يتكفف ، وإذا قال : أنا سليمان ، حثوا التراب عليه ، وسبّوه ، ثم عمد إلى السمّاكين ينقل لهم السمك ، فيعطونه كلّ يوم سمكتين ، فمكث على ذلك أربعين صباحا ، عدد ما عبد الوثن فى بيته ، فأنكر آصف وعظماء بنى إسرائيل حكم الشيطان ، حتى دخلوا على نسائه ، فقالوا : قد أنكرنا حكمه ، فذهبوا حتى جلسوا بين يديه ، فنشروا التوراة ، فقرؤوها ، فطار من بين أيديهم ، والخاتم معه ، ثم قذفه فى البحر ، فابتعلته سمكة ، فوقعت فى يد سليمان ، فبقر بطنها ، فإذا هو بالخاتم ، فتختم به ، وخرّ ساجدا للّه ، وعاد إليه ملكه ، وقبض الجنى «صخر» فجعله فى وسط صخرة ، وشد عليه بأخرى ، ثم أوثقهما بالحديد والرّصاص ، وقذفه فى البحر ، فهو باق فيه. فالجسد على هذا عبارة عن «صخر» سمى به ، وهو جسم لا روح فيه لأنه تمثيل بما لم يكن كذلك ، والخطيئة : تغافله عليه السّلام عن حال أهله لأن اتخاذ التماثيل لم يكن محظورا حينئذ ، والسجود للصورة بغير علم منه لا يضره. وأنكر بعض المحققين هذه القصة. وقال : لا يصح ما نقله

الأخباريون وأهل التفسير فى هذا الموضع ، من تشبه الشيطان بنبيه ، وتسلطه على ملكه ، وتصرفه فى أمته والجور فى حكمه «١».

قال القاضي عياض : الشياطين لا يتسلطون على مثل هذا ، وقد عصم اللّه الأنبياء عن مثله. ومثله لا بن العربي أيضا. وحكى إنكاره عن السمرقندي. وقال الطيبي : أشبه الأقاويل فى إلقاء الجسد هو شق الولد ، كما تقدم. وخالفه ابن حجر ، فقال : قال غير واحد من المفسرين : أن المراد بالجسد المذكور شيطان ، وهو المعتمد ، فاللّه أعلم ، غير أن التنزيه أسلم.

قال شيخ شيوخنا الفاسى فى حاشيته : وليس هذه كقصة أيوب ، فيما يذكر أنه تسلط الشيطان على إتلاف ماله وولده ، وضرره فى جسده لأن ذلك إنما فيه تسلط على محض ضرر دنيوى لا دينى. وقد قال عليه الصلاة والسّلام : «تفلت علىّ البارحة عفريت ...» الحديث «٢». وكذا سحر ، وسمّ وشجّ. والتسلط المذكور فى حق سليمان ، فيه تلبيس فى الدين فلا يصح ، إلا أن يقال : أنه لم يقر ، بل رفع اللبس بعد ذلك ، كما فى آية : فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ «٣» ، واللّه أعلم هـ.

---

(١) قال النّسفى – رحمه اللّه – فى تفسيره (٣/ ١٥٦) : وأما ما يروى من حديث الخاتم ، والشيطان ، وعبادة الوثن فى بيت سليمان عليه السّلام ، فمن أباطيل اليهود. وقال فى البحر المحيط (٧/ ٣٨١) : نقل المفسرون فى هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالا ، يجب براءة الأنبياء منها ، يوقف عليها فى كتبهم ، وهى مما لا يحل نقلها ، وإما هى من أوضاع اليهود والزنادقة. للمزيد انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٣٦) والإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير (٢٧٠ – ٢٧٥).

(٢) ولفظه كاملا : «إن عفريتا من الجن تفلت علىّ البارحة ، ليقطع علىّ الصلاة ، فأمكننى الله منه ، فأخذته ، فأردت أن أربطه على سارية من سوارى المسجد ، تنظروا إليه كلكم. فذكرت دعوة أخى سليمان : رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي فرددته خاسئا» أخرجه البخاري فى (الأنبياء ، باب قوله تعالى : وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ح ٢٤٢٣) ومسلم فى (المساجد ، باب جواز لعن الشيطان فى أثناء الصلاة والتعوذ منه. ١/ ٣٨٤ ح ٥٤١) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٣) من الآية ٥٢ من سورة الحج.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٩

قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي ، هو بدل من «أناب» ، أي : اغفر لى ما صدر عنى من الزلة ، وَهَبْ لِي مُلْكاً لا

يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ، ليكون معجزة لى ، مناسبة لحالى ، فإنه عليه السّلام لمّا نشأ فى بيت الملك والنّبوة ، وورثهما معّا ، استدعى من ربه معجزة جامعة لحكمهما. أو : لا ينبغى لأحد يسلبه منى بعد هذه السلبة ، أو : لا يصح لأحد من بعدي لعظمته وشدته.

قال القشيري : ويقال : لا ينبغى لأحد من بعد أن يسأل الملك ، بل يجب أن يكل أمره إلى اللّه – ومثله للجنيد ، وزاد : فإن الملك شغل عن المالك – أو : يقال : لا ينبغى لأحد من بعدي من الملوك ، لا من الأنبياء ، وإنما سأل الملك لسياسة النّاس ، وإنصاف بعضهم من بعض ، والقيام بحق اللّه ، ولم يسأله لأجل ميله إلى الدنيا. وهو كما قال يوسف عليه السّلام : اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ ... «١». ثم قال : علم أن نبينا عليه الصلاة والسّلام لا يلاحظ الدنيا ، ولا يملكها ، تحقيرا لها فقال : لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي لا لأنه بخل به عليه ، ولكن لعلمه أنه لا ينظر إلى ذلك.

هـ. هذا ، وقد يقال : أن قوله : وَهَبْ لِي مُلْكاً قد جرى على لسانه ، كما هو حال النّطق باللّه من أهل اللّه ، ولذلك كان الأمر كذلك ، ولم يزاحمه أحد ، كقول الخليل» : وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا «٢» ، لما جرى به القضاء أنطقه اللّه بما سيكون. وتقديم الاستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين ، جريا على سنن الأنبياء والصالحين ، وكون ذلك أدخل فى الإجابة.

إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ تعليل للدعاء بالهبة والمغفرة معا ، فإن المغفرة من أحكام وصف الوهّابية قطعا ، فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ فذللناها لطاعة ، إجابة لدعوته ، فعاد أمره عليه السّلام إلى ما كان عليه قبل الفتنة ، قيل : فتن سليمان بعد ما ملك عشرين ، وملك بعد الفتنة عشرين ، فسخرت له الرّيح تَجْرِي بِأَمْرِهِ بيان لتسخيرها ، رُخاءً أي : لينة ، من الرّخاوة ، أو : طيبة لا تزعج ، وهذا بعد أن تقلّ السرير من الأرض الإعصار ، فإذا صار فى الهواء حملته الرّخاء الطيبة ، حَيْثُ أَصابَ أي : قصد وشاء ، بلغة حمير. تقول العرب : أصاب الصواب فأخطاء الجواب ، أي : أراد الصواب فأخطأ. قال الشاعر :

أصاب الكلام فلم يستطع فأخطا الجواب لدى المفصل

وَسخرنا له الشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ : بدل من «الشياطين». فكانوا يبنون له ما يشاء ، ويغوصون له فى البحر لاستخراج اللآلئ ، وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر ، أي : وسخّرنا له كلّ بناء

---

(١) من الآية ٥٥ من سورة يوسف.

(٢) من الآية ١٢٩ من سورة البقرة.

وغواص من الشياطين ، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ فكان يقرن مردة الشياطين ، بعضهم مع بعض ، فى القيود والسلاسل ، للتأديب والكف عن العباد.

والصفد : القيد ، وقد يسمى العطاء بالصفد لأنه ارتباط للمنعّم عليه فى يد المنعم. ومنه قول علىّ رضي اللّه عنه : (من برّك فقد أسرك ، ومن جفاك فقد أطلقك) ، ومن هذا كانت الصوفية يهربون من خير النّاس ، أكثر مما يهربون من شرهم. قال الشيخ عبد السّلام بن مشيش لأبى الحسن الشاذلى – رضي اللّه عنهما : يا أبا الحسن اهرب من خير النّاس ، أكثر مما تهرب من شرهم ، فإنّ خيرهم يصيبك فى قلبك ، وشرهم يصيبك فى بدنك ، ولئن تصاب فى بدنك خير من أن تصاب فى قلبك ، ولعدو تصل به إلى ربك خير من حبيب يقطعك عن ربك. هـ.

هذا عَطاؤُنا ، هو حكاية لما خوطب به سليمان من قبل الحق تعالى ، أي : وقلنا له هذا الذي أعطيناك من الملك العظيم ، والسلطنة ، والتسلط على ما لم يسلط عليه غيرك ، هو عطاؤنا الخاص بك ، فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ أي :

أعط من شئت ، وامنع من شئت ، بِغَيْرِ حِسابٍ أي : غير محاسب على منّه ومنعه لتفويض التصرف فيه إليك ، فكان إذا أعطى أجر ، وإذا منع لم يأثم ، بخلاف غيره. قال الحسن : إن اللّه لم يعط أحدا عطية إلا جعل فيها حسابا ، إلا سليمان ، فإن اللّه أعطاه عطاء هينا. وهذا مما خص به سليمان عليه السّلام ، وأما غيره ، فيؤخر على بذله ، ويعاقب على منعه من حقه ، وبِغَيْرِ حِسابٍ : قيل : متعلق بعطاؤنا ، وقيل : حال من المستكن فى الأمر ، أي :

هذا عطاؤنا جما كثيرا ، لا يكاد يقدر على حصره ، أو : هذا التسخير عطاؤنا فامنن على من شئت من الشياطين بالإطلاق ، أو : أمسك من شئت منهم فى الوثاق ، لا حساب عليك فى ذلك.

وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى لقربى فى الآخرة ، مع ماله فى الدنيا من الملك العظيم ، وَحُسْنَ مَآبٍ مرجع ، وهى الجنة. وزلفى : اسم إن ، و«له» : خبر ، و«عند» : متعلق بالاستقرار.

روى أن سليمان عليه السّلام لما ورث ملك أبيه ، سار من الشام إلى العراق ، فبلغ خبره كسرى ، فهرب إلى خراسان ، فلم يلبث حتى هلك. ثم سار سليمان عليه السّلام إلى مرو ، ثم إلى بلاد الترك ، فأوغل فيها ، ثم جاز بلاد الصين ، ثم عطف إلى أن وافى بلد فارس ، فنزلها أياما ، ثم عاد إلى الشام ، فأمر ببناء بيت المقدس ، فلما فرغ منه سار إلى تهامة ، ثم إلى صنعاء ، وكان من حديثه مع صاحبتها ما ذكر اللّه ، وغزا بلاد المغرب الأندلس وطنجة وغيرهما.

انظر أبا السعود «١». واللّه تعالى أعلم.

---

(١) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٢٨).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣١

الإشارة : ما أعطى اللّه عبدا مكنة إلا بعد محنة ، ولا رفع مقاما إلا بعد ابتلاء ، إما فى البدن والمال ، وإما فى الدين ، إن صحبه رجوع وانكسار. كأنّ اللّه تعالى إذا أراد أن يرفع عبدا أهبطه إلى أرض قهرية العبودية ، ثم يرفعه إلى مشاهدة عظمة الرّبوبية ، ثم يملكه الوجود بأسره ، يتصرف فيه بهمته كيف شاء. ولذلك قيل فى معصية آدم :

نعمت المعصية أورثت الخلافة. وشاهده حديث : «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى» «١». ومن كان اللّه عنده ، ما ذا يفوته؟

وقوله تعالى : وَهَبْ لِي مُلْكاً .. إلخ ، قال القشيري : لم يطلب الملك الظاهر ، وإنما أراد به أن يملك نفسه ، فإن الملك – على الحقيقة – من ملك نفسه ، فمن ملكها لم يتّبع هواه ، – أي : فيكون حرا ، فيملكه اللّه التصرف فى الوجود. ثم قال : ويقال أراد به كمال حاله فى شهود ربه ، حتى لا يرى معه غيره ، ويقال : سأل القناعة التي لا يبقى معها اختيار. هـ.

وقوله تعالى : هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ ، هو عند الأولياء ليس خاصا بسليمان ، ف كل من تمكّن مع اللّه التمكن الكبير يفوض إليه الأمر ، ويقال : افعل ما شئت ، وشاهده : حديث أهل بدر. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى : رضي اللّه عنه يبلغ الوليّ مبلغا يقال له : أصحبناك السلامة ، وأسقطنا عك الملامة ، فاصنع ما شئت. ثم استشهد بالآية فى حق سليمان ، هذا ، وإن كان للنبى من أجل العصمة ، فلمن كان من الأولياء فى مقام الإمامة قسط منه ، من أجل الحفظة.

ثم ذكر أيوب عليه السّلام ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٤١ الى ٤٤]

وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ (٤٢) وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)

---

(١) سبق تخريج الحديث.

يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ ، وهو ابن عيصو ابن إسحاق عليه السّلام ، أي : من ذريته لأنه بعد يوسف ، وامرأته : رحمة بنت إفرائيم بن يوسف. إِذْ نادى رَبَّهُ ، وهو بدل اشتمال من «عبدنا». و«أيوب» :

عطف له ، أَنِّي أي : بأنى مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ «١» أي : تعب ، وفيه قراءات بفتحتين ، وبضمتين ، وبضم وسكون ، وبنصب وسكون. وَعَذابٍ أي : ألم ، يريد ما كان يقاسيه من فنون الشدائد ، وهو الضر فى قوله : مَسَّنِيَ الضُّرُّ «٢» ، وهو حكاية لكلامه الذي ناداه به ، وإلا لقيل : إنه مسه. وإسناده إلى الشيطان على طريق الأدب فى إسناد ما كان فيه كمال إلى اللّه تعالى ، وما كان فيه نقص إلى الشيطان أو غيره ، كقول الخليل : وَإِذا مَرِضْتُ «٣» ولم يقل : أمرضنى. وكقول يوشع عليه السّلام : وَما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ «٤». وفى الحقيقة : كل من عند اللّه. وقيل : أراد ما كان يوسوس به إليه فى مرضه ، من تعظيم ما نزل به من البلاء ، ويغريه على الكراهة والجزع ، فالتجأ إلى اللّه فى أن يكفيه ذلك بكشف البلاء ، أو بدفعه ورده بالصبر الجميل.

وروى : أنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين ، فارتد أحدهم ، فسأل عنه ، فقيل : ألقى إليه الشيطان : أن اللّه لا يبتلى الأنبياء والصالحين ، فشكا ذلك إلى ربه. وذكر فى سبب بلائه أنه ذبح شاة فأكلها ، وجاره جائع ، أو : رأى منكرا فسكت عنه ، أو : استغاثه مظلوم فلم يغثه ، أو : كانت مواشيه فى ناحية ملك كافر ، فداهنه ، فلم يغره ، أو : سؤاله امتحانا لصبره ، أي : هل يصبر أم لا ، أو : ابتلاه لرفع درجاته بلا سبب ، وهو أولى «٥».

ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ، حكاية ما أجيب به أيوب عليه السّلام ، أي : أرسلنا له جبريل عليه السّلام بعد انتهاء مدة مرضه ، فقال له : اركض ، أي : اضرب برجلك الأرض ، وهى أرض موضع بالجابية «٦» ، فضربها ، فنبعت عين ، فقيل : هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ أي : هذا ما تغتسل منه ، وتشرب منه ، فيبرأ ظاهرك وباطنك ، وقيل : نبعت له عينان حارة للاغتسال ، وباردة للشرب ، فاغتسل من إحداهما ، فبرئ ما فى ظاهره ، وشرب من الأخرى ، فبرئ ما فى باطنه ، بإذن اللّه تعالى. ومدة مرضه قيل : ثمان عشرة سنة ، وقيل : أربعين ، وقيل : سبع سنين ، وسبعة أشهر ، وسبعة أيام ، وسبع ساعات «٧».

---

(١) قرأ أبو جعفر «بنصب» بضم النّون والصاد ، وقرأ يعقوب بفتحهما ، وقرأ الباقون بضم النّون وسكون الصاد. انظر الإتحاف (٢/ ٤٢١)

(٢) من الآية ٨٣ من سورة الأنبياء.

(٣) من الآية ٨٠ من سورة الشعراء. [.....]

(٤) من الآية ٦٣ من سورة الكهف.

(٥) انظر تفسير النّسفى (٣/ ١٥٧).

(٦) الجابية : موضع بالشام.

(٧) راجع (٣/ ٤٨٧) من هذا الكتاب.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٣

وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ، قيل : أحياهم اللّه بأعيانهم ، وزاد مثلهم ، وقيل : جمعهم بعد تفرقهم ، وقيل :

أعطاه أمثالهم وزاده ضعفهم. قال القشيري : وكان له سبع بنات ، وثلاثة بنين ، فى مكتب واحد ، فحرك الشيطان الاسطوانة ، فانهدم البيت عليهم. هـ. ولم يذكر كم كان له من الزوجات ، فقد سلمت [منهن] «١» «رحمة» وهلك الباقي.

أعطيناه ذلك رَحْمَةً مِنَّا أي : رحمة عظيمة عليه من قبلنا. وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ أي : ولنذكرهم بذلك ليصبروا على الشدائد ، ويلتجئوا إلى اللّه فيما ينزل بهم لأنهم إذا سمعوا بما أنعمنا به عليه ، لصبره ، رغبّهم فى الصبر على البلاء.

ولمّا حلف : ليضربنّ امرأته مائة ضربة ، حيث أبطأت عليه فى حاجتها. وقيل : باعت ذوائبها واشترت به رغيفين ، وكانت متعلق أيوب. وقيل : طمع الشيطان فيها أن يسجد زوجها له فيشفيه ، أمره اللّه تعالى ببر يمينه ، فقال : وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً حزمة صغيرة من حشيش أو ريحان ، وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : قبضة من الشجر ، فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ ، وهذه الرّخصة باقية عند الشافعي وأبى حنيفة ، خلافا لمالك لأن الأيمان عنده مبنية على الأعراف. قال تعالى : إِنَّا وَجَدْناهُ علمناه صابِراً على البلاء ، وأما شكواه فليست جزعا ، بل رجوعا إلى مولاه ، على أنه عليه السّلام إنما طلب الشفاء خيفة على قومه ، حيث كان الشيطان يوسوس إليهم ، لو كان نبيا لما ابتلى بمثل ما ابتلى به ، وإرادة القوة على الطاعة ، فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان. قلت :

طلب الشفاء لا ينافى الرّضا لأن العبد ضعيف ، لا قوة له على قهرية الحق. ثم قال تعالى : نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ رجّاع إلى اللّه تعالى. قال القشيري : لم يشغله البلاء عن المبلى. وهو تعليل لمرضه.

الإشارة : كثير من الصوفية اختاروا البلاء على العافية ، وبعضهم اختار العافية ، قال علىّ رضي اللّه عنه : لأن أعطى فأشكر أحب إلىّ من أن أبتلى فأصبر ، أي : لأنه طريق السلامة ، وبه وردت الأحاديث ، والأولى للعبد ألا يختار مع سيده شيئا ، بل يكون مفوضا مستسلما ، يتلقى ما يرد عليه بالترحيب ، أىّ شىء كان. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر إبراهيم وبنيه ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٤٥ الى ٤٧]

وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ (٤٧)

---

(١) فى الأصول [منهم].

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٤

يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرْ عِبادَنا ، وقرأ المكي «١» : «عبدنا» ، إما على إرادة الخبر ، وإما أن يريد «إبراهيم» وحده لشرفه ، ثم عطف عليه من بعده ، ثم بيّنهم بقوله : إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ أي : أولى القوة فى الطاعة والبصيرة فى الدين ، أو : أولى الأعمال الجليلة ، والعلوم الشريفة. فعبّر بالأيدى عن الأعمال لأن أكثرها تباشر بها ، وبالأبصار عن المعارف لأنها أقوى مبادئها. وفيه تعريض بالجهلة الباطلين ، كأنهم كالزّمنى والعماة ، وتوبيخ على ترك المجاهدة والفكرة مع تمكنهم منهما.

إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ أي : جعلناهم خالصين لنا بخصلة عظيمة الشأن ، لا شوب فيها ، هى ذِكْرَى الدَّارِ أي : تذكر للدار الآخرة على الدوام ، فإنّ خلوصهم فى الطاعة بسبب تذكرهم لها ، وذلك لأن مطمح أنظارهم ، ومسرح أفكارهم ، فى كلّ ما يأتون وما يذرون ، جوار اللّه عز وجل ، والفوز بلقائه ، ولا يتأتى ذلك على الدوام إلا فى الآخرة ، فمطلبهم إنما هو الجوار والرّؤية ، لا مجرد الحضور فى تلك الدار ، كما قال ابن الفارض – رضي اللّه عنه :

ليس سؤلى من الجنان نعيما غير أنّى أريدها لأراك

قال ابن عطية : يحتمل أن يكون معنى الآية : إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بأن خلص لهم التذكير بالدار الآخرة ، ودعاء الناس إليها ، أي : وتزهيدهم فى الدنيا ، كما هو ديدن الأنبياء والرّسل. وهذا قول قتادة ، أو : إنا أخلصناهم بأن خلص لهم ذكرهم للدار الآخرة وخوفهم والعمل بحسب ذلك. وهذا قول مجاهد.

هـ. قلت : مرتبة الرّسل تنافى العمل لحرف ، فإنّ أولياء هذه الأمة تحرروا من العمل للحرف ، بل عبدوا اللّه شكرا ومحبة وعبودية ، لا طعما فى شيء ، فكيف بأكابر الرّسل. وإطلاق الدار للإشعار بأنها الدار فى الحقيقة ، وإنما الدنيا معبر إليها.

ومن قرأ بالإضافة «٢» ، فمن إضافة الشيء إلى ما بيّنه لأن الخالصة تكون ذكرى وغير ذكرى ، و«ذكرى» :

مصدر مضاف إلى المفعول ، أي : بإخلاصهم ذكرى الدار. وقيل : خالصة بمعنى خلوص ، وهى مضافة إلى الفاعل ، أي : بأن خلصت لهم ذكرى الدار ، على أنهم لا يشوبون ذكرى الدار بشيء آخر ، إنما همّهم ذكرى الدار الآخرة لجوار الحبيب.

---

(١) وهو ابن كثير الداري ، أحد القراء السبعة.

(٢) أي : «خالصة» بغير تنوين ، مضافا للبيان ، كما فى «بشهاب قبس». وبها قرأ نافع وأبو جعفر. انظر الإتحاف (٢/ ٤٢٢)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٥

وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ المختارين من بين أبناء جنسهم الْأَخْيارِ : جمع خير ، أو : خير ، على التخفيف ، كأموات جمع ميّت ، أو : ميت.

الإشارة : أولياء هذه الأمة – أي : العارفون باللّه – يزاحمون الأنبياء والرّسل فى جلّ المراتب ، قال عليه السّلام : «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل» «١» أي : العلماء باللّه فإنهم لم يقفوا مع دنيا ولا مع آخرة ، بل حطوا هممهم على اللّه ، ولم يقصدوا شيئا سواه ، خلعوا النّعلين عن الكونين ، وركضوا إلى المكوّن ، وكانت لهم اليد الطولى فى عمل الطاعات عبوديّة ، والبصيرة النّافذة فى مشاهدة الرّبوبية ، هذه طريقهم ، وهذا مذهبهم ، ومن حاد منهم عن هذا لم يعدّوه منهم. جعلنا اللّه ممن خرط فى سلكهم.

ثم ذكر بقية بنيه ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : آية ٤٨]

وَاذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ (٤٨)

يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرْ إِسْماعِيلَ ، فصل ترجمته عن أبيه وأخيه للإشعار بعلو شأنه ، واستقلاله بالشرف والذكر ، ولعراقته فى الصبر ، الذي هو المقصود بالتذكير ، وهو أكبر بنيه. وَاذكر الْيَسَعَ بن خطوب «٢» بن العجوز ، استعمله إلياس على بنى إسرائيل ، ثم استنبئ. و«ال» فيه ، قيل : للتعريف ، وأصله : يسع ، وقيل : زائدة لأنه عجمى علم ، وقيل : هو يوشع ، وَذَا الْكِفْلِ وهو ابن عم اليسع ، أو : بشر بن أيوب. واختلف فى نبوته وسبب لقبه ، فقيل : فرّ إليه مائة نبى من بنى إسرائيل ، خوفا من القتل ، فآواهم وكفلهم ، وقيل : تكفل بعبادة رجل صالح كان فى وقته. وَكُلٌّ أي : وكلهم مِنَ الْأَخْيارِ المشهورين بالخيرة.

الإشارة : إنما كان هؤلاء مصطفين أخيارا بالوفاء بالعهود ، والوقوف مع الحدود ، والصبر على طاعة الملك المعبود ، وتحمل ما يقرب إلى حضرة الشهود. ف كل من اتصف بهذه الخصال كان من المصطفين الأخيار.

ثم ذكر عامة المؤمنين ، أو : ما أعد لمن ذكر آجلا ، بعد ذكرهم الجميل عاجلا ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٤٩ الى ٥٤]

هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرابٍ (٥١) وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ (٥٢) هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ (٥٣)

إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ (٥٤)

---

(١) قال فى كشف الخفاء (٢/ ٨٣ ، ح ١٧٤٤) : «قال السيوطي فى الدرر : لا أصل له. وقال فى المقاصد : قال شيخنا – يعنى ابن حجر – ومن قبله الدميري والزركشي : إنه لا أصل له. زاد بعضهم : ولا يعرف فى كتاب معتبر». وانظر أيضا العلل المتناهية (ح ٧٠٢).

(٢) فى نسخة [قطوب].

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٦

قلت : (جنات) : عطف بيان لحسن مآب ، أو : بدل. و(مفتحة) : حال من (جنات عدن). والعامل فيها :

الاستقرار فى (للمتقين). و(الأبواب) : نائب الفاعل لمفتّحة. والرّابط بين الحال وصاحبها : إما ضمير مقدّر ، كما هو رأى البصريين ، أي : الأبواب منها ، أو : الألف واللام القائم مقامه ، كما هو رأى الكوفيين ، أي : أبوابها. و(متكئين) :

حال من ضمير (لهم) ، والعامل فيه : (مفتحة). و(يدعون) : إما استئناف ، أو : حال مما ذكر ، أو : من ضمير (متكئين).

يقول الحق جل جلاله : هذا أي : هذا الذي ذكر من الآيات النّاطقة بمحاسن الأنبياء والرّسل ، ذِكْرٌ أي : شرف لهم ، وذكر جميل يذكرون به أبدا ، أو : نوع من الذكر ، أي : القرآن. وآي منه مشتمل على أنباء الأنبياء ، أو : تذكير ووعظ لأنه يذكر أحوال الأكابر ليقتدى بهم ، أو : ذكر من مضى الأنبياء ، أو : شرف لك لأنه معجزة لك يدلّ على صدقك ، وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ أي : جنس المتقين ، أو : من ذكر

من الرّسل ، عبّر عنهم بالمتقين مدحا لهم بالتقوى إذ هى غاية الكمال. لَحُسْنَ مَآبٍ مرجع.
ثم بيّنه بقوله : جَنَّاتِ عَدْنٍ إقامة مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ فإذا جاءوها لا يلحقهم ذلّ الحجاب ، ولا كلفة الاستئذان ، تستقبلهم الملائكة بالتبجيل والترحيب ، مُتَّكِئِينَ فِيها على أرائكهم فى حجالهم ، يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ مما يشتهون وَشَرابٍ كثير كذلك ، حذف اكتفاء بالأول ، والاقتصار على دعاء الفاكهة للإيذان بأن مطاعمهم لمحض [التفكه] «١» والتلذذ ، دون التغذي والحاجة ، فإنه لا تحلل فى الأبدان ولا حاجة.
وَعِنْدَهُمْ حور قاصِراتُ الطَّرْفِ على أزواجهن ، لا ينظرون إلى غيرهم ، أَتْرابٌ لدات ، أسنانهنّ كأسنانهم. قيل : ثلاث وثلاثون سنة لكل واحد ، أو : مستويات فى الحسن والجمال والشكل لأن التحاب بين الأقران أبلغ وأثبت ، وقيل : أتراب بعضهن لبعض ، لا عجوز فيهن ولا صبية. واشتقاقه من التراب ، فإنه [يمسّهن] «٢» فى وقت واحد.

---

(١) فى الأصول [الفاكهة].
(٢) فى الأصول الخطية [يمسهم].

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٧
هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ ، قال ابن عرفة : اللام للتوقيت ، أي : عنده ، أو : للتعليل ، فإن الحساب علّة للوصول إلى الجزاء. وقرأ المكي والبصري بياء الغيب ، ليوافق ما قبله ، والالتفات أليق بمقام الامتنان والتكريم. إِنَّ هذا الذي ذكر من ألوان النّعيم والكرامات لَرِزْقُنا أعطيناكموه ، ما لَهُ مِنْ نَفادٍ من انقطاع وتمام أبدا.
الإشارة : كل من توجه إلى اللّه بكليته ، واتصف بمحاسن الأخلاق ، كان له ذكر وشرف فى الدنيا ، وكرامة فى العقبى ، بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.
ثم ذكر أضدادهم بقوله :
[سورة ص (٣٨) : الآيات ٥٥ الى ٦٤]
هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ (٥٦) هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ (٥٨) هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ (٥٩) قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ (٦٠) قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ (٦١) وَقالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ (٦٢) أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ

عَنْهُمُ الْأَبْصارُ (٦٣) إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)

قلت : (هذا) : خبر ، أي : الأمر هذا ، أو : مبتدأ أي : هذا كما ذكر ، وهو من الاقتضاب «١» الذي يقرب من التخلص «٢» ، كقوله بعد الحمد : أما بعد. قال السعد : هو من فصل الخطاب ، الذي هو أحسن موقعا من التخلص. قال :

وقد يكون الخبر مذكورا كقوله : هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ .. الآية. هـ. قال الطيبي : هو من فصل الخطاب ، على التقدير الأول ، لا الثاني. هـ. أي : إذا كان خبرا عن مضمر ، لا ما إذا ذكر الخبر.

يقول الحق جل جلاله : هذا

أي : الأمر هذا ، وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ مرجع جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها يدخلونها ، حال من جهنم ، فَبِئْسَ الْمِهادُ : الفراش ، شبّه ما تحتهم من النّار بالمهاد الذي يفرش للنائم ، والمخصوص محذوف ، أي : جهنم.

---

(١) الاقتضاب عند البلغاء : الانتقال مما افتتح به الكلام إلى المقصود من غير مناسبة ، كقولك بعد حمد اللّه : أما بعد فقد فعلت كذا وكذا. انظر محيط المحيط (ص ٧٤٢).

(٢) التخلص عند البلغاء : الانتقال مما افتتح به الكلام إلى المقصود مع رعاية المناسبة. انظر محيط المحيط (ص ٢٤٨).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٨

هذا فَلْيَذُوقُوهُ أي : ليذوقوا هذا فليذوقوه ، كقوله تعالى : وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ «١» أو : العذاب هذا فليذوقوه ، وهو حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ .. إلخ ، أو : (هذا) : مبتدأ ، و(حميم وغساق) : خبر ، وما بينهما اعتراض ، والغساق :

ما يغسق ، أي : يسيل من صديد أهل النّار ، يقال : غسقت العين إذا سال دمعها. وقيل : الحميم يحرق بحرّه ، والغساق يحرق ببرده. قيل : «لو قطرت منه قطرة بالمشرق لأنتنت أهل المغرب ، ولو قطرت بالمغرب لأنتنت أهل المشرق ، وقيل : الغساق : عذاب لا يعلمه إلا اللّه. وهو بالتخفيف والتشديد ، قرىء بهما «٢».

وَآخَرُ أي : وعذاب آخر ، أو : مذوق آخر ، مِنْ شَكْلِهِ من مثل العذاب المذكور. وقرأ البصري : «أخر» بالجمع ، أي : ومذوقات أخر من شكل هذا العذاب فى الشدّة والفظاعة ، أَزْواجٌ أي : أصناف ، وهو خبر لآخر ، أو : صفة له ، أو : للثلاثة.

هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ، حكاية لما يقوله الخزنة للطاغين إذا دخلوا النّار ، واقتحمها معهم فوج كانوا يتبعونهم فى الكفر والضلالة. والاقتحام : الدخول فى الشيء بشدة ، أو : من كلام الطاغين بعضهم من بعض.

لا مَرْحَباً بِهِمْ ، هو من تمام كلام الخزنة ، على الأول ، أو : من كلام الطاغين ، دعاء منهم على أتباعهم. يقال لمن يدعو له أو يفرح به : مرحبا ، أي : وجدت مكانا رحبا ، لا ضيقا ، ثم تدخل عليه النّفى فى دعاء السوء ، فتقول :

لا مرحبا. و«بهم» : بيان للمدعو عليهم ، إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ أي : داخلوها. وهو تعليل لاستحقاقهم الدعاء عليهم.

وقيل : (هذا فوج ...) إلخ ، من كلام الخزنة لرؤساء الكفرة. و(لا مرحبا بهم ...) إلخ ، من كلام الرّؤساء.

قالُوا أي : الأتباع : بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أي : الدعاء الذي دعوتم به علينا أنتم أحقّ به ، وعللوا ذلك بقوله : أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا أي : إنكم دعوتمونا للكفر ، فتبعناكم ، فقدمتمونا به للعذاب ، فَبِئْسَ الْقَرارُ أي : بئس المقر جهنم ، قصدوا بذمها تغليظ جناية الرّؤساء عليهم. قالُوا أي : الأتباع ، معرضين عن خصومتهم ، متوجهين إلى اللّه : رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً أي : مضاعفا. فِي النَّارِ أو : ذا ضعف ، ومثله قوله : رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً «٣» ، وهو أن يزيد على عذابه مثله.

---

(١) من الآية ٤٠ من سورة البقرة. [.....]

(٢) قرأ حمزة والكسائي وحفص بالتشديد. وخففها الآخرون. انظر الإتحاف (٢/ ٤٢٣).

(٣) من الآية ٣٨ من سورة الأعراف.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٩

وَقالُوا أي : الرؤساء : ما لَنا لا نَرى رِجالًا ، يعنون : فقراء المسلمين ، كُنَّا نَعُدُّهُمْ فى الدنيا مِنَ الْأَشْرارِ من الأرذال الذين لا خير فيهم ولا جدوى ، حيث كانوا يسترذلونهم ويسخرون منهم ، أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا ، بهمزة الاستفهام ، سقطت لأجلها همزة الوصل. والجملة : استئنافية ، ومن قرأ بالوصل «١» فقط فالجملة : صفة ثانية لرجال ، أَمْ زاغَتْ مالت عَنْهُمُ الْأَبْصارُ ، والمعنى على الاستفهام : أتخذناهم سخريا وليسوا كذلك ، فلم يدخلوا معنا النّار فهم فى الجنة ، أم دخلوها معنا ، ولكن مالت عنهم أبصارنا ، فلا نراهم معنا؟ وعلى الاستخبار : ما لنا لا نرى رجالا معنا فى النّار ، كانوا عندنا أشرار ، قد

اتخذناهم سخريا نسخر بهم ، ثم أضربوا وقالوا : بل زاغت عنهم الأبصار ، فلا نراهم فيها ، وإن كانوا معنا ، أو : زاغت أبصارنا ، وكلّت أفهامنا عنهم ، حتى خفى علينا مقامهم ، وأنهم على الحق ونحن على الباطل ، وما تبعناهم. ومن قرأ «سخريا» بالضم «٢» فمن :

التسخير والاستخدام. ومن قرأ بالكسر ، فمن السخر ، الذي هو الهزء. وجوز فى القاموس الضم والكسر فيهما معا ، فراجعه.

إِنَّ ذلِكَ الذي حكى من أحوالهم لَحَقٌّ لا بد من وقوعه البتة ، وهو تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ فيها على ما تقدم.

ولمّا شبّه تفاوضهم ، وما يجرى بينهم من السؤال والجواب ، بما يجرى بين المتخاصمين ، سمّاه تخاصما ، وبأنّ قول الرّؤساء : لا مَرْحَباً وقول الاتباع : بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ من باب الخصومة لا محالة ، فسمى التقاول كله تخاصما لا شتماله على ذلك.

الإشارة : كل من تعدى وطغى ، ولم يتب ، من المؤمنين ، يرى شيئا من أهوال الكفرة ، فلا يدخل الجنة حتى يتخلص ، وكلّ من سخر بالفقراء يسقط فى الحضيض الأسفل ، ويكون سكناه فى أسفل الجنة ، فيقول : ما لنا لا نرى معنا رجالا كنا نعدّهم من المبتدعة الأشرار ، اتخذناهم سخريا ، وهم كبراء عند اللّه ، رفعوا عنا ، أم هم معنا ولكن زاغت عنهم الأبصار؟ فيجابون : بأنهم رفعوا مع المقربين ، كانوا مشتغلين بنا ، وكنتم منهم تضحكون. إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون بالقرب ومشاهدة طلعتنا ، فى كلّ حين ، وباللّه التوفيق.

---

(١) قرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، ويعقوب «اتخذناهم» بوصل الهمزة بما قبلها ، وبكسر الألف عند الابتداء. وقرأ الباقون بقطع الألف وفتحها ، على الاستفهام. انظر الإتحاف (٢/ ٤٢٣).

(٢) قرأ بضم السين نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر. وقرأ الباقون بكسرها.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٠

ثم قرر تحقيق الرّسالة والوحدانية ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٦٥ الى ٧٠]

قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ وَما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) ما كانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩)

إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد للمشركين : إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ من جهته تعالى ، أنذركم عذابه ، وَما مِنْ إِلهٍ فى الوجود إِلَّا اللَّهُ الْواحِدُ الذي لا يقبل الشركة أصلا ، الْقَهَّارُ لكل شيء سواه ، رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا من المخلوقات ، فكيف يتوهم أن يكون له شريك منها ، الْعَزِيزُ الذي لا يغلب الْغَفَّارُ المبالغ فى المغفرة لمن يشاء. وفى هذه النّعوت من تقرير التوحيد ، والوعد للموحّدين ، والوعيد للمشركين ، ما لا يخفى. وتثنية ما يشعر بالوعيد من وصف القهر والعزة وتقديمهما على وصف المغفرة لتقوية الإنذار.

قُلْ هُوَ أي : ما نبأتكم به من كونى رسولا ، وأنّ اللّه واحد لا شريك له ، نَبَأٌ عَظِيمٌ وارد من جهته تعالى ، لا يعرض عن مثله إلا غافل منهمك. أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ غافلون ، وعن ابن عباس : النبأ العظيم : القرآن. وعن الحسن : يوم القيامة. وتكرير الأمر للإيذان بأن المقول أمر جليل ، له شأن خطير ، لا بد من الاعتناء به ، أمرا وائتمارا.

ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ، احتجاج على صحة نبوته ، بأن ما ينبئ به عن الملأ الأعلى ، واختصامهم ، أمر غيبى ، لم يكن له به علم قطّ ، ثم علمه وأخبر به ، ولم يسلك الطريق الذي سلكه النّاس فى علم ما لم يعلموا ، وهو الأخذ عن أهل العلم ، ودراسة الكتب ، فتحقق أن ذلك لم يحصل له إلا بالوحى من اللّه تعالى. والملأ الأعلى هم الملائكة ، وآدم ، وإبليس لأنهم كانوا فى السماء ، وكان اختصامهم : التقاول بينهم ، كقولهم :

أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها ... «١» إلخ ، وكقول إبليس : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ... «٢» إلخ ، ويدل عليه ما يأتى من الآيات. وقيل : اختصامهم فى الكفارات وغفران الذنوب ، فإن العبد إذا فعل حسنة اختلفت الملائكة فى قدر ثوابه ، حتى يقضى اللّه ما شاء.

---

(١) الآية ٣٠ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ١٢ من سورة الأعراف ، والآية ٧٦ من سورة «ص».

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤١

وروى فى هذا حديث ، وهو أنه – عليه الصلاة والسّلام – قال له ربه – عز وجل – فى النّوم : «أتدري فيما يختصم الملأ الأعلى؟ قلت : لا ، قال : اختصموا فى الكفارات والدرجات ، فأما الكفارات فإسباغ الوضوء على المكاره ، ونقل الأقدام إلى الجماعات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، وأما الدرجات فإفشاء السّلام ، وإطعام الطعام ، والصلاة بالليل والنّاس نيام» «١». رواه الترمذي.

و«إذ يختصمون» : متعلق بمحذوف يقتضيه المقام إذ المراد نفى علمه – عليه الصلاة والسّلام – بحالهم لا بذواتهم ، والتقدير : ما كان لى فيما سبق علم بما يوحيه فى شأن الملأ الأعلى وقت اختصامهم. وانظر أبا السعود.

إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أي : ما يوحى إلىّ ما يوحى من الأمور الغيبية ، التي من جملتها حال الملأ الأعلى ، إلا لأنما أنا نذير مبين من جهته تعالى ، فحذف اللام وانتصب بإيصال الفعل إليه ، ويجوز أن يرتفع بالنيابة عن الفاعل ، أي : ما يوحى إلىّ إلا هذا ، وهو أن أنذر وأبلّغ ، ولا أفرط فى ذلك ، أي : ما أومر إلا بهذا الأمر وحده ، وليس إلىّ غير ذلك. وقرىء بكسر «إنما» «٢» على الحكاية ، أي : إلا هذا القول ، وهو : أن أقول لكم : إنما أنا نذير مبين ، ولا ادّعى شيئا آخر.

الإشارة : تربية اليقين تطلب فى ثلاثة أمور فى توحيد الألوهية ، بالتبري من الشرك الجلّى والخفي. وهو مفاد قوله : وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ ... إلخ. وفى تصديق الواسطة ، وهو النّذير المبين ، بتعظيمه واتباع سنته ومنهاجه القويم ، وفى التصديق بما جاء به ، وهو النّبأ العظيم ، على أىّ تفسير كان ، إما القرآن ، باتباعه ، والتدبر فى معانيه ، أو : يوم القيامة ، بالتأهب له ، وجعله نصب العين. وباللّه التوفيق.

ثم فسّر الاختصام المتقدم ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٧١ الى ٨٥]

إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ (٧٤) قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ (٧٥) قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)

---

(١) أخرجه الترمذي فى (التفسير – سورة «ص» ح ٣٢٣٤ و٣٢٣٥) من حديث ابن عباس ، ومعاذ بن جبل – رضي اللّه عنهما.

وقال عن حديث ابن عباس : حسن غريب. وعن حديث معاذ : حسن صحيح.

(٢) وهى قراءة أبى جعفر المدني. انظر الإتحاف (٢/ ٤٢٤).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٢

قلت : (إذ قال) : متعلق بيختصمون ، أو : بدل من (إذ) قبله ، أو : باذكر. و«الحق» : فمن نصبه ، فعلى حذف فعل القسم ، كقولك : اللّه لأفعلن ، أي : أقسم بالحق ، فحذفت الباء ووصل الفعل به ، ومن رفعه فمبتدأ ، أي : الحقّ منى ، أو :

خبر ، أي : أنا الحق. والحق الثاني : مفعول «أقول» ، والجملة : معترضة بين القسم وجوابه ، وهو : (لأملأن).

يقول الحق جل جلاله فى تفسير الاختصام المذكور : إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ حين أراد خلق آدم ، إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ ، وقال : إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها «١».

والتعرض لعنوان الرّبوبية ، مع الإضافة إلى ضميره – عليه الصلاة والسّلام – لتشريفه صلّى اللّه عليه وسلم ، والإيذان بأنّ وحي هذا النّبأ إليه تربية وتأييد له. والكاف وارد باعتبار حال الآمر ، لكونه أدلّ على كونه وحيا منزلا من عنده تعالى ، كما فى قوله تعالى : ... يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا ... «٢» إلخ ، دون حال المأمور ، وإلا لقال : ربى لأنه داخل فى حيز الأمور.

فَإِذا سَوَّيْتُهُ أي : صوّرته بالصورة الإنسانية ، والخلقة البشرية ، أو : سويت أجزاء بدنه ، بتعديل أعضائه ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي الذي خلقته قبل ، وأضافه إليه تخصيصا ، كبيت اللّه ، وناقة اللّه. والرّوح سر من أسرار اللّه ، لطيفة ربانية ، سارية فى كثيفة ظلمانية ، فإذا سرت فيه حيى بإذن اللّه ، أي : فإذا أحييته فَقَعُوا أي : اسقطوا لَهُ ، وهو أمر ، من وقع ، ساجِدِينَ قيل : كان انحناء يدلّ على التواضع ، وقيل : كان سجودا للّه ، أو سجود تحية لآدم وتكريما له.

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٥٤ من سورة الزمر.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٣

فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ، «كل» للإحاطة ، و«أجمعون» للاجتماع ، فأفاد أنهم سجدوا عن آخرهم جميعا ، فى وقت واحد ، غير متفرقين فى أوقات. وظاهر هذه الآية وما فى سورة الحجر «١» : أن الأمر بالسجود كان تعليقيا ، لا تنجيزيا ، فأمرهم بالسجود قبل أن يخلقه ، بل حين أعلمهم بخلقه ، فلما خلقه سجدوا ممتثلين للأمر الأول ، وظاهر ما فى البقرة والأعراف والإسراء والكهف : أن الأمر كان تنجيزيا بعد خلقه ، والجمع بينهما : أنه وقع قبل وبعد ، أو : اكتفى بالتعليقى ، كما يقتضيه

الحديث ، حيث قال له بعد نفخ الرّوح فيه : «اذهب فسلّم على أولئك الملائكة ، فسلّم عليهم ، فردوا عليه وسجدوا له». واللّه تعالى أعلم بغيبه.

إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ أي : تعاظم عن السجود ، والاستثناء متصل إن قلنا : كان منهم ، حيث عبد عبادتهم ، واتصف بصفاتهم ، مع كونه جنيا ، أو : منقطع ، أي : لكن إبليس استكبر ، وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ أي : صار منهم بمخالفته للأمر ، واستكباره عن الطاعة ، أو : كان منهم فى علم اللّه.

قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ أي : عن السجود لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ، بلا واسطة أب ولا أم ، امتثالا لأمرى ، وإعظاما لخطابى ، ولمّا كانت الأعمال تباشر فى الغالب باليد ، أطلقت على القدرة. والتثنية لإبراز كمال الاعتناء بخلقه عليه السّلام ، المستدعى لإجلاله وإعظامه ، قصدا إلى تأكيد الإنكار ، وتشديد التوبيخ. وسيأتى فى الإشارة بقية الكلام فى سر التثنية. قال له تعالى : أَسْتَكْبَرْتَ ، بهمزة الاستفهام ، وطرح همزة الوصل ، أي :

أتكبرت من غير استحقاق ، أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ المستحقين للتفوق ، أو : أستكبرت عن السجود ولم تكن قبل ذلك من المتكبرين ، أم كنت قبل ذلك من المتكبرين على ربك؟.

قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، ولا يليق أن يسجد الفاضل للمفضول ، كقوله : لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ «٢» ، وبيّن فضيلته فى زعمه بقوله : خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ، يعنى لو كان مخلوقا من نار لما سجدت له لأنه مخلوق مثلى ، فكيف أسجد لمن هو دونى لأنه طين ، والنّار تغلب الطين وتأكله ، ولقد أخطأ اللعين ، حين خصّ الفضل بما من جهة المادة والعنصر ، وغاب عنه ما من جهة الفاعل ، كما أنبأ عنه قوله تعالى : لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ، وما من جهة الصورة كما نبّه عليه قوله تعالى : وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ، وما من جهة الغاية ، وهو ما خصّه به من علوم الحكمة ، التي ظهرت بها مزيته على الملائكة ، حتى أمروا بالسجود ، لما ظهر أنه أعلم منهم بما تدور عليه أمر الخلافة فى الأرض ، وأن له خواص ليست لغيره.

---

(١) فى قوله تعالى : فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ ، فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ

الآيتان ٢٩ - ٣٠.

(٢) الآية ٣٠ من سورة الحجر.

قالَ فَاخْرُجْ مِنْها من الجنة ، أو : من زمرة الملائكة ، وهو المراد بالأمر بالهبوط ، أو : من السموات ، أو :

من الخلقة التي أنت فيها ، وانسلخ منها ، فإنه كان يفتخر بخلقته ، فغيّر اللّه خلقته ، فاسودّ بعد ما كان أبيض ، وقبح بعد ما كان حسنا ، وأظلم بعد ما كان نوراينا. فَإِنَّكَ رَجِيمٌ أي : مرجوم ، مطرود ، من كل خير وكرامة. أو : شيطان يرجم بالشهب.

وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إبعادى من الرّحمة. وتقييدها هنا ، وإطلاقها فى قوله : وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ «١» لأن لعنة اللاعنين من الثقلين والملائكة أيضا من جهته تعالى ، وأنهم يدعون عليه بلعنة اللّه وإبعاده من الرّحمة ، إِلى يَوْمِ الدِّينِ إلى يوم الجزاء والعقوبة ، ولا يظن أن لعنته غايتها يوم الدين ، ثم تنقطع ، بل فى الدنيا اللعنة وحدها ، ويوم القيامة يقترن بها العذاب ، فيلقى يومئذ من ألوان العذاب ، وأفانين العقاب ، ما ينسى به اللعنة ، وتصير عنده كالزائد. أو : لمّا كان عليه اللعنة فى أوان الرّحمة ، فأولى أن يكون عليه اللعنة فى غير أوانها ، وكيف ينقطع ، وقد قال تعالى : فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ «٢» وهو إمامهم؟.

قالَ إبليس : رَبِّ فَأَنْظِرْنِي أمهلنى وأخّرنى ، أي : إذا جعلتنى رجيما فأمهلنى ولا تمتنى ، إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ أي : آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم. وأراد بذلك فسحته لإغوائهم ، وليأخذ منهم ثأره ، وينجو من الموت بالكلية إذ لا موت بعد البعث ، قالَ تعالى : فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ، وهو وقت النّفخة الأولى ، ومعنى «معلوم» أنه معلوم عند اللّه ، لا يتقدم ولا يتأخر. وورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرّض لشمول ما سأله لآخرين ، على وجه يشعر بكون السائل تبعا لهم فى ذلك ، دليل واضح على أنه إخبار بالإنظار المقدر لهم أزلا ، لا إنشاء لإنظار خاص به ، قد وقع إجابة لدعائه ، أي : إنك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلا ، حسبما تقتضيه حكمة التكوين.

قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، أقسم بعزة اللّه ، وهو سلطانه وقهره على إغواء بنى آدم ، بتزيين المعاصي والكفر ، إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ، وهم الذين أخلصهم اللّه للإيمان به وطاعته ، وعصمهم من الغواية ، أو : الذين أخلصوا قلوبهم وأعمالهم للّه فى قراءة الكسر «٣».

---

(١) من الآية ٣٥ من سورة الحجر.

(٢) من الآية ٤٤ من سورة الأعراف. [.....]

(٣) قرأ بكسر اللام فى «المخلصين» ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. اسم فاعل. وقرأ الباقون بفتحها ، اسم مفعول. انظر السبعة ، ٣٤٨ والإتحاف (٢/ ٣٢٤).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٥

قالَ تعالى : فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ أي : أقسم بالحق ولا أقول إلا الحق ، أو : الحق قسمى «١» وأقول الحق : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ من جنسك ، وهم الشياطين ، وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ من ذرية آدم أَجْمَعِينَ أي : لأعمرنّ جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين ، لا أترك منهم أحدا.

الإشارة : التجلي بهذا الهيكل الآدمي فاق جميع التجليات ، وصورته البديعة فاقت جميع الصور ، ولذلك لم يقل الحق تعالى فى شىء أنه خلقه فى أحسن تقويم إلا الآدمي ، وذلك لأنه اجتمع فيه الضدان ، واعتدل فيه الأمران الظلمة والنّور ، الحس والمعنى ، الروحانية والبشرية ، القدرة والحكمة. ولذلك قال تعالى فيه : لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ، ولم يقله فى غيره ، أي : خلقته بيد القدرة ويد الحكمة. فالقدرة كناية عما فى باطنه من أسرار المعاني الإلهية ، والحكمة عبارة عما فى قالبه من عجائب التصوير ، وغرائب التركيب ، ولذلك كانت معرفته أتم ، وترقيه لا ينقطع ، إن كان من أهله ، وراجع ما تقدم فى قوله تعالى وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ «٢».

وقال القشيري بعد كلام : فسبحان اللّه! خلق أعزّ خلقه من أذلّ شىء وأخسّه. ثم قال : ما أودع عند آدم لم يوجد عند غيره ، فيه ظهرت الخصوصية. هـ.

ثم نزّه نبيه عن الطمع فى الأجر على التبليغ والتكلف ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٨٦ الى ٨٨]

قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ على تبليغ ، الوحى أو على القرآن مِنْ أَجْرٍ دنيوى ، حتى يثقل عليكم ، وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ أي : المتصنعين بما ليسوا من أهله ، وما عرفتمونى قط متصنعّا حتى أنتحل النّبوة ، أو أتقول القرآن ، وعنه صلّى اللّه عليه وسلم : «للمتكلف ثلاث علامات : ينازع من فوقه ، ويتعاطى ما لا ينال ، ويقول ما لا يعلم» «٣».

---

(١) هذا المعنى على قراءة «فالحق» بالرفع ، وهى قراءة عاصم وحمزة. والمعنى الأول على قراءة «فالحق» بالنصب ، على أنه مقسم به حذف منه حرف القسم ، فانتصب. و«لأملأن» جواب القسم ، وهى قراءة نافع ، وابن كثير ، وأبى عمرو ، وابن عامر ، والكسائي.

انظر الإتحاف (٢/ ٤٢٥).

(٢) الآية ٧٠ من سورة الإسراء. (٣/ ٢١٦ – ٢١٨).

(٣) عزاه الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف (رقم ٣١٤) للثعلبى ، عن سلمة بن نفيل ، مرفوعا.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٦

إِنْ هُوَ : ما هو إِلَّا ذِكْرٌ : وعظ من اللّه عز وجل لِلْعالَمِينَ الثقلين كافة ، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ نبأ القرآن ، وصحة خبره ، وما فيه من الوعد والوعيد ، وذكر البعث والنّشور ، بَعْدَ حِينٍ بعد الموت ، أو : يوم بدر ، أو : القيامة ، أو : بعد ظهور الإسلام وفشوه. وفيه من التهديد ما لا يخفى. ختم السورة بالذكر كما أفتتحها بالذكر.

الإشارة : تقدم مرارا التحذير من طلب الأجر على التعليم ، أو الوعظ والتذكير ، اقتداء بالرسل عليهم السّلام.

وفى الآية أيضا : النهى عن التكلف والتصنع ، وهو نوع من النّفاق ، وضرب من الرّياء. وعن الزبير بن العوام رضي اللّه عنه نادى منادى النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «اللهم اغفر للذين لا يدعون ، ولا يتكلفون ، ألا إنى برىء من التكلف ، وصالحو أمتى» «١».

وقال سلمان «٢» : «أمرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ألّا نتكلف للضيف ما ليس عندنا!» «٣».

وكان الصحابة رضي اللّه عنهم يقدّمون ما حضر من الكسر اليابسة ، والحشف البالي – أي : الرديء من التمر – ويقولون : لا ندرى أيهما أعظم وزرا ، الذي يحتقر ما قدم إليه ، أو : الذي يحتقر ما عنده فلا يقدمه. هـ. وباللّه التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه.

---

(١) ذكره السيوطي فى الدر (٥/ ٦٠٠) بلفظ : «إنى لا ألى من التكلف وصالحو أمتى» وعزاه للديلمى وابن عساكر ، عن الزبير رضي اللّه عنه.

(٢) فى الأصول (أبو سليمان).

(٣) أخرجه البيهقي فى الشعب (الباب السابع والستون ، ح ٩٦٠١) من حديث سلمان الفارسي – رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٧

سورة الزمر

مكية ، إلا قوله : قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ .. إلى قوله : وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ «١» فإنها نزلت فى وحشىّ ، قاتل حمزة «٢». وهى خمس وسبعون آية فى مصحف البصرة ، واثنان وسبعون فى

مصحف الكوفة. ومناسبتها لما قبلها قوله : إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ «٣» ، فإنه عين التنزيل الذي صدّر به ، حيث قال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (٢)

قلت : تَنْزِيلُ : خبر ، أي : هذا تنزيل ، و«من اللّه» : صلة لتنزيل ، أو : خبر ثان ، أو : حال من التنزيل ، عاملها :

معنى الإشارة.

يقول الحق جل جلاله : هذا الذي تتلوه هو تَنْزِيلُ الْكِتابِ ، نزل مِنَ عند اللَّهِ الْعَزِيزِ فى سلطانه الْحَكِيمِ فى تدبيره. وإيثار الوصفين للإيذان بجريان أثريهما فى الكتاب ، بجريان أحكامه ونفوذ أوامره ونواهيه.

إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ : ليس بتكرر لأن الأول كالعنوان للكتاب ، والثاني لبيان ما فى الكتاب.

قال أبو السعود : والمراد بالكتاب : القرآن ، وإظهاره على تقدير كونه هو المراد بالأول لتعظيمه ومزيد الاعتناء بشأنه. والباء إما متعلقة بالإنزال ، أي : بسبب الحق وإظهاره ، أو : بداعيته واقتضائه ، وإما بمحذوف هو حال من نون العظمة ، أو : من الكتاب ، أي : أنزلناه إليه محقين فى ذلك ، أو : ملتبسا بالحق والصواب ، أي : ما فيه حق لا ريب فيه موجب العمل به حتما. قال القشيري : بالحق ، أي : بالدين الحق والشرع الحق ، وأنا محق فى إنزاله.

---

(١) الآيات : ٥٣ – ٥٥.

(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٦٠٢) لابن النّحاس فى تاريخه ، عن ابن عباس – رضي اللّه عنهما.

(٣) الآية : ٨٧ من سورة (ص).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٨

فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ أي : فاعبده تعالى مخلصا دينه من شوائب الشرك والرّياء ، حسبما بيّن فى تضاعيف ما أنزل إليه.

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٣ الى ٤]

أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ

بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (٤)

أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ أي : هو الذي وجب اختصاصه بأن تخلص له الطاعة من كل شائبة لأنه المنفرد بصفات الألوهية ، التي من جملتها : الاطلاع على السرائر والضمائر.

الإشارة : قال القشيري : كتاب عزيز ، نزل من ربّ عزيز ، على عبد عزيز ، بلسان ملك عزيز ، فى شأن أمة عزيزة ، بأمر عزيز. وأنشدوا :

ورد الرّسول من الحبيب الأول بعد البلاء ، وبعد طول الأمل «١»

تنزيل تنزهت قلوب الأحباب بعد ذبول غصن سرورها ، فى كتاب الأحباب ، عند قراءة فصولها.

والعجب منها كيف لا تزهو سرورا بوصولها ، وارتياحا بحصولها ، وكتاب موسى فى الألواح ، ومنها كان يقرأ موسى ، وكتاب نبينا صلّى اللّه عليه وسلم نزل به الرّوح ، الأمين ، على قلبك ، وفصل بين من يكون خطاب ربه مكتوبا فى ألواحه ، وبين من يكون خطاب ربه محفوظا فى قلبه ، وكذلك أمته ، بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ «٢» هـ.

وقوله تعالى : فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ، قال القشيري : العبادة : معانقة الطاعات على نعت الخضوع ، وتكون بالنفس وبالقلب وبالروح ، فالتى بالنفس – أي : بالجوارح – الإخلاص فيها : التباعد عن الانتقاص ، والتي بالقلب ، أي : كالفكرة والنّظرة ، الإخلاص فيها : التباعد عن رؤية الأشخاص – أي : الحس من حيث هو – والتي بالروح ، الإخلاص فيها : التنقّى عن رؤية طلب الاختصاص «٣».

قوله تعالى : أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ هو ما يكون جملته للّه ، وما للعبد فيه نصيب فهو عن الإخلاص بعيد ، اللهم إلا أن يكون بأمره ، فإنه إذا أمر العبد أن يحتسب الأجر على طاعته ، فأطاعه ، لا يخرج عن الإخلاص بامتثاله ما أمره به ، ولو لا هذا ما صحّ أن يكون فى العالم مخلص ، يعنى : أن جل النّاس إنما يطيعون لاحتساب الأجر ، إلا الفرد النّادر ، فمن زال عنه الحجاب فإنه يعبد اللّه باللّه ، شكرا ، وإظهارا للأدب ، فإن قصد الاحتساب ، ثم طرأ عليه خواطر بعد تحقق الإخلاص ، فلا يضر ، يدل عليه قوله صلّى اللّه عليه وسلم : «من قاتل لتكون كلمة اللّه هى العليا فهو فى سبيل اللّه» «٤» وهذا فى أصل القصد ، والعوارض غير مضرة ، كما هو صريح حديث آخر. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) البيت غير موجود فى لطائف الإشارات المطبوع.

(٢) الآية ٤٩ من سورة العنكبوت.

(٣) بتصرف.

(٤) بعض حديث ، أخرجه البخاري فى (الجهاد ، باب من قاتل لتكون كلمة اللّه هى العليا ، ح ٨١٠) ومسلم فى (الإمارة ، باب من قاتل لتكون كلمة اللّه هى العليا ، ٣/ ١٥١٢ ، ح ١٩٠٤) من حديث

أبى موسى الأشعري رضي اللّه عنه. وأول الحديث : (أن أعرابيا أتى النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال : يا رسول اللّه! الرجل يقاتل للمغنم ، والرّجل يقاتل ليذكر ، والرّجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل اللّه؟ ...)

الحديث. [.....]

(٤٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٩

ثم رد على المشركين ، فقال :

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا ...

قلت : «والذين» : مبتدأ ، وما نَعْبُدُهُمْ : محكى بقول محذوف ، حال من واو «اتخذوا» وجملة «إن اللّه» : خبر ، والاستثناء مفرغ من أعم العلل ، و«زلفى» : مصدر.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ أي : لم يخلصوا فى عبادتهم ، بل شاوبوها بعبادة غيره ، كالأصنام ، والملائكة ، وعيسى ، قائلين : ما نَعْبُدُهُمْ لشيء من الأشياء إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى أي : تقريبا ، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ وبين خصمائهم ، الذين هم المخلصون للدين ، وقد حذف لدلالة الحال عليه ، كقوله : لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ «١» على أحد الوجهين ، أي : بين أحد منهم وبين غيره. قيل :

كان المسلمون إذا قالوا للمشركين : من خلق السماوات والأرض؟ قالوا : اللّه ، فإذا قالوا لهم : فمالكم تعبدون الأصنام؟

قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللّه زلفى «٢».

إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ يوم القيامة بين المتنازعين من المسلمين والمشركين فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ من التوحيد والإشراك ، وادعاء كل واحد صحّة ما انتحله. وحكمه تعالى هو إدخال الموحدين الجنة والمشركين النّار.

وقيل : الموصول واقع على الأصنام ، والعائد محذوف ، أي : والذين اتخذوهم من دونه أولياء ، قائلين : ما نعبدهم ...

إلخ ، إن اللّه يحكم بينهم ، أي : بين العبدة والمعبودين فيما هم فيه يختلفون ، حيث يرجون منها شفاعتها وهى تلعنهم ، وهذا بعيد.

إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي : لا يوفّق للاهتداء مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ أي : راسخ فى الكذب ، مبالغ فى الكفر ، كما يعرب عنه قراءة من قرأ : «كذاب» أو : «كذوب» «٣» ، أي : لا يهديهما اليوم لدينه لسابق الشقاء ،

ولا فى الآخرة

---

(١) من الآية ٢٨٥ من سورة البقرة.

(٢) ذكره البغوي فى تفسيره (٧/ ١٠٨) عن قتادة.

(٣) قرأ أنس بن مالك ، والحسن ، والأعرج ، وابن يعمر : «كذّاب» ، وقرأ زيد بن عليّ : «كذّوب» ... انظر البحر المحيط (٧/ ٣٩٩).

لثوابه لأنهما اليوم فاقدان للبصيرة ، غير قابلين للاهتداء لتغييرهما الفطرة الأصلية بالتمرّن فى الضلالة والتمادي فى الغى.

لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً كما يزعم من يقول : الملائكة بنات اللّه ، والمسيح وعزيز ابن اللّه ، تعالى اللّه عن قولهم علوا كبيرا ، لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ أي : لاختار من خلقه ما يشاء ، ممن له مناسبة صمدانية ، كالملائكة ، فإنهم منزهون عن نقائص البشرية ، كالأكل والشرب والنّكاح ، لكن لم يرد ذلك لاستحالته فى حقه تعالى.

قال القشيري : خاطبهم على قدر عقولهم وعقائدهم ، فقال : لو أراد اللّه أن يتخذ ولدا بالتبنّي والكرامة لاختار من الملائكة ، الذين هم مبرءون من الأكل والشرب وأوصاف الخلق ، ثم أخبر عن تقدّسه عن ذلك ، فقال :

سُبْحانَهُ أي : تنزيها له عن اتخاذ الولد على الحقيقة لاستحالة معناه فى نعته ، ولا بالتبني ، لتقدّسه عن الجنسية ، والمحالات تدل على وجه الإبعاد. هـ.

والحاصل : أن الولد فى حقه تعالى إن كان عن طريق التولد فهو محال ، عقلا ونقلا ، وإن كان عن طريق التبني والكرامة فمحال سمعا ، وقيل : وعقلا. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرّحمن الفاسى رضي اللّه عنه : قوله ، أي :

القشيري : لتقدسه عن الجنسية ، يعنى لوحدته وقهره ، كما رمز إلى ذلك بذكر الاسمين ، أي : الواحد القهار ، وهما عاملان فى كل مخلوق ، ومحال تعطيلهما بالتبني المقتضى للجنسية ، المباينة للوحدانية والقهر ، فلا يمكن إلا العبودية ، عقلا ، ونقلا ، وحقيقة ، وهذا أشد من كلام ابن عطية ، فإنه جوّز اتخاذه على جهة التشريف والتبني عقلا ، وإن امتنع شرعا ، لعموم آية : وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً «١» لاتخاذ النّسل المستحيل عقلا ونقلا ، ولاتخاذ الاصطفاء الممتنع شرعا. وهو أيضا أشدّ من

كلام الزمخشري ، حيث قال : معنى الآية : لو أراد اللّه اتخاذ الولد لا متنع ذلك ، ولكنه يصطفى من يشاء من عباده ، على وجه الاختصاص والتقريب ، لا على وجه اتخاذه ولدا. هـ. فأجعل فى الامتناع ، وإن كان المتبادر منه شمول القسمين ، وكذا قرر جواب «لو» ، أي : لامتنع ، وجعل قوله : لَاصْطَفى الذي هو ظاهر فى كونه جوابا غير جواب «بل» على معنى الاستئناف ، وهو خلاف المطروق والمفهوم من جرى الكلام. واللّه أعلم.

وما ذكره الزمخشري أيضا من الامتناع مع الإرادة هو فرض لتعلق الإرادة بالممتنع ، وهى إنما تتعلق بالجائز ، ويحتمل بناؤه على مذهبه الفاسد فى إرادة بعض ما لم يقع ، وهو شنيع مذهبه ، بل ويلزمه عود القهر

---

(١) الآية ٩٢ من سورة مريم.

عليه – تعالى عن ذلك ، وهو اللّه الواحد القهار ، فكيف يريد ويمتنع ما يريده؟! وهل ذلك إلا عين القهر؟ تعالى عن ذلك علوا كبيرا. هـ.

قال تعالى : سُبْحانَهُ أي : تنزّه بالذات عن اتخاذ الولد ، تنزهه الخاص به ، على أن" سبحان" مصدر ، من : سبّح : إذا بعّد. هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ : استئناف مبيّن لتنزهه بحسب الصفات ، إثر بيان تنزهه عنه بحسب الذات ، فإن صفة الألوهية المستتبعة لسائر صفات الكمال ، النافية لسمات النّقصان ، والوحدة الذاتية ، الموجبة لامتناع المماثلة والمشاركة بينه تعالى وبين غيره على الإطلاق ، مما يقتضى تنزهه تعالى عما قالوه ، قضاء متيقنا ، وكذا وصف [القهارية] «١» لأن اتخاذ الولد شأن من يكون تحت ملكوت الغير ، عرضة للفناء ، ليقوم الولد مقامه عند فنائه ، ومن هو مستحيل الفناء ، قهار لكل الكائنات ، كيف يتصور أن يتخذ من الأسماء الفانية من يقوم مقامه؟ قاله أبو السعود.

الإشارة : الحق سبحانه غيور ، لا يرضى لغيره أن يعبد معه غيره ، كان على وجه الواسطة والتقريب ، أو :

على وجه الاستقلال. لذلك حرم السجود لغير اللّه ، وأما الخضوع للأولياء ، العارفين باللّه ، على غير وجه العبادة ، فهو عين الخضوع للّه لأن اللّه تعالى أمر بالخضوع للرسل ، الدالين على اللّه ، وهم ورثتهم فى الدلالة ، لكن لا يكون ذلك على هيئة السجود ، وإنما يكون على وجه تقبيل القدم أو الأرض بين أيديهم ، كما قال الشاعر :

يا من يلوم خمرة المحبه فخذوا عنى هى حلال
ومن يرد يسقى منها عبه خدّ يضع لأقدام الرّجال
رأسى حططت بكلّ شيبه هم الموالي سقونى زلال

وجعل القشيري مناط الرّد على الكفرة حيث فعلوا ذلك ، وقالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللّه ، بغير إذن اللّه ، وإنما حكموا بذلك من ذات أنفسهم. فردّ اللّه عليهم. قال : وفى هذا إشارة إلى ما يفعله العبد من القرب ، بنشاط نفسه ، من غير أن يقتضيه حكم الوقت ، وما يعقد بينه وبين اللّه تعالى من عقود لا يفى بها ، وكان ذلك اتباع هوى.

قال اللّه تعالى : فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها «٢». قلت : ولأجل هذا وجب على من أراد الوصول إلى اللّه أن يتخذ شيخا عارفا بأحكام الوقت ، ذا بصيرة بدسائس النّفس ، فيأمره فى كل وقت ، وفى كل زمان ، بما يناسبه ليخرجه من هوى نفسه ، وأسر طبعه ، وإلا بقي فى العنت والبعد عن اللّه ، يعبد اللّه على حرف ، كلما زاد عبادة وقربا – فى

---

(١) فى الأصول : القاهرية.

(٢) من الآية ٢٧ من سور الحديد

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٢

زعمه – زاد بعدا من ربه ، وهو لا يشعر ، فالنفس إن لم تتصل بمن يرفع عنها الحجاب ، كانت كدود القزّ ، تنسج الحجاب على نفسها بنفسها ، حتى تموت فى وسطه. وفى ذلك يقول الششترى فى نونيته رضي اللّه عنه :

ونحن كدود القزّ يحصرنا الذي صنعنا لدفع الحصر سجنا لنا منّا «١»

وباللّه التوفيق.

ثم ذكر دلائل توحيده تعالى ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٥ الى ٦]

خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦)

يقول الحق جل جلاله : خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أي : وما بينهما من الموجودات ، ملتبسة بِالْحَقِّ مشتملة على الحكم والمصالح الدينية والدنيوية يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ ، وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ ، التكوير : اللّف واللّى ، يقال : كار العمامة على رأسه وكوّرها. والمعنى : أن كل واحد منهما يغيّب الآخر إذا طرأ عليه ، ويلفه لف اللباس باللابس ، أو : يغيّبه كما يغيب الملفوف باللفافة ، أو : يجعله كارا عليه كرورا متتابعا ، تتابع أكوار العمامة ، وهذا بيان لكيفية تصرفه تعالى فى السموات والأرض بعد بيان خلقهما ، وعبّر بالمضارع للدلالة على التجرد.

وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ : جعلهما منقادين لأمره. كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ، وهو يوم القيامة ، أو : كل منهما يجرى لمنتهى دورته ، أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الغالب القادر على كل شيء ، ومن جملتها : عقاب العصاة ، الْغَفَّارُ : المبالغ فى المغفرة ، ولذلك لا يعاجل بالعقوبة ، ولا يمنع ما فى هذه الصنائع البديعة من آثار رحمته.

وتصدير الجملة بحرف التنبيه ، لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها.

---

(١) انظر ديوان الششترى (ص ٧٤)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٣

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ، لمّا ذكر ما يتعلق بالعالم العلوي ، ذكر ما يتعلق بالعالم السفلى ، وترك العاطف للإيذان باستقلاله فى الدلالة على الوحدانية ، وبدأ بالإنسان لأنه المقصود الأهم من هذا العالم ، ولعراقته فى الدلالة على توحيد الحق وباهر قدرته لما فيه من تعاجيب آثار القدرة ، وأسرار الحكمة ، وأصالته فى المعرفة فإن الإنسان بحال نفسه أعرف ، والمراد بالنفس : نفس آدم – عليه السّلام.

ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها : عطف على محذوف ، صفة لنفس ، أي : من نفس خلقها ثم جعل منها زوجها ، أو :

على معنى : واحدة ، أي : نفس وجدت ثم جعل منها زوجها حواء ، وعطفت بثم دلالة على مباينتها له فضلا ومزية ، فهو من التراخي فى الحال والمنزلة ، مع التراخي فى الزمان. وقيل : أخرج ذرية آدم من ظهره كالذّر ، ثم أخرج منه حوّاء ، ففيه ثلاث آيات خلق آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من قصيراه «١» ، ثم تشعيب الخلق الفائت للحصر منهما.

وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ أي : قضى وجعل ، أو : خلقها فى الجنة مع آدم عليه السّلام ، ثم أنزلها ، أو : أحدث لكم بأسباب نازلة من السماء ، كالأمطار ، وأشعة الكواكب ، كما تقول الفلاسفة. ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ

ذكرا وأنثى ، وهى :
الإبل ، والبقر ، والضأن ، والمعز. فالزوج اسم لواحد معه آخر ، فإذا انفرد فهو فرد ، ووتر.
يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ : استئناف لبيان كيفية خلقهم ، وأطواهم المختلفة ، الدالة على القدرة القاهرة. وصيغة المضارع للدلالة على التجرد. خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ : مصدر مؤكد ، أي : يخلقكم فيها خلقا كائنا من بعد خلق ، أي : خلقا مدرّجا ، حيوانا سويا ، من بعد عظام مكسوة لحما ، من بعد عظام عارية ، من بعد مضغة مخلّقة ، من بعد مضغة غير مخلّقة ، من بعد علقة ، من بعد نطفة ، فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة ، أو : ظلمة الصلب ، والبطن ، والرّحم.
ذلِكُمُ : إشارة إلى الحق تعالى ، باعتبار أفعاله المذكورة ، وهو مبتدأ ، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته فى العظمة والكبرياء ، أي : ذلكم العظيم الشأن ، الذي عددت أفعاله هو اللَّهُ رَبُّكُمْ أي : مربيكم بنعمة الإيجاد على الأطوار المتقدمة ، وبنعمة الإمداد بعد نفخ الرّوح فيه. لَهُ الْمُلْكُ : التصرف التام على الإطلاق فى الدارين. لا إِلهَ إِلَّا هُوَ : لا متصرف غيره. فَأَنَّى تُصْرَفُونَ : فكيف تصرفون عن عادته تعالى ، مع وفور دواعيها ، وانتفاء الصارف عنها بالكلية ، إلى عبادة غيره ، من غير داع إليها ، مع كثرة الصوارف عنها؟ واللّه تعالى أعلم.

---

(١) «قصيراه» : مثنى القصيرى ، والقصيران : ضلعان تليان الترقوتين والقصيرى : أسفل الأضلاع. وقيل : هى آخر الجنب. انظر اللسان (٥/ ٣٦٤٩ مادة قصر).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٤
الإشارة : خلق سماوات الأرواح ، وأرض النّفوس ، بالحق ، أي : لسبب معرفته ، وعبادته ، فالمعرفة للأرواح ، والعبادة للنفوس ، يكوّر نهار البسط على ليل القبض ، وبالعكس ، وسخّر شمس العيان ، وقمر البرهان ، كل يجرى إلى أجل مسمى ، إلا أن قمر البرهان ينتهى بطلوع شمس العيان ، وشمس العيان لا انتهاء لها. أَلا هُوَ الْعَزِيزُ فيمنع بعزته من الوصول إليه من أراد احتجابه ، الْغَفَّارُ فيغطى بفضله مساوئ من أراد وصلته. خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ من روح واحدة ، هى الرّوح الأعظم ، ثم تفرعت منها الأشياء كلها. وأنزل لكم من الأنعام ما تتصرفون فيه ، وتتقربون به إلى ربكم ، ثم ذكّرهم بنعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، بقوله : يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ ... إلخ ، فنعمة الإيجاد ظاهرة ، ونعمة الإمداد : ما يتغذى به الجنين فى بطن أمه من دم الحيض.
ثم أمرهم بالشكر عليها ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٧]

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٧)

يقول الحق جل جلاله : إِنْ تَكْفُرُوا به تعالى ، بعد مشاهدة هذه النّعم الجسمية ، وشئونه العظيمة ، الموجبة للإيمان والشكر ، فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ أي : فاعلموا أنه تعالى غنىّ عن إيمانكم وشكركم ، وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ لأن الكفر ليس برضا اللّه ، وإن كان بإرادته ، وعدم رضاه تعالى بالكفر لأجل منفعتهم ، ودفع مضرتهم ، رحمة بهم ، لا لتضرره تعالى به. وَإِنْ تَشْكُرُوا وتؤمنوا يَرْضَهُ لَكُمْ أي : يرضي الشكر لأجلكم ومنفعتكم لأنه سبب الفوز بسعادة الدارين.

وإنما قال : لِعِبادِهِ ولم يقل «لكم» ، لتعميم الحكم ، وتعليله بكونهم عباده تعالى ، والحاصل : أن وقوع الطاعة والإيمان هو بقدرته تعالى ، وإرادته ورضاه ، وأما الكفر والمعاصي فهو بقضائه وإرادته ، ولم يرضها من عبده شرعا ، وإن رضيها تكوينا لتقوم الحجة على العبد ، ويظهر صورة العدل ، ولا يظلم ربك أحدا ، وإن كان الكل منه وإليه.

وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى : بيان لعدم سريان كفر الكافر إلى غيره ، أي : ولا تحمل نفس حاملة لوزرها حمل نفس أخرى ، ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ بالبعث بعد الموت ، فَيُنَبِّئُكُمْ يخبركم بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٥

فى الدنيا من الإيمان والكفر ، فيجازيكم بها ثوابا وعقابا. إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ : أي : بمضمرات القلوب ، فكيف بالأعمال الظاهرة ، وهو تعليل ل «ينبئكم».

الإشارة : قد تقدم الكلام على الشكر فى سورة سبأ «١» قال القشيري : قوله تعالى : وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ إن أطعتنى شكرتك ، وإن ذكرتنى ذكرتك ، وإن خطوت لأجلى خطوة ملأت السموات والأرض من شكرك ، وأنشدوا.

لو علمنا أن الزيارة حق لفرشنا الخدود أرضا لترضى

ثم بيّن حال من يشكر ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٨]

وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ (٨)

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ أي : جنس الإنسان ضُرٌّ من مرض وغيره دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إليه

راجعا إليه مما كان يدعوه فى حالة الرّخاء لعلمه بأنه بمعزل عن القدرة على كشف ضره ، وهذا وصف للجنس ببعض أفراده ، كقوله تعالى : إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ «٢» وقيل : المراد أبو جهل ، أو : كل كافر.

ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ أي : أعطاه نعمة عظيمة من جنابه ، من التخول ، وهو التعهد ، يقال : فلان خائل مال ، إذا كان متعهّدا إليه حسن القيام به. وفى الصحاح : خوّله اللّه الشيء : ملّكه إياه. وفى القاموس : وخوّله اللّه المال :

أعطاه إياه.

قال ابن عطية : خوّله ، أي : ملّكه ، وحكمه فيها ابتداء من اللّه ، لا مجازاة ، ولا يقال فى الجزاء : خوّل. هـ. أو :

من الخول ، وهو الافتخار ، أي : جعله يخول ، أي : يختال ويفتخر بنعمه. نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ أي :

نسى الضر الذي كان يدعو اللّه تعالى كشفه من قبل التخويل ، أو : نسى ربه الذي كان يدعو ويتضرع إليه ، على أن

---

(١) راجع إشارة الآية ١٣ من سورة سبأ

(٢) من الآية ٣٤ من سورة إبراهيم.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٦

ما بمعنى مِنْ ، كقوله تعالى : وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى «١» ، أو : إيذانا بأن نسيانه بلغ به إلى حيث لا يعرف ما يدعوه ، وهو كقوله تعالى : عَمَّا أَرْضَعَتْ

«٢».

وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً : شركاء فى العبادة لِيُضِلَّ «٣» بذلك عَنْ سَبِيلِهِ الذي هو التوحيد. أي : ليضل غيره ، أو : ليزداد ضلالا ، أو : يثبت عليه ، على القراءتين ، وإلا فأصل الضلال غير متأخر عن الجعل المذكور. واللام للعاقبة ، كما فى قوله : فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً «٤» غير أن هذا أقرب للحقيقة لأن الجاعل هنا قاصد بجعله المذكور حقيقة الإضلال والضلال ، وإن لم يعرف لجهله أنهما إضلال وضلال ، وأما آل فرعون فهم غير قاصدين بالتقاطهم العداوة أصلا. قاله أبو السعود.

قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا أي : تمتعا قليلا ، أو : زمانا قليلا فى الدنيا ، وهو تهديد لذلك الضال المضل ، وبيان لحاله ومآله. إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ

أي : من ملازميها ، والمعذّبين فيها على الدوام ، وهو تعليل لقلة التمتع.

وفيه من الإقناط من النّجاة ما لا يخفى ، كأنه قيل : إذا أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة ، فمن حقك أن تؤمر بتركه لتذوق عقوبته.

الإشارة : الصفة الممدوحة فى الإنسان : أن يكون إذا مسّه الضر التجأ إلى سيده ، مع الرّضا والتسليم ، فإذا كشف عنه شكر اللّه وحمده ، ودام على شكره ، ونسب التأثير إلى الأسباب والعلل ، وهو صريح الآية. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر حال من شكر ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٩]

أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (٩)

يقول الحق جل جلاله : أَمَّنْ «٥» هُوَ قانِتٌ أي : مطيع ، قائم بواجب الطاعات ، دائم على أداء وظائف العبادات ، آناءَ اللَّيْلِ أي : فى ساعات الليل ، حالتى السراء والضراء ، كمن ليس كذلك ، بل إنما يفزع إلى اللّه

---

(١) الآية ٣ من سورة الليل.

(٢) من الآية ٢ من سورة الحج.

(٣) قرأ الجمهور : «ليضل» بضم الياء ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : بفتحها. انظر الإتحاف (٢/ ٤٢٧) والبحر المحيط (٧/ ٤٠١).

(٤) الآية ٨ من سورة القصص. [.....]

(٥) قرأ نافع ، وابن كثير ، وحمزة : بتخفيف الميم ، على أنها موصولة ، دخلت عليها همزة الاستفهام التقريرى ، ومقابله محذوف لفهم المعنى ، والتقدير : أمن هو قانت. إلخ كمن جعل للّه أندادا. وقرأ الباقون بالتشديد. والتوجيه ذكره الشيخ المفسر – رحمه اللّه. انظر : إتحاف فضلاء البشر (٢/ ٤٢٨).

فى الضراء فقط ، فإذا كشف عنه نسى ما كان يدعو إليه من قبل ، وحذفه لدلالة ما قبله عليه. ومن قرأ بالتشديد ، ف «أم» إما متصلة ، حذف مقابلها ، أي : أنت خير حالا ومآلا أم من هو قائم بوظائف العبادات ، أو : منقطعة ، والإضراب للانتقال من التهديد إلى التبكيت بالجواب الملجئ إلى الاعتراف بما بينهما ، كأنه قيل : أم من هو قانت أفضل ، أم من هو كافر مثلك؟.

حال كون القانت ساجِداً وَقائِماً أي : جامعا بين الوصفين المحمودين. وتقديم السجود على القيام لكونه أدخل فى معنى العبادة. يَحْذَرُ الْآخِرَةَ أي : عذاب الآخرة ، حال أخرى ، أو : استئناف ، جواب عما نشأ من حكاية حاله من القنوت والسجود ، كأنه قيل : فما باله يفعل ذلك؟ فيقل : يحذر الآخرة ، وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ أي :

الجنة ، فينجو بذلك مما يحذره ، ويفوز بما يرجوه ، كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الرّبوبية ، المنبئة عن التبليغ إلى الكمال ، مع الإضافة إلى ضمير الرّاجى.

ودلت الآية على أن المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرّجاء ، يرجو رحمته ، لا عمله ، ويحذر عقابه لتقصيره فى عمله ، ثم الرّجاء إذا جاوز حدّه يكون أمنا. والخوف إذا جاوز حدّه يكون إياسا ، وقد قال تعالى : فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ «١» ، ولا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ «٢» ، فيجب ألا يجاوز أحدهما حدّه بل يكون كالطائر بين جناحيه ، إلا فى حالة المرض ، فيغلب الرّجاء ، ليحسن ظنه باللّه. ومذهب محققى الصوفية : تغليب الرّجاء مطلقا ، لهم ولعباد اللّه لغلبة حسن ظنهم بربهم.

والآية ، قيل : نزلت فى عثمان رضي اللّه عنه كان يحيى الليل ، وقيل : فى عمار وأبى حذيفة «٣» ، وهى عامة لمن سواهم.

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ حقائق الأحوال ، فيعلمون بموجب علمهم ، كالقانت المذكور ، وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ شيئا فيعلمون بمقتضى جهلهم ، كدأب الكافر المتقدم. والاستفهام للتنبيه على أن يكون الأولين فى أعلى معارج الخير ، وكون الآخرين فى أقصى مدارج الشر من الظهور ، بحيث لا يكاد يخفى على أحد.

قال النّسفى : أي : يعلمون ويعملون به ، كأنه جعل من لا يعمل غير عالم ، وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون – أي : يدخرون – العلوم ، ثم لا يقنتون ، ويتفننون فيها ، ثم يفتنون بالدنيا ، فهم عند اللّه جهلة ، حيث جعل القانتين هم العلماء. أو : يريد به التشبيه ، أي : كما لا يستوى العالم والجاهل ، كذلك لا يستوى المطيع والعاصي. هـ.

---

(١) من الآية ٩٩ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٨٧ من سورة يوسف.
(٣) انظر الدر المنثور (٥/ ٦٠٥) وتفسير البغوي (٧/ ١١) وأسباب النّزول للواحدى (ص ٣٨٢).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٨
الإشارة : القنوت هو القيام بآداب الخدمة ، ظاهرا وباطنا ، من غير فتور ولا تقصير ، قاله القشيري.
وهو على قسمين ، قنوت العارفين ، وهى عبادة القلوب ، كالفكرة والنّظرة ، ساعة منها أفضل من عبادة سبعين سنة ، وثمرتها :
التمكن من شهود الذات الأقدس ، عاجلا وآجلا ، وقنوت الصالحين ، وهى عبادة الجوارح ، كالركوع والسجود والتلاوة ، وغيرها من أعمال الجوارح ، وثمرتها نعيم الجنان بالحور والولدان ، مع الرّضا والرّضوان ، ورؤية وجه الرحمن.
روى عن قبيصة بن سفيان ، قال : رأيت سفيان الثوري فى المنام بعد موته ، فقلت له : ما فعل اللّه بك؟ فأنشأ يقول :
نظرت إلى ربّى عيانا فقال لى هنيئا رضائى عنك يا ابن سعيد
لقد كنت قوّاما إذا الليل قد دجا بعبرة محزون وقلب عميد
فدونك فاختر أىّ قصر تريده وزرني فإنى منك غير بعيد
وكان شعبة ومسعر رجلين صالحين ، وكانا من ثقة المحدّثين ، فماتا ، قال أبو أحمد اليزيدي : فرأيتهما فى المنام ، وكنت إلى شعبة أميل منى إلى مسعر ، فقلت لشعبة : يا أبا بسطام ما فعل اللّه بك؟ فقال : يا بنى احفظ ما أقول لك :
حبانى إلهى فى الجنان بقبة لها ألف باب من لجين «١» وجوهرا
وقال لى الجبار : يا شعبة الذي تبحّر فى جمع العلوم وأكثرا
تمتع بقربى ، إننى عنك ذو رضا وعن عبدى القوّام فى الليل مسعرا
كفى مسعرا عزا بأن سيزورنى وأكشف عن وجهى ويدنو لينظروا
وهذا فعالى بالذين تنسكوا ولم يألفوا فى سالف الدهر منكرا.
وقوله تعالى : قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ أي : لا يستوى العالم باللّه مع الجاهل به ، العالم يعبده على العيان ، والجاهل به فى مقام الاستدلال والبرهان. العالم باللّه يستدل باللّه على غيره ، والجاهل يستدل بالأشياء على اللّه ، وشتان بين من يستدل به أو يستدل عليه ، المستدل به عرف الحق لأهله ، وأثبت الأمر

(١) اللّحين : الفضة. انظر اللسان (٥/ ٤٠٠٢ ، مادة لجن).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٩

من وجود أصله ، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه ، كما فى الحكم «١». العالم باللّه من السابقين المقربين ، والجاهل به من عامة أهل اليمين ، ولو تبحّر فى العلوم الرّسمية غاية التبحر. قال الورتجبي : وصف تعالى أحوال أهل الوجود والكشوفات ، المستأنسين به ، وبلذائذ خطابه ومناجاته ، وتحملوا من لطائف خطابه مكنون أسرار غيبه ، من العلوم الغريبة ، والأنباء العجيبة ، لذلك وصفهم بالعلم الإلهى ، الذي استفادوا من قربه ووصاله ، وكشف جماله بقوله : هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ كيف يستوى الشاهد والغائب ، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟. هـ.

قال القشيري : العلم المخلوق على ضربين : علم مجلوب بكسب العبد ، وموهوب من قبل الرّبّ .. انظر تمامه.

ثم أمر بالتقوى ، التي هى أصل القنوت ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ١٠]

قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ (١٠)

قلت : فِي هذِهِ : متعلق بأحسنوا ، أو : بحسنة ، على أنه بيان لمكانها ، أو : حال من ضميرها فى الظرف.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، أمر رسوله صلّى اللّه عليه وسلم بأن يحثّهم على التقوى ويذكّرهم بها ، بعد تخصيص التذكير بأولى الألباب ، إيذانا بأن أولى الألباب هم أهل التقوى ، وفى إضافتهم إلى ضمير الجلالة بقوله : يا عِبادِ تشريف لهم ، ومزيد اعتناء بشأن المأمور به ، وهو التقوى.

ثم حرّض على الامتثال بقوله : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا أي : اتقوا اللّه وأطاعوه فِي هذِهِ الدُّنْيا الفانية ، التي هى مزرعة الآخرة. حَسَنَةٌ أي : حسنة عظيمة ، لا يكتنه كنهها ، وهى الجنة ونعيمها ، أو : للذين أحسنوا بالطاعة والإخلاص حسنة معجلة فى الدنيا ، وهى الصحة والعافية ، والحياة الطيبة ، أو : للذين أحسنوا ، أي : حصلوا مقام الإحسان – الذي عبّر عنه عليه الصلاة والسّلام بقوله : «أن تعبد اللّه كأنك تراه» – حسنة كبيرة ، وهى لذة الشهود ، والأنس بالملك الودود فى الدارين.

(١) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي/ ٢٧ حكمة ٢٩.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٦٠

ولما كان هذا المقام لا يتأتى تحصيله إلا فى بعض البلاد الخالية من الشواغل والموانع ، أمر بالهجرة من الأرض التي لا يتأتى فيها التفرغ ، فقال : وَأَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ ، فمن تعسر عليه التفرغ للتقوى ، والإحسان وعمل القلوب ، فى وطنه ، فليهاجر إلى بلد يتمكن فيه ذلك ، كما هى سنّة الأنبياء والأولياء ، فإنه لا عذر له فى التفريط والبطالة أصلا.

ولمّا كان الخروج من الوطن صعبا على النّفوس ، يحتاج إلى صبر كبير رغّب فى الصبر بقوله : إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ على مفارقة الأوطان ، وتحمل مشاق الطاعات ، وتحقيق الإحسان ، أَجْرَهُمْ فى مقابلة ما كابدوه من الصبر ، بِغَيْرِ حِسابٍ بحيث لا يحصى ولا يحصر بل يصب عليهم الأجر صبا ، فلهم مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : (لا يهدى إليه حساب الحسّاب ، ولا يعرف) ، وفى الحديث : «أنه ينصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصيام والحج ، فيوفّون بها أجورهم ، ولا تنصب لأهل البلاء بل يصب عليهم الأجر صبا ، حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض ، مما يذهب به أهل البلاء من الفضل» «١». وكل ما يشق على النّفس ويتعبها فهو بلاء ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : بالتقوى الكاملة يصير العبد من أولى الألباب ، فبقدر ما تعظم التقوى يعظم إشراق النّور فى القلب ، ويتصفى من الرّذائل ، وقد تقدم الكلام عليها مستوفيا عند قوله تعالى : وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ «٢» فمن أحسن فى تقواه أحسن اللّه عاقبته ومثواه ، وحفظه فى دنياه وأخراه.

فمن تعذرت عليه التقوى فى وطنه ، فليهاجر منه إلى غيره ، والهجرة سنّة نبوية ، وليتجرع الصبر على مفارقة الأوطان ، ومهاجرة العشائر والإخوان ، لينخرط فى سلك أهل الإحسان ، قال تعالى :

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ «٣» الآية.

قال القشيري : الصبر : حبس النّفس على ما تكره ، ويقال : تجرّع كاسات التقدير ، من غير استكراه ولا تعبيس ، ويقال : التهدّف «٤» لسهام البلاء. هـ.

(١) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٦٠٦) لابن مردويه ، من حديث أنس ، وأخرجه الطبراني فى الكبير (١٢/ ١٨٤ ح ١٢٨٢٩) من حديث ابن عباس رضي اللّه عنه مختصرا

(٢) الآية ١٠٠ من سورة النّساء.

(٣) الآية ١٠٠ من سورة التوبة.

(٤) التهدف : الدنو والاستقبال.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٦١

ثم أمر بالإخلاص ، الذي هو شرط فى الجميع ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ١١ الى ١٦]

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ (١٦)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ حال كونى مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ من كلّ ما ينافيه من الشرك والرّياء ، وما أمر به صلّى اللّه عليه وسلم يؤمر به أمته بل هم المقصودون. ثم قال : وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ أي : وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدمهم فى الدنيا والآخرة لأن إحراز قصب السبق فى الدين بالإخلاص فيه ، فالإسلام الحقيقي هو المنعوت بالإخلاص ، والتقدير : أمرت بالعبادة والإخلاص فيها ، وأمرت بذلك لأن أكون أول المخلصين.

أو : تكون اللام زائدة ، وهو أظهر ، كقوله تعالى : قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ «١» أي : من قومى ، أو : من أهل زمانى ، أو : أكون أول من دعا غيره إلى ما دعا إليه نفسه ، وهو الإسلام ، وحاصله : أمرت بإخلاص الدين ، وأمرت أن أكون من السابقين فى ذلك زمانا ورتبة لأنه داع إلى الإسلام ، والداعي إلى الشيء ينبغى أن يكون متحليا به ، كما هى سنّة الأنبياء والأولياء ، لا الملوك والمتجبرين.

قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي بترك الإخلاص ، والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ هو يوم القيامة. وصف بالعظمة لعظمة ما فيه من الدواهي والأهوال.

قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ لا غيره ، لا استقلالا ولا اشتراكا. وليس بتكرار لأن الأول إخبار عن كونه مأمورا بالإخلاص فى الدين ، وبالسبق إليه ، وهذا إخبار بأنه امتثل الأمر ، وفعل ما أمر به. وقدّم المفعول لأنه

جواب لقول الكفرة : اعبد

---

(١) الآية ١٤ من سورة الأنعام

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٦٢

ما نعبد ، لنعبد ما تعبد ، فهو كقوله : لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ «١» أي : لا أعبد إلا اللّه مُخْلِصاً لَهُ دِينِي من كل ما يشوبه من العلل ، فأمر صلّى اللّه عليه وسلم أولا ببيان كونه مأمورا بعبادة اللّه وإخلاص الدين له ، ثم بالإخبار بخوفه من العذاب على تقدير العصيان ، ثم بالإخبار بامتثاله لما أمر به على أبلغ وجه إظهارا لتصلبه فى الدين ، وحسما لمادة أطماعهم الفارغة ، وتمهيدا لتهديدهم بقوله : فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ أن تعبدوه مِنْ دُونِهِ تعالى. وفيه من الدلالة على شدة الغضب عليهم مالا يخفى ، كأنهم لمّا لم ينتهوا عما نهوا عنه أمروا به ، كى يحيق بهم العذاب.

قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الكاملين فى الخسران ، الذي هو عبارة عن : إضاعة ما يهمه ، وإتلاف ما لا بد منه ، هم الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بتعريضها للعطب ، وَأَهْلِيهِمْ بتعريضهم للتفرق عنهم ، فرقا لا جمع بعده إما فى عذاب الأبد ، إن ماتوا على الكفر معهم ، أو : فى الجنة ، إن آمنوا ، فلا يرونهم أبدا. وقيل : خسروا أهلهم لأنهم لم يدخلوا مدخل الذين لهم أهل فى الجنة ، أو : خسروا أهلهم الذين كانوا يتمتعون بهم ، لو آمنوا. أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ الذي لا خسران أظهر منه. وتصدير الجملة بحرف التنبيه ، والإشارة بذلك إلى بعد منزلة المشار إليه فى الشر. وتوسيط ضمير الفصل ، وتعريف الخسران ، ووصفه بالمبين من الدلالة على كمال هو له وفظاعته ، وأنه لا خسران وراءه ، مالا يخفى.

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ أي : لهم ظلل كثيرة متراكمة بعضها فوق بعض ، كائنة من النّار ، وَمِنْ تَحْتِهِمْ أيضا ظُلَلٌ أي : أطباق كثيرة ، بعضها تحت بعض ، هى ظلل لآخرين. ذلِكَ العذاب الفظيع هو الذي يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ ويحذّرهم إياه ليجتنبوا ما يوقعهم فيه. يا عِبادِ فَاتَّقُونِ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطى. وهذه موعظة من اللّه بالغة ، منطوية على غاية اللطف والرّحمة ، جعلنا اللّه من أهلها بمنّه وكرمه.

الإشارة : الإخلاص سر بين اللّه وبين عبده ، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، وهو الغيبة عما سوى اللّه ، فلا يرى فى الدارين إلا اللّه ، ولا يعتمد إلا عليه ، ولا يخاف إلا منه ، ولا يرجو إلا إياه. والإسلام هو :

الانقياد بالجوارح فى الظاهر للأحكام التكليفية ، والاستسلام فى الباطن للأحكام القهرية التعريفية ،

فالإسلام صورة ، والاستسلام روحها ، فالإسلام بلا استسلام جسد بلا روح.
وقوله تعالى : فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ هو تهديد لمن عبد نفسه وهواه ، وهو الخسران المبين. ويقال : الخاسر :
من خسر أيام عمره بالبطالة والتقصير ، وخسر آخرته بعدم التأهب والتشمير ، وخسر مولاه بعدم الوصول إلى

---

(١) الآية ٦ من سورة الكافرون.

مشاهدة حضرة العلى الكبير ، وهى حضرة الذات ، فمن خسر هذا الخسران ، فقد أحاطت به نار القطيعة والحجاب من كل مكان. ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ قال القشيري : إن خفت اليوم كفيت خوف ذلك اليوم ، وإلا فبين يديك عقبة كؤود.
ثم ذكر ضد أهل الخسران ، فقال :
[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ١٧ الى ١٨]
وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ (١٨)
قلت : أَنْ يَعْبُدُوها : بدل اشتمال من «الطاغوت» ، والطاغوت : فعلوت ، من الطغيان ، بتقديم اللام على العين ، وأصله : طغيوت ، ثم طيغوت ، ثم طاغوت.
يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أي : البالغ [أقصى] «١» غاية الطغيان ، وهو الشيطان أَنْ يَعْبُدُوها أي : اجتنبوا عبادة الطاغوت ، الذي هو الشيطان ، أو : كل ما عبد من دون اللّه ، وكلّ من عبد غير اللّه فإنما عبد الشيطان لأنه هو المزيّن لها ، والحامل عليها. وَأَنابُوا إِلَى اللَّهِ أي : وأقبلوا إليه ، معرضين عما سواه ، إقبالا كليا ، لَهُمُ الْبُشْرى بالنعيم المقيم ، على ألسنة الرّسل والملائكة ، عند حضور الموت ، وحين يحشرون ، وبعد ذلك.
فَبَشِّرْ عِبادِ ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ أي : ما نزل من الوحى فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أرجحه وأكثره ثوابا ، أو : أبينه ، الذي هو ضد المتشابه. وهؤلاء هم الموصوفون باجتناب الطاغوت ، والإنابة إلى ربهم ، لكن وضع موضع ضميرهم الظاهر تشريفا لهم بالإضافة ، ودلالة على أن مدار اتصافهم بالوصفين الجليلين كونهم نقادا فى الدين ، يميّزون الحق من الباطل ، ويؤثرون الأفضل.

أُولئِكَ المنعوتون بتلك المحاسن الجملية هم الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ لدينه ، والإشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما ذكر من النّعوت الجليلة ، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبهم ، وبعد منزلتهم فى الفضل.

---

(١) فى الأصول [فى أقصى].

وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ أي : هم أصحاب العقول الصافية ، السليمة من معارضة الوهم ومنازعة الهوى ، المستحقون للهداية ، لا غيرهم.

وفيه دليل على أن الهداية تحصل بفضل اللّه تعالى ، لقوله : هَداهُمُ اللَّهُ ، وقبول النّفس لها لقوله : هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ الإشارة : مذهب الصوفية : الأخذ بالعزائم ، والأرجح من كل شيء ، عقدا ، وقولا ، وعملا ، فأخذوا من العقائد مقام العيان ، ولم يقنعوا بالدليل والبرهان ، وأخذوا من الأقوال ألينها وأطيبها ، ويجمع ذلك : حسن الخلق مع كل مخلوق ، فآثروا العفو على القصاص ، والصفح على العتاب ، وغير ذلك من عزائم الشريعة على رخصها ، ومن الأذكار : أرجحها وأجمعها ، وهو الاسم المفرد ، الذي هو سلطان الأسماء ، ومن الأعمال : أعظمها وأرجحها ، وهو عمل القلوب ، الذي هو الذرة منه تعدل أمثال الجبال من أعمال الجوارح ، كعبادة الفكرة والنّظرة ، وفى الحديث : «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة» «١» ، فأوقاتهم كلها ليلة القدر ، وكالتخلق بمكارم الأخلاق ، كالرضا ، والتسليم ، والحلم ، والسخاء ، والكرم ، وغير ذلك من محاسن الخلل ، الذي هو من عمل القلوب ، فهم الذين تحققت فيهم البشارة بقوله : فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ.

وقال الورتجبي – بعد كلام : ويتبع الكلام الأزلى – الذي هو الخطاب – بالفهم العجيب ، والعلم الغريب ، والإدراك الصافي ، وانفراد الحق عن المخلوق ، فى المحبة ، والشوق ، والمعرفة ، والتوحيد ، والإخلاص ، والعبودية ، والرّبوبية ، والحرية ، فهذا أفضل ورد بالبديهة ، من حيث ظهور الأنباء العجيبة ، والرّوح القدسية ، والإلهامات الربانية .. انظر بقية كلامه. وقال القشيري : الاستماع يكون لكل شيء ، والاتباع يكون للأحسن. ثم قال : من عرف اللّه لا يسمع إلا باللّه. هـ. أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ إلى صريح معرفته العيانية. وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ ، ولب الشيء : قلبه وخالصه ، فقلوبهم خالصة لمولاهم ، وأرواحهم متنعمة بشهود حبيبها ، وأسرارهم متنزهة فى رياض ملكوت سيدها. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر ضدهم ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ١٩]

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩)

---

(١) أخرجه أبو الشيخ فى كتاب العظمة (١/ ٣٠٠ ، ح ٤٣) عن أبى هريرة بلفظ : «فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة» وأخرجه الديلمي فى الفردوس (٢/ ٧٠ ح ٢٣٩٧) من حديث أنس بلفظ «ثمانين سنة» وانظر الموضوعات لابن الجوزي (٣/ ١٤٤). [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٦٥

قلت : مَنْ : شرطية ، دخل عليها همزة الإنكار ، والفاء عاطفة على جملة محذوفة ليتعلق الإنكار والنّفى بمضمونهما معا ، أي : أنت مالك أمر النّاس ، فمن حقّ عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه ، ثم كررت الهمزة فى الجزاء لتأكيد الإنكار ، وتكريره ، لمّا طال الكلام ، ثم وضع موضع الضمير «من فى النّار» لمزيد تشديد الإنكار والاستبعاد ، والتنبيه على أن المحكوم عليه بالعذاب بمنزلة الواقع فى النّار ، ويجوز أن يكون الجزاء محذوفا ، دلّ عليه : أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ ... إلخ ، أي : أفمن حقّ عليه العذاب تنقذه أنت.

يقول الحق جل جلاله : أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ ، وهم عبدة الطاغوت ومتبعو خطواتها ، كما يلوح إليه التعبير عنهم ب «من حق عليه كلمة العذاب» ، فإن المراد بها قوله تعالى لإبليس : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ «١» ، وقوله تعالى : لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ «٢» ، أي : أفمن حقت عليه كلمة الشقاء ، تقدر أن تهديه وتنقذه من الكفر ، الذي هو سبب النّار؟ أو : تقول : المحكوم عليه بالنار بمنزلة الداخل فيها ، فاجتهاده صلّى اللّه عليه وسلم فى دعائهم إلى الإيمان سعى فى إنقاذهم من النّار بعد الدخول فيها ، وهو لا يفيد. فالمراد :

تسكينه صلّى اللّه عليه وسلم وتفريغه من الحرص عليهم.

الإشارة : من سبق له الإبعاد لا يفيده الكد والاجتهاد ، ومن أسدل بينه وبينه الحجاب ، لا يفيده إلا الوقوف بالباب ، حتى يحّن الكريم الوهاب ، فإنّ العواقب فى هذه الدار مبهمة ، والأعمال بالخواتم. قال القشيري : والذين حقت عليهم كلمة العذاب ، فإنهم اليوم اليوم لا يخرجون من حجاب قلوبهم. هـ. وباللّه التوفيق.

ولمّا كان المراد بقوله : أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ هم الذين قيل فى حقهم : لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ

النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ «٣» استدرك عنهم أهل التقى ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٢٠]

لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ (٢٠)

---

(١) الآية ٨٥ من سورة «ص».

(٢) الآية ١٨ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ١٦ من السورة.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٦٦

يقول الحق جل جلاله : لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ، وهم الذين وصفوا بقوله تعالى : يا عِبادِ فَاتَّقُونِ «١» ، ووصفوا بالاجتناب والإنابة ، وحصل لهم البشرى ، حيث استمعوا وتبعوا أحسن القول ، وهم المخاطبون أيضا بقوله : يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ «٢» ... الآية.

فبيّن هنا أن لهم درجات عالية فى جنات النّعيم ، فى مقابلة ما للكفرة من دركات سافلة فى الجحيم ، فهى فى مقابلة قوله لهم : مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ فى حق الكفار ، أي : لكن أهل التقى لهم علالى ، بعضها فوق بعض مَبْنِيَّةٌ بناء المنازل المؤسسة على الأرض فى الرّصانة والإحكام.

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أي :

من تحت تلك الغرف الْأَنْهارُ من غير تفاوت بين العلو والسفل. وَعْدَ اللَّهِ أي : وعد اللّه ذلك وعدا ، فهو مصدر مؤكد لقوله : لَهُمْ غُرَفٌ فإنه فى قوة الوعد. لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ لاستحالته عليه سبحانه.

الإشارة : من اتقى اللّه فيما أمر ونهى ، كانت له درجات حسية ، مبنية من الذهب والفضة ، يترقى فيها على قدر عمله وتقواه. ومن اتقى ما يشغل عن اللّه من جنس الكائنات ، كانت له درجات ومقامات معنوية ، قربية اصطفائية ، يرتقى فيها بقدر تقواه وسعيه إلى مولاه ، وعد اللّه لا يخلف اللّه الميعاد. قال القشيري : وعد المطيعين الجنة – ولا محالة – لا يخلفه ، ووعد المذنبين المغفرة ، ولا محالة – يغفر لهم ، ووعد المريدين القاصدين بالوصول ، فإذا لم تقع لهم فترة فلا محالة يصدق وعده. هـ.

ثم برهن على ما أوعد ووعد مما يكون بعد البعث من آثار قدرته ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٢١]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ

فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (٢١)

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ أيها السامع أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً هو المطر ، وقيل : كل ماء فى الأرض فهو من السماء ، ينزل منها إلى الصخرة ، فيقسمه اللّه تعالى بين البقاع. فَسَلَكَهُ : أدخله ونظمه يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ أي : عيونا ومجارى فى الأرض ، كجرى الدماء فى العروق فى الأجساد ، أو : مياها

---

(١) من الآية ١٦ من السورة.

(٢) من الآية ١٠ من سورة الزمر.

نابعة فى ظهرها ، فإن الينبوع يطلق على المنبع والنّابع. فنصب «ينابيع» على الحال ، على القول الثاني ، وعلى نزع الخافض ، على الأول.

ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ : أصنافه ، من بر وشعير وغيرهما ، أو : كيفياته من الألوان ، كالصفرة والخضرة والحمرة ، والطعوم وغيرهما. وثُمَّ : للتراخى فى الرّتبة والزمان ، وصيغة المضارع : لاستحضار الصورة البديعة ، ثُمَّ يَهِيجُ أي : يتم جفافه ، ويشرف على أن يثور من منابته ، ويستقل على وجه الأرض ، ساترا لها ، فَتَراهُ مُصْفَرًّا من بعد خضرته ونضرته ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً فتاتا متكسرة ، كأن لم يغن بالأمس ، فمن قدر على هذا قدر على إنشاء الخلق بعد فنائهم ومجازاتهم.

وقيل : المراد من الآية : تمثيل الحياة الدنيا ، فى سرعة الزوال ، وقرب الاضمحلال ، بما ذكر من أحوال الزرع ، ترغيبا عن زخارفها وزينتها ، وتحذيرا من الاغترار بمن سرّ بها ، كما فى قوله تعالى : إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ «١» ... الآية ، وقيل : للاستشهاد على تحقق الموعود من الأنهار الجارية من تحت الغرف ، بما يشاهد من إنزال المياه من السماء ، وما يترتب عليه من آثار قدرته تعالى ، وإحكام حكمته ورحمته.

إِنَّ فِي ذلِكَ أي : ما ذكر تفصيلا من إنزال الماء وما نشأ عنه. لَذِكْرى : لتذكيرا عظيما لِأُولِي الْأَلْبابِ : لأصحاب العقول الخالصة من شوائب الهوى ، فيتذكرون بذلك أن الحياة الدنيا فى سرعة التقضي والانصرام ، كما يشاهدونه من حال الحكام كل عام ، فلا يغترون ببهجتها ، ولا يفتنون بفتنتها. أو : يجزمون بأن من قدر على إنزال الماء من السماء ، وإجرائه فى ينابيع الأرض ، قادر على إجراء الأنهار من تحت الغرف. وأما ما قيل : من أنه استدلال على وجود الصانع فلا يليق لأن هذه الأفعال الجليلة ذكرت مسندة إلى اللّه تعالى وإنما يليق الاستدلال بها على وجود الصانع لو ذكرت غير مسندة إلى

مؤثر ، فتعيّن أن يكون متعلق التذكير والتنبيه شئونه تعالى وشئون آثاره ، كما بيّن ، لا وجوده تعالى. قاله أبو السعود.

الإشارة : قال القشيري : والإشارة فى هذا أن الإنسان يكون طفلا ، ثم شابا ، ثم كهلا ، ثم شيخا ، ثم يصير إلى أرذل العمر ، ثم إلى آخره يخترم ، ويقال : إن الزرع ما لم يأخذ فى الجفاف لا يؤخذ منه الحبّ ، الذي هو المقصود منه ، كذلك الإنسان مالم [يخل] «٢» من نفسه وحوله لا يكون له قدر ولا قيمة. قلت : يعنى أنه ما لم يمحص نفسه ، وينهكها فى التقرب إلى مولاه ، لا قيمة له.

---

(١) الآية ٢٤ من سورة يونس.

(٢) فى القشيري : [يحصل].

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٦٨

ثم قال : ويقال : إن المؤمن بقوة عقله يوجب [استقلاله بعمله] «١» إلا أن يبرز منه كمال يمكّنه من وفارة بصيرته ، ثم إذا بدت لائحة من سلطان المعارف تصير تلك [الأبواب] «٢» مغمورة ، فإذا بدت أنوار التوحيد استهلكت تلك الجملة كذلك ، وأنشدوا :

فلمّا استبان الصبح أدرج ضوءه بأنواره ضوء الكواكب «٣». هـ.

قلت : استقلال العبد بعمله هو مثل بروز الزرع من منبته ، ووفور بصيرته هو إخراج حبه فى سنبله ، وبدو لائحة من سلطان المعارف هو اصفراره ، وظهور أنوار التوحيد التي تفنى وجوده وتغمره فى وجود الحق هو صيرورتها حطاما ، فتأمل. وهذا كله نتيجة شرح الصدر الذي أشار إليه بقوله :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٢٢]

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٢)

قلت : الهمزة للإنكار ، ومِنْ : مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : كمن ليس كذلك.

يقول الحق جل جلاله : أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ أي : وسّعه وهيّاه لِلْإِسْلامِ حتى قبله وفرح به ، واستضاء بنوره ، فَهُوَ عَلى نُورٍ عظيم مِنْ رَبِّهِ ، وبصيرة فى دينه ، وهذا النّور : هو اللطف الإلهى الفائض عليه عند مشاهدة الآيات التكوينية والتنزيلية ، والتوفيق للاهتداء بها ، أو : بمحض الإلهام من الجود والكرم ، فيقذف فى قلبه نور اليقين ، بلا سبب ، أو : بصحبه أهل النّور ، هل يكون هذا كمن قسا قلبه ، وحرج صدره ، واستولى عليه ظلمة الغى والضلالة ، فأعرض عن تلك الآيات بالكلية؟! ولما نزلت هذه

الآية سئل صلّى اللّه عليه وسلم عن الشرح المذكور ، فقال : «نور يقذفه اللّه فى القلب ، فإذا دخل النّور القلب انشرح وانفسح» قيل : وهل لذلك علامة؟ قال : «نعم التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دارالخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله» «٤».

---

(١) فى القشيري : [استفادة له بعلمه]

(٢) فى القشيري (الأنوار).

(٣) أنشده أبو العباس السهارى. كما فى طبقات الأولياء (٣٦٧). وجاء فى طبقات الصوفية للسلمى (٤٤٧) : أنشده أبو العباس السياري ، واسمه : القاسم بن القاسم بن مهدى.

(٤) أخرجه البغوي فى تفسيره (٧/ ١١٤) والحكيم الترمذي فى نوادر الأصول ، فى (الأصل السادس والثمانين) والحاكم فى المستدرك (٤/ ٤١١) وسكت عنه. والبيهقي فى الشعب (ح ١٠٥٥٢) من حديث عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٦٩

فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ : أي الصلبة اليابسة مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أي : من أجل ذكره ، الذي من حقه أن ينشرح له الصدر ، وتلين له النّفس ، ويطمئن به القلب ، وهؤلاء إذا ذكر اللّه عندهم اشمأزوا من أجله ، وازدادت قلوبهم قساوة.

قال الفخر : اعلم أن ذكر اللّه سبب لحصول النّور والهداية ، وزيادة الاطمئنان فى النّفوس الطاهرة الرّوحانية ، وقد يوجب القسوة والبعد عن الحق فى النّفوس الخبيثة الشيطانية ، فإذا عرفت هذا ، فنقول : رأس الأدوية التي تفيد الصحة الرّوحانية ورتبتها : هو ذكر اللّه ، فإذا اتفق لبعض النّفوس أن صار ذكر اللّه سببا لازدياد مرضها ، كان مرض تلك النّفوس مرضا لا يرجى زواله ، ولا يتوقع علاجه ، وكانت فى نهاية الشر والرّداءة ، فلهذا المعنى قال تعالى : فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ وهذا كلام محقق. هـ. وهو كما قيل فى الجعل «١» أنها تتضرر برياح الورد ، أي : وتنتعش بالشين. ف كل من يفر من ذكر اللّه ، ويثقل عليه ، فقلبه جعل.

ذكره فى الحاشية.

أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي : أولئك البعداء الموصوفون بما ذكر من قساوة القلوب فى ضلال بعيد من الحق ، ظاهر ضلاله لكل أحد. قيل : نزلت الآية فى حمزة وعلىّ – رضي اللّه عنهما – وأبى لهب وولده «٢» ، وقيل :

فى عمّار وأبى جهل. والحق : أنها عامة.
الإشارة : من أراد اللّه به السعادة شرح صدره للإسلام ، فقبله وعمل عمله ، ومن أراد به جذب العناية وتحقيق الولاية ، شرح صدره لطريق أهل مقام الإحسان ، فدخل فى طريقهم ، وهيأ نفسه لصحبتهم وخدمتهم ، فما زال يقطعون به مهامه النّفوس حتى يقولون له : ها أنت وربك ، فتلوح له الأنوار ، وتشرق عليه شموس المعارف والأسرار ، حتى يفنى ويبقى باللّه.
قال القشيري : والنّور الذي من قبله تعالى نور اللوائح بتحقق العلم ، ثم نور اللوامع بثبات الفهم ، ثم نور المحاضرة بزوائد اليقين ، ثم نور المكاشفة بتجلى الصفات ، ثم نور المشاهدة بظهور الذات ، ثم أنوار الصمدية بحقائق التوحيد ، وعند ذلك فلا [وجد ولا فقد] «٣» ، ولا بعد ولا قرب ، كلا ، بل هو اللّه الواحد القهار. هـ. فمن لم يبلغ هذا لا يخلو قلبه من قساوة ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر اللّه ، أولئك فى ضلال مبين.

---

(١) الجعل : دابة سوداء من دواب الأرض ، كالخنفساء. انظر اللسان (جعل ١/ ٦٣٨).
(٢) ذكره الواحدي فى أسباب النّزول (ص ٣٨٣) بدون إسناد.
(٣) فى الأصول [فلا وجه ولا قصة] والمثبت من القشيري. [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٧٠
ثم ذكر سبب لين القلوب ، وهو كتاب اللّه العزيز ، فقال :
[سورة الزمر (٣٩) : آية ٢٣]
اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٢٣)
قلت : «كتابا» : بدل من «أحسن» ، أو : حال ، لوصفه بقوله : مُتَشابِهاً. و«مثانى» : صفة أخرى لكتاب ، أو :
حال أخرى منه ، أو : تمييز من «متشابها» ، كما تقول : رأيت رجلا حسنا شمائل ، أي : شمائله ، والمعنى : متشابهة مثانيه. وتَقْشَعِرُّ : الأظهر أنه استئناف ، وقيل : صفة لكتاب ، أو : حال منه.
يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ وهو القرآن إذ لا حديث أحسن منه ، لا تمله القلوب ، وتسأمه الأسماع بل ترداده يزيده تجملا وطراوة وتكثير حلاوة. روى أن أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، ملّوا ملة ، فقالوا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : حديثا ، فنزلت»

.

والمعنى : أن فيه مندوحة عن سائر الأحاديث.

وفى إيقاع اسم الجلالة مبتدأ ، وبناء «نزّل» عليه ، من تفخيم أحسن الحديث ، ورفع محله ، والاستشهاد على حسنه ، وتأكيد إسناده إليه تعالى ، وأنه من عنده ، لا يمكن صدوره من غيره ، والتنبيه على أنه وحي معجز ، مالا يخفى.

حال كونه كِتاباً مُتَشابِهاً أي : يشبه بعضه بعضا فى الإعجاز والبلاغة ، أو : تشابهت معانيه بالصحة ، والإحكام ، والابتناء على الحق والصدق ، واستتباع منافع الخلق فى المعاد والمعاش ، وتناسب ألفاظه وجمله فى الفصاحة والبلاغة ، وتجاوب نظمه فى الإعجاز. مَثانِيَ : جمع مثنى ، أي : مكرر ، ومردد ، لما ثنى من قصصه ، وأنبائه ، وأحكامه ، وأوامره ونواهيه ، ووعده ووعيده ، ووعظه. وقيل : لأنه يثنّى فى التلاوة ، ويكرر مرة بعد أخرى. قال القشيري : ويشتمل على نوعى الثناء عليه ، بذكر سلطانه وإحسانه ، وصفة الجنة والنّار ، والوعد والوعيد. هـ.

---

(١) أخرجه بنحوه ابن جرير (٢٣/ ٢١١) عن ابن عباس رضي اللّه عنه ، والواحدي فى الأسباب (ص ٣٨٣) عن سعد ، رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٧١

تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ أي : ترتعد وتنقبض ، والاقشعرار : التقبض ، يقال : اقشعرّ الجلد :

إذا انقبض ، ويقال : اقشعر جلده و. وقف شعره : إذا عرض له خوف شديد ، من منكر هائل دهمه بغتة. والمعنى : أنهم إذا سمعوا القرآن وقوارعه وزواجره ، أصابتهم هيبة وخشية تقشعر منه جلودهم ، وإذا ذكروا رحمة اللّه تعالى تبدلت خشيتهم رجاء ، ورهبتهم رغبة ، وذلك قوله تعالى : ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ أي : ساكنة مطمئنة إلى ذكر اللّه.

ذلِكَ أي : الكتاب الذي شرح أحواله هُدَى اللَّهِ ، يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ أن يهديه ، بصرف مجهوده إلى سبب الاهتداء به ، أو بتأمله فيما فى تضاعيفه من شواهد الحقيقة ، ودلائل كونه من عند اللّه.

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ أي : يخلق فيه الضلالة ، بصرف قدرته إلى مبادئها ، وإعراضه عما يرشد إلى الحق بالكلية ، وعدم تأثره بوعده ووعيده ، أو : من يخذله فَما لَهُ مِنْ هادٍ يخلصه من ورطة الضلال. أو : ذلك الذي ذكر من الخشية والرّجاء هو أثر هدى اللّه ، يهدى لذلك الأثر من يشاء من عباده ، وَمَنْ

يُضْلِلِ أي :

ومن لم يؤثر فيه لطفه وهدايته لقسوة قلبه ، وإصراره على فجوره فَما لَهُ مِنْ هادٍ : من مؤثر فيه بشيء قط.

الإشارة : أول ما يظهر الفتح على قلب العبد فى فهم كتاب اللّه ، والتمتع بحلاوة تلاوته ، ثم ينتقل إلى الاستغراق فى ذكره باللسان ، ثم بالقلب ، ثم إلى الفكرة ، ثم العكوف فى الحضرة ، إن وجد من يربيه وينقله عن هذه المقامات ، وإلا بقي فى مقامه الأول.

وقال الطيبي : من أراد اللّه أن يهديه بالقرآن ، أوقع فى قلبه الخشية ، كقوله : هُدىً لِلْمُتَّقِينَ «١» ثم يتأثر منه ظاهرا ، بأن تأخذه فى بدء الحال قشعريرة لضعفه ، وقوة سطوة الوارد ، فإذا أدمن على سماعه ، وألف أنواره ، يطمئن ويلين ويسكن. هـ. قلت : وعن هذا عبّر الصدّيق بقوله حين رأى قوما يبكون عند سماعه : (كذلك كنا ثم قست القلوب) «٢» أي : صلبت وقويت على حمل الواردات.

وقال الورتجبي : سماع المريدين بإظهار الحال عليهم ، وسماع العارفين بالطمأنينة والسكون. هـ. وقال على قوله : مُتَشابِهاً : إنه أخبر عن كلية الذات والصفات ، التي منبعهما أصل القدم ، وصفاته كذاته ، وذاته كصفاته ،

---

(١) من الآية ٢ من سورة البقرة.

(٢) نقله الحافظ أبو نعيم فى الحلية ١/ ٣٣ - ٣٤ ، وراجع البحر المديد ٣/ ٣٤٦.

وكلّ صفة كصفة أخرى ، من حيث التنزيه والقدس والتقديس ، والكلام بنفسه متشابه المعاني. هـ. يعنى : إنما كان القرآن متشابها لأنه أخبر عن كلية الذات والصفات القديمين ، والذات لها شبه بالصفات من حيث اللطافة ، والصفات تشبه بعضها بعضا فى الدلالة على التنزيه والكمال ، أي : كتابا دالا على كلية الذات المشابهة للصفات.

وهذا حمل بعيد.

ثم ذكر مثال المهتدى والضال ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٢٤ الى ٢٦]

أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ

أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦)

قلت : وَقِيلَ : عطف على «يتقى» ، أو : حال من ضمير «يتقى» ، بإضمار «قد».

يقول الحق جل جلاله : أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ الذي هو أشرف أعضائه سُوءَ الْعَذابِ أي : العذاب السيّء الشديد يَوْمَ الْقِيامَةِ كمن ليس كذلك ، بل هو آمن ، لا يعتريه مكروه ، ولا يحتاج إلى اتقاء ، بوجه من الوجوه ، وإنما كان يتقى النّار بوجهه لكون يده التي كان يتقى بها المكاره والمخاوف مغلولة إلى عنقه.

قال القشيري : قيل : إن الكافر يلقى فى النّار ، فيلقاها أولا بوجهه لأنه يرمى فيها منكوسا «١» فأما المؤمن الموقّى ذلك فهو الملقّى بالكرامة ، فوجهه ضاحك مستبشر «٢». هـ.

وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ : يقال لهم من جهة خزنه النّار. وصيغة الماضي للدلالة على التحقق. ووضع المظهر فى مقام المضمر للتسجيل عليهم بالظلم ، والإشعار بعلة الأمر فى قوله : ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ أي : وبال ما كنتم تكسبونه فى الدنيا ، من الظلم بالكفر والمعاصي.

---

(١) أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ، قال : «ينطلق به إلى النّار مكتوفا ثم يرمى فيها ، فأول ما تمس وجهه النّار».

(٢) النقل فيه تصرف : انظر لطائف الإشارات.

كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من الأمم السالفة ، فَأَتاهُمُ الْعَذابُ المقرر لكل أمة مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ : من الجهة التي لا يحتسبون ، ولا يخطر ببالهم إتيان الشر منها. فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ أي : الذل والصغار فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، كالمسخ ، والخسف ، والقتل ، والأسر ، والإجلاء ، وغير ذلك من فنون النّكال ، وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ المعد لهم أَكْبَرُ لشدته ودوامه لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ أي : لو كان من شأنهم أن يعلموا شيئا لعلموا ذلك واعتبروا به.

والآية ، يحتمل أن تكون تهديدا لقريش ، فالضمير فى قَبْلِهِمْ يعود إليهم لأن قوله : وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ .. إلخ تعرض بمن أعرض عن كتابه من كفار قريش. وقال أبو السعود : هو استئناف ، مسوق لبيان ما أصاب بعض الكفرة من العذاب ، إثر بيان ما يصيب الكل من العذاب الأخروى. هـ.

الإشارة : الوجه هو أشرف الأعضاء وإمامها ، فإن كانت فى الباطن بهجة المحبة ، أو سيما المعرفة ، ظهرت عليه ، فيتنور ويبتهج ، وإن كانت ظلمة المعاصي ، أو كآبة الحجاب ، ظهرت عليه ، وإن كانت غيبة فى الحق أو سكرة ، كان هو أول ما يغيب من الإنسان ويغرق ، ثم تغيب البشرية فى البحر

المحيط ، وهو بحر الأحدية. وقوله تعالى : فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ، قال القشيري : أشدّ العذاب ما يكون بغتة ، كما أن أتمّ السرور ما يكون فلتة. وفى الهجران والفراق والشدة ما يكون بغتة غير متوقعة ، وهو أنكى للفؤاد ، وأشدّ فى التأثير ، وأوجعه للقلوب ، وفى معناه أنشدوا «١» :

فبتّ «٢» بخير والدّنى مطمئنة فأصبحت يوما والزمان تقلّبا

وأتمّ السرور وأعظمه تأثيرا ما يكون فجأة ، حتى قال بعضهم : أشد السرور غفلة على غفلة ، وأنشدوا :

بينما خاطر المنى بالتلاقى سابح «٣» فى فؤاده وفؤادى

جمع اللّه بيننا فالتقينا هكذا بغتة «٤» بلا ميعاد. هـ «٥»

---

(١) فى القشيري : وفى معناه قلنا.

(٢) فى الأصول : فبتنا.

(٣) فى الأصول : سانح.

(٤) فى القشيري : صدفة.

(٥) انظر لطائف الإشارات ٣/ ٢٧٩.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٧٤

ولمّا بيّن وبال من أعرض عن أحسن الحديث ، بيّن فضله وشرفه ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٢٧ الى ٢٨]

وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨)

قلت : قرآنا : حال مؤكدة من «هذا» على أن مدار التأكيد هو الوصف ، كقولك : جاءنى زيد رجلا صالحا.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ ضَرَبْنا أي : وضحنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ : يحتاج إليه النّاظر فى أمر دينه ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أي : كى يتذكروا به ويتعظوا ، حال كونه قُرْآناً عَرَبِيًّا لتفهموا معانيه بسرعة ، غَيْرَ ذِي عِوَجٍ : لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه ، فهو أبلغ من المستقيم ، وأخص بالمعاني.

وقيل : المراد بالعوج : الشك. لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ما يضرهم فى معادهم ومعاشهم.

الإشارة : قد بيّن اللّه فى القرآن ما يحتاج إليه المريد فى سلوكه وجذبه ، وسيره ووصوله ، من بيان الشرائع وإظهار الطرائق ، وتبيين الحقائق. قال تعالى : ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ «١» لكن لا

يغوص على هذا إلا الجهابذة من البحرية الذين غاصوا بأسرارهم فى بحر الأحدية ، وتغلغلوا فى العلوم اللدنية ، ومن لم يبلغ هذا المقام يصحب من يبلغه ، حتى يوصله إلى ربه ، ولا يكون الوصول إلا بلقب مفرد ، غير مشترك ، كما بيّن ذلك بقوله تعالى :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٢٩ الى ٣١]

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)

قلت : مَثَلًا : مفعول ثان لضرب ، ورَجُلًا : مفعول أول ، وأخّر للتشويق إليه ، وليصل بما وصف به ، وقيل : بدل من «مثلا» ، وفِيهِ : خبر ، و«شركاء» : مبتدأ ، والجملة : صفة لرجل ، و«مثلا» : تمييز.

يقول الحق جل جلاله : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا للمشرك والموحد ، رَجُلًا فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ : مختلفون متخاصمون عسيرون ، وهو المشرك ، وَرَجُلًا سَلَماً أي : خالصا لِرَجُلٍ فرد ، ليس لغيره عليه

---

(١) من الآية ٣٨ من سورة الأنعام.

سبيل. والمعنى : جعل اللّه مثلا للمشرك حسبما يقوده إليه مذهبه ، من ادعاء كل من معبوديه عبوديته ، عبدا يتشارك فيه جماعة ، يتجاذبونه فى مهماته المتباينة فى تحيره وتعبه ، ومثلا آخر للموحّد ، وهو عبد خالص لرجل واحد فإنه يكون عند سيده أحظى ، وبه أرفق.

هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا : إنكار واستبعاد لاستوائهما ، وإيذان بأن ذلك من الجلاء والظهور ، بحيث لا يقدر أحد أن يتفوه باستوائهما ضرورة أن أحدهما فى أعلى عليين ، والآخر فى أسفل سافلين.

وقرأ نافع وابن عامر والكوفيون سَلَماً بفتحتين ، وهو مصدر ، من : سلم له كذا : إذا خلص ، نعت به للمبالغة ، فالقراءتان «١» متفقتان معنى. والمراد من المثل : تصوير استراحة الموحد وانجماعه على معبوده ، وتعب المشرك وتشتيت باله ، وخصوصا مع فرض التعاكس من الشركاء ، فيصير متحيرا ، وفى عنت كبير من الجمع بين أغراضهم ، بل ربما يتعذر ذلك ويستحيل للتضاد فى الأغراض والتناقض ، مع فرض التخالف والتنازع بينهم ، واعتبر ذلك بحال الوالدين ، إذا اختلفا على الولد ، فإنه يعسر إرضاؤهما إلا بمشقة واحتيال ، وكذلك عابد الأوثان فإنه معذّب الفكر بها ، وبحراسة حاله منها ، ومتى توهم أنه أرضى واحدا فى زعمه تفكر فيما يصنع مع الآخر ، فهو أبدا فى تعب وضلال ، وكذلك هو المصانع للناس ، الممتحن بخدمة الملوك. قاله ابن عطية.

والحاصل : أن إرضاء الواحد أسهل وأيسر من إرضاء الجماعة الْحَمْدُ لِلَّهِ على عدم استوائهما. [قال] «٢» الطيبي : ثم إذا لزمتهم الحجة قل : الحمد للّه ، شكرا على ما أولاك من النّصرة ، وقهر الأعداء بالحجج الساطعة. وفيه تنبيه للموحدين على أن ما لهم من المزية ، وعلو الرتبة ، بتوفيق اللّه تعالى ، وأنه منّة جليلة ، موجبة عليهم أن يداوامو على حمده وعبادته ، أو : حيث ضرب لهم المثل الأعلى ، وللمشركين المثال السوء ، فهذا صنع جميل ، ولطف تام ، مستوجب لحمده وشكره بَلْ أَكْثَرُهُمْ أي : المشركون لا يَعْلَمُونَ ذلك ، مع كمال ظهوره ، فيقعون فى ورطة الشرك والضلال ، وهو انتقال من بيان الاستواء على الوجه المذكور ، إلى بيان عدم علمهم ذلك ، مع غاية ظهوره.

---

(١) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ويعقوب : (سالما) بالألف وكسر اللام ، اسم فاعل من سلم ، أي : خالصا من الشركة. وقرأ الباقون :
(سلما) بفتح السين واللام ، بلا ألف ، مصدر وصف به ، مبالغة فى الخلوص من الشركة. انظر الإتحاف (٢/ ٤٢٩) والبحر المحيط (٧/ ٤٠٧).
(٢) زيادة ليست فى الأصول.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٧٦
ثم ذكر المحل الذي يظهر فيه عدم استوائهما عيانا ، وهو ما بعد الموت ، فقال : إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ، فتجتمعون عندنا ، فنحكم بينكم. وقيل : كانوا يتربصون برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم موته ، أي : إنكم جميعا بصدد الموت ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ، فتحتج عليهم بأنك بلّغت الرّسالة ، واجتهدت فى الدعوة ، فتلزمهم الحجة لأنهم قد لجوا فى العناد ، فإذا اعتذروا بتقليد آبائهم لم يقبل عذرهم. وقيل : المراد : الاختصام فيما دار بينهم فى الدنيا. والأول أنسب.
الإشارة : لا يستوى القلب المشترك مع القلب المفرد الخالص للّه ، القلب المشترك تفرقت همومه ، وتشتت أنواره ، بتشتيت شواغله وعلائقه ، وتفرقت محبته ، بتفرق أهوائه وحظوظه ، والقلب المفرد اجتمعت محبته وتوفرت أنواره وأسراره بقدر تفرغه من شواغله وعلائقه. وفى الحكم : «كما لا يحب العمل المشترك ، لا يحب القلب المشترك ، العمل المشترك لا يقبله ، والقلب المشرك لا يقبل عليه». وقال أيضا : «فرّغ قلبك من الأغيار تملؤه بالمعارف والأسرار».
وقيل للجنيد : كيف السبيل إلى الوصول؟ فقال : بتوبة تزيل الإصرار ، وخوف يقطع التّسويف ، ورجاء يبعث على مسالك العمل ، وبإهانة النّفس ، بقربها من الأجل ، وبعدها من الأمل. قيل له : وبم يتوصل

إلى هذا؟ فقال :

بقلب مفرد ، فيه توحيد مجرد. هـ.

وفى الحديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم «من جعل الهموم همّا واحدا – أي : وهو اللّه – كفاه اللّه همّ دنياه ، ومن تشعبت به الهموم لم يبال اللّه به فى أىّ أودية الدنيا هلك» «١» وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «من كانت الدنيا همّه فرّق اللّه عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قسم له ، ومن كانت الآخرة نيته ، جمع اللّه عليه أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى صاغرة» «٢». ومن كان اللّه همه بفنائه فيه جمع اللّه عليه سره ، وأغناه به عما سواه ، وخدمه الوجود بأسره ، «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان معك» «٣».

واللّه تعالى أعلم.

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٤٤٣) «وصحّحه ، ووافقه الذهبي». والبيهقي فى الشعب (١٠٣٤٠) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنه. وأخرجه ابن ماجة بسند ضعيف ، فى (المقدمة ، ١/ ٩٥ ، ح ٢٥٧) من حديث ابن مسعود رضي اللّه عنه. [.....]

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ١٨٣) وابن ماجة فى (الزهد ، باب الهم بالدنيا ، ٢/ ١٣٧٥ ، ح ٤١٠٥) من حديث زيد بن ثابت رضي اللّه عنه ، وأخرجه ، من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه ، الترمذي فى (صفة القيامة والرّقائق ، ٤/ ٥٥٤ ، ح ٢٤٦٥).

(٣) حكمة عطائية ، انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي/ ص ٣٣ حكمة ٢٤٨.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٧٧

ثم بيّن فريقى الاختصام ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٣٢ الى ٣٥]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥)

يقول الحق جل جلاله : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ بأن أضاف إليه الشريك والولد ، فإنه لا أحد أظلم منه إذ هو أظلم من كلّ ظالم. وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ أي : الأمر الذي هو نفس الصدق وعين الحق ، وهو ما جاء به النّبى صلّى اللّه عليه وسلم من عند اللّه إِذْ جاءَهُ أي : كذّب فى أول مجيئه ، من غير

تأمل فيه ولا تدبر ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ؟ أي : لهؤلاء الذين افتروا على اللّه ، وسارعوا إلى التكذيب بالصدق ، فأظهر موضع الإضمار تسجيلا وإيذانا بعلة الحكم الذي استحقوا به جهنم ، والجمع باعتبار معنى" من" ، كما أن الإفراد فى الضمائر السابقة باعتبار لفظها ، أو : لجنس الكفرة ، وهم داخلون فى الكفر دخولا أولياء.

وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وهو محمد صلّى اللّه عليه وسلم وَصَدَّقَ بِهِ : وهم المؤمنون ، أي : والفوج ، أو : الفريق الذي جاء بالصدق ، والفريق الذي صدّق به. أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ : المنعوتون بالتقى ، [التي] «١» هى أجلّ الرّغائب.

وقرىء «صدق» بالتخفيف «٢» ، أي : صدق به النّاس ، فأدّاه إليهم كما أنزل عليه ، من غير تغيير ، وقيل : صار صادقا بسببه لأن ما جاء به من القرآن معجزة دالة على صدقه صلّى اللّه عليه وسلم.

لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ : هو بيان لما لهم فى الآخرة من حسن المآب ، بعد بيان مالهم فى الدنيا من محاسن الأعمال ، أي : لهم ما يشاءونه من جلب المنافع ودفع المضار ، وتوالى المسار فى الآخرة ، لا فى الجنة فقط

---

(١) فى الأصول [الذي].

(٢) وبه قرأ أبو صالح ، وعكرمة بن سليمان ، ومحمد بن حجازة. انظر : مختصر ابن خالويه (ص ١٣٢) ، والمحتسب (٢/ ٢٣٧).

لأن بعض ما يشاؤون يقع قبل دخول الجنة ، من تكفير السيئات ، والأمن من الفزع الأكبر ، وسائر أهوال القيامة.

ذلِكَ الذي ذكر من حصول كلّ ما يشاءونه جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ أي : الذين أحسنوا أعمالهم فى الدنيا.

لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ، اللام متعلق بقوله : لَهُمْ ما يَشاؤُنَ لأنه فى معنى الوعد ، كأنه قيل : وعد اللّه لهم جميع ما يشاءونه من دفع المضار وحصول المسار ليكفر عنهم بموجب ذلك الوعد أسوأ الذي عملوا ، أي : أقبحه وأعظمه ، وأولى أصغره. وقيل : يتعلق بمحذوف ، أي : يسر لهم الصدق والتصديق ليكفر .. إلخ.

وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ فإذا كان فى عملهم حسن وأحسن منه ، جزاهم بجزاء الأحسن على الجميع ، تكرما منه وإحسانا.

والحاصل : أنه سبحانه لكرمه يكفر السيّء والأسوأ بالأحروية ، ويجزى على الحسن بجزاء الأحسن منه والأرجح ، كمن أهدى لملك هديتين صغيرة وكبيرة فكافأه على الصغيرة بقدر ما كافأه على الكبيرة. قال القشيري : وأحسن أعمال المؤمن : الإيمان والمعرفة ، فيكون على أحسن الأعمال أحسن الثواب ، وهو الرّؤية. هـ.

وإظهار اسم الجليل فى موضع الإضمار ، لإبراز كمال الاعتناء بمضمون الكلام ، والجمع بين الماضي والمستقبل فى صلة الموصول الثاني – أي : الذي كانوا يعملون – دون الأول للإيذان باستمرارهم على الأعمال الصالحة ، بخلاف السيئة.

الإشارة : كل من ادعى حالا مع اللّه ، وليست متحققة فيه ، فقد كذب على اللّه ، وكلّ من أنكر على أولياء زمانه فقد كذّب بالصدق إذ جاءه. وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ ، وهو من أذن له فى التذكير أو التربية. وَصَدَّقَ بِهِ ، وهو من سمع وتبع ، أولئك هم المتقون ، دون غيرهم ، لهم ما يتمنون عند ربهم فى الدنيا والآخرة ، ذلك جزاء أهل مقام الإحسان ، الذين يعبدونه على العيان ، يغطى وصفهم بوصفه ، ونعتهم بنعته ، فيوصلهم بما منه إليهم ، لا بما منهم إليه ، ثم يكفيهم جميع الشرور ، كما قال تعالى :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٣٦ الى ٣٧]

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ (٣٧)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٧٩

يقول الحق جل جلاله : أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ أي : نبيه صلّى اللّه عليه وسلم. نزلت تقوية لقلبه – عليه السّلام ، وإزالة للخوف الذي كان الكفار يخوفونه ، أو : جنس العبد ، فيشمل الأنبياء كلهم والمؤمنين ، وينتظم فيه النّبى صلّى اللّه عليه وسلم انتظاما أوليا ، ويؤيده قراءة الأخوين «١» بالجمع. وهو إنكار ونفى لعدم كفايته تعالى على أبلغ وجه وآكده ، كأنّ الكفاية بلغت من الظهور ما لا يقدر أحد على أن يتفوه بعدهما ، أو يتلعثم فى الجواب بوجودها ، وإذا علم العبد أن الحق تعالى قائم بكفايته ، سكن قلبه واطمأن ، وأسقط الأحمال والكلف عن ظهره ، فلا جرم أن اللّه يكفيه ما أهمه ، ويؤمّنه مما يخافه ، كما قال تعالى لنبيه صلّى اللّه عليه وسلم :

وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ أي : الأوثان التي اتخذوها آلهة دونه تعالى ، وهى جوامد ، لا تضر ولا تنفع ، وهذا تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم عما قالت قريش : إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا ، وتصيبك معرّتها لعيبك إياها. وفى رواية :

قالوا : لتكفنّ عن آلهتنا ، أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون «٢» ، كما قال قوم هود : إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ «٣». وجملة : «ويخوفونك» : استئناف ، أو : حال. وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ حتى غفل عن كفايته وعصمته صلّى اللّه عليه وسلم ، أو : اعتقد أن الأصنام تضر وتنفع فَما لَهُ مِنْ هادٍ يهديه إلى ما يرشده.

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ إلى توحيده وطاعته فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ يصرفه عن رشده ، أو يصيبه سوء يخل بسلوكه إذ لا راد لفعله ، ولا معارض لقضائه ، كما ينطق به قوله تعالى : أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ : غالب لا يغالب ، منيع لا يمانع ولا ينازع ، ذِي انْتِقامٍ من أعدائه لأوليائه ، بإعزاز أوليائه وإذلال أعدائه. وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لتحقيق مضمون الكلام ، وتربية المهابة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إذا علم العبد أن اللّه كاف جميع عباده ، وثق بضمانه ، فاستراح من تعبه ، وأزال الهموم والأكدار عن قلبه ، فيدخل جنة الرّضا والتسليم ، ويهب عليه من روح الوصال وريحان الجمال نسيم ، فيكتفى باللّه ، ويقنع بعلم اللّه ، ويثق بضمانه.

قال فى لطائف المنن : مبنى الوليّ على الاكتفاء باللّه ، والقناعة بعلمه ، والاغتناء بشهوده. قال تعالى : أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وقال تعالى : أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ «٤». هـ. وقال الشيخ

---

(١) قرأ حمزة والكسائي : (عباده) بألف ، على الجمع. وقرأ الباقون : (عبده) بغير ألف. انظر الإتحاف (٢/ ٤٢٩).

(٢) ذكر هذه الرّواية السيوطي فى الدر (٥/ ٦١٥ - ٦١٦) وعزاها لعبد الرّزاق وابن المنذر عن قتادة. وانظر تفسير البغوي (٧/ ١٢٠).

(٣) من الآية ٥٤ من سورة هود.

(٤) من الآية ٥٣ من سورة فصلت.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٨٠

أبو الحسن صلّى اللّه عليه وسلم : يقول اللّه - عز وجل : عبدى اجعلنى مكان همك أكفك همك ، عبدى ما كنت بك فأنت فى محل البعد ، وما كنت بي فأنت فى محل القرب ، فاختر لنفسك. هـ. أي : ما دمت مهموما بنفسك فأنت فى محل البعد ، وإذا خرجت عنها ، وطرحتها بين يدى خالقها ، أو غبت عن وجودها بالكلية ، فأنت فى محل القرب ، الأول : قرب مراقبة ، والثاني : قرب مشاهدة.

وقوله تعالى : وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ : هو عام فى كلّ ما يخاف منه ، فالعارف لا يخاف من شيء

لعلمه بأن اللّه ليس معه شيء ، ولا يقع فى الوجود إلا قدره وقضاؤه ، ومن يعتقد غير هذا فهو ضال ، ومن يضلل اللّه فلا هادى له. وباللّه التوفيق.

ثم قرر هذا الأمر وحقيقته بقوله :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٣٨]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨)

يقول الحق جل جلاله : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ أي : من يخوفونك ممن سوى اللّه ، وقلت لهم : مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ لوضوح الدلائل على انفراده بالاختراع. قُلْ تبكيتا لهم : أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ من الأصنام ، إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أي : إذا تحققتم أن خالق العالم العلوي والسفلى هو اللّه وحده ، فأخبرونى عن آلهتكم ، إن أرادنى اللّه بضر هل يقدر أحد منهم على كشف ذلك الضر عنى؟ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ أي : بنفع هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ وصارفتها عنى؟!

وقرأ البصري : «كاشفات» و«ممسكات» بالتنوين ، ونصب «ضره» و«رحمته» على المفعول. وتعليق إرادة الضر والرّحمة بنفسه صلّى اللّه عليه وسلم ، للرد فى نحورهم حيث كانوا يخوفونه من معرّة الأوثان ، ولما فيه من الإيذان بإمحاض النصيحة. وإنما قال : «كاشفات» و«ممسكات» على التأنيث ، بعد قوله : وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ لأنهن إناث ، وهن اللات ، والعزّى ، ومناة ، وفيه تهكّم بهم ، وبمعبودهم حيث جعلهم يعبدون الإناث.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٨١

قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ أي : كافينى فى جميع أمورى من إصابة الخير ودفع الشر. روى أنه صلّى اللّه عليه وسلم لما سألهم سكتوا ، فنزلت «١» : قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ، لا على غيره أصلا لعلمهم بأن كلّ ما سواه تحت قهر ملكوته.

الإشارة : الناس على قسمين : أعداء وأحباب ، فإن نظرت إلى الأعداء وجدتهم لا يقدرون أن ينفعوك بشيء إلا ما قدّر اللّه لك ، وإن نظرت إلى الأعداء وجدتهم لا يقدرون أن يضروك بشيء إلا ما قدّر اللّه عليك ، فارفض الجميع ، وتعلق باللّه يغنك عن غيره ، ويوصل إليك ما قسم لك بالعز والهناء.

ثم توعدهم بالعذاب ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٣٩ الى ٤١]

قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (٤٠) إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ أي : على حالتكم التي أنتم عليها ، وجهتكم من العداوة التي تمكنتم فيها ، فالمكانة بمعنى المكان ، فاستعيرت من العين للمعنى ، وهى الحال ، كما تستعار «هنا».

و«حيث» للزمان ، وإنما وضعا للمكان. وقرأ أبو بكر وحمّاد : «مكانات» بالجمع. إِنِّي عامِلٌ على مكانتى ، فحذف للاختصار ، والمبالغة فى الوعيد ، والإشعار بأن حاله لا تزال تزداد قوة بنصر اللّه تعالى له ، وتأييده ، ولذلك توعدهم بقوله : فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ فإنّ خزى أعدائه دليل غلبته صلّى اللّه عليه وسلم ونصره فى الدنيا والآخرة. وقد أخزاهم وعذّبهم يوم بدر ، وَسوف تعلمون أيضا من يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ فى الآخرة لأنه مقيم على الدوام.

ثم ذكر الفاصل بين أهل العذاب المقيم ، والنّعيم الدائم ، فقال : إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ أي : لأجلهم ، فمن أعرض عنه فقد استحق العذاب الأليم ، ومن تمسك به استوجب النّعيم المقيم ، حال كونه ملتبسا

---

(١) انظر تفسير القرطبي (٦/ ٥٨٧١) والبغوي (٧/ ١٢١).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٨٢

بِالْحَقِّ ناطقا به ، أو : أنزلناه محقين فى إنزاله. فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ ، إنما ينفع به نفسه وَمَنْ ضَلَّ : بأن أعرض عنه ، أو عن العمل به. فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها لأن وبال إضلاله مقصور عليها. وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ حتى تجبرهم على الهدى ، وما وظيفتك إلا التبليغ ، وقد بلغت أىّ بلاغ.

الإشارة : من ذكّر قوما فأعرضوا عنه ، ولم يرفعوا له رأسا ، يقول لهم : يا قوم اعملوا على مكانتكم .. إلخ ، وأىّ عذاب أشد من الحجاب ، والبعد عن حضرة الحبيب؟.

ثم ذكر دلائل البعث الذي يحل فيه العذاب على أهل الإعراض ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٤٢]

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ أي : الأرواح حِينَ مَوْتِها فيقبضها إليه قبضا ، وَيتوفى الأنفس الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فيقبضها ويترك شعاعها فى البدن ، فالتى قضى عليها الموت يتوفاها ظاهرا وباطنا ، والتي لم يقض موتها يتوفاها ظاهرا فقط عند النّوم ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ ، لا يردها إلى البدن ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرى أي : النائمة إلى بدنها عند التيقظ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى : هو الوقت المضروب لموتها ، فشبه النّائمين بالموتى ، حيث لا يميزون ولا يتصرفون ، كما أن الموتى كذلك.

قال الإمام «١» : النفس الإنسانية عبارة عن جوهر مشرق روحانى ، إذا تعلق بالبدن حصل ضوؤه فى جميع الأعضاء ، وهى الحياة ، ثم إنه فى وقت النّوم ينقطع تعلقه عن ظاهر البدن ، دون باطنه ، وفى وقت الموت ينقطع تعلقه عن ظاهر البدن وباطنه ، فالموت والنّوم من جنس واحد بهذا الاعتبار ، لكن الموت انقطاع كامل ، والنّوم انقطاع ناقص ، فظهر أن القادر الحكيم دبّر [تعلق جوهر] «٢» النفس بالبدن على ثلاثة أوجه ، أحدها : أنه دبّر أمرها ، بحيث يقع ضوء [الروح] «٣» على جميع أجزاء البدن ، ظاهره وباطنه ، وذلك هو اليقظة.

---

(١) هو الإمام الرّازى ، وانظر كلامه فى مفاتيح الغيب (١٣/ ٤٤٨). والنّقل بتصرف.

(٢) زيارة ليست فى الأصول الخطية. وأثبتها من تفسير الفخر الرّازى.

(٣) فى تفسير الرّازى : النفس.

وثانيها : بحيث يقطع عن الظاهر والباطن ، وهو الموت. وثالثها : بحيث يقطع عن ظاهر البدن دون الباطن ، وهو النّوم ، فثبت أن النّوم والموت يشتركان فى كلّ واحد منهما بتوفى النّفس ، ثم يمتاز أحدهما بخواص معينة.

ومثل هذا التقدير العجيب لا يمكن صدوره إلا عن القادر العليم الحكيم. هـ.

وقال سهل : إن اللّه إذا توفى الأنفس أخرج الرّوح النّورى من لطيف نفس الطبيعي الكثيفى ، فالذى يتوفى فى النوم من لطيف نفس الطبع ، لا لطيف نفس الرّوح. فالنائم يتنفس تنفسا لطيفا ، وهو نفس الرّوح ، الذي إذا زال لم يكن للعبد حركة ، وكان ميتا. وقال : حياة النّفس الطبيعي بنور لطيف ، وحياة لطيف نفس الرّوح بذكر اللّه. وقال أيضا : الروح تقوم بلطيفة فى ذاتها بغير نفس الطبع ، ألا ترى أن اللّه تعالى خاطب الكلّ فى الذر بنفس ، وروح ، وفهم ، وعقل ، وعلم لطيف ، بلا حضور طبع كثيف. هـ. قلت : وبهذا الاعتبار يقع لها العذاب فى البرزخ أو النّعيم ، وتذهب وتجيء فى عالم البرزخ.

وقال فى القصد : النفس مع الرّوح كالجسد مع الظل ، والظل يميل ، والأصل لا يميل ، والرّوح سره ، والسر بربه ، وهو شعاع الحقيقة الصغرى ، والسر نور السر الأعلى ، وكلّ هذا مخلوق بقدرة اللّه موثوق ، فلا يستفزك غير هذا فتشقى ، وفى جهنم من نور البعد تلقى. هـ. قلت : السر الأعلى هو معانى أسرار الذات القائمة بالأشياء ، وهو قديم غير مخلوق.

وذكر الثعلبي عن ابن عباس أنه قال : فى ابن آدم نفس وروح ، بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس هى التي بها العقل والتمييز ، والرّوح التي بها التحرك والنّفس فإذا نام العبد قبض اللّه نفسه ولم يقبض روحه. هـ. هذا ، وفى الصحيح : إن اللّه قبض أرواحنا حيث شاء ، وردها حيث شاء. فأطلق القبض على الأرواح. والصواب : أن النّفس والرّوح فى هذا واحد بدليل قوله : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ والحاصل : أن الموت : توف كامل ، بإخراج الرّوح مع شعاعها من البدن ، فتذهب الحياة ، والنّوم : توف ناقص ، بإخراج الرّوح مع بقاء شعاعها فى البدن ، به الحياة والتنفّس.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنه أيضا أنه قال : إن أرواح الأحياء والأموات تلتقى فى المنام ، ويتعارف ما شاء اللّه منها ، فإذا أراد اللّه رجوعها إلى الأجسام ، يمسك اللّه عنده أرواح الأموات ، ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها ، فذلك قوله عز وجل : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ .. الآية «١».

---

(١) انظر تفسير النّسفى (٢/ ١٨٣).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٨٤

وعبارة «عز الدين بن عبد السّلام» : فى كلّ جسد روحان إحداهما : روح اليقظة ، التي أجرى اللّه العادة أنها إذا كانت فى الجسد كان الإنسان متيقظا ، فإذا خرجت من الجسد نام الإنسان ، ورأت تلك الرّوح المنامات ، والأخرى :

روح الحياة ، التي أجرى اللّه العادة أنها إذا كانت فى الجسد كان حيّا فإذا فارقته مات ، فإذا رجعت إليه حيى ، وهاتان الرّوحان فى بطن الإنسان ، لا يعلم مقرّهما إلا من أطلعه اللّه عليهما ، فهما كجنينين فى بطن امرأة. هـ.

والآية منبهة على كمال قدرته ، وفيها دلالة على البعث ، وأنه كاليقظة سواء ، وهذا معنى قوله : إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فى عجائب قدرته ، فيعلمون أن من قدر على إمساك الأرواح فى النّوم ، وردها ، قادر على إماتتها وإحيائها. وفى التوراة : كما تنام تموت ، وكما تستيقظ تبعث.

الإشارة : اللّه يتوفى الأنفس المطهرة إلى حضرة قدسه ، حين موتها من الهوى ، ويقبض الأنفس التي لم

تمت من حظوظها فى سجن الأكوان ، وهيكل ذاتها ، فى حال منام غفلتها ، فيمسك التي قضى عليها الموت فى حضرة قدسه ، فلا يردها إلى شهود حضرة الأشباح ، ويرسل الأخرى تجول فى حضرة الأشباح وأودية الدنيا ، إلى أجل مسمّى ، إما موتها الحسى أو المعنوي ، إن سبقت لها سابقة عناية.

ثم تمم الرّد على من اعتقد أن الأصنام تنفع أو تضر ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٤٣ الى ٤٤]

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعاءَ قُلْ أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤)

يقول الحق جل جلاله : أَمِ اتَّخَذُوا أي : قريش مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعاءَ ، فيزعمون أن أصنامهم تشفع لهم عند اللّه ، أي : إنهم اتخذوا – على زعمهم – من دون اللّه شفعاء بحكمهم ، لا بتعريف من قبل اللّه وإخبار ، فإن اللّه لا يقبل الشفاعة من أحد إلا بإذن منه ، وإن الذين يقولون ذلك افتراء على اللّه. قُلْ أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ ، الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه ، والتوبيخ عليه ، أي : قل : أتتخذونهم شفعاء ولو كانوا لا يملكون شيئا من الأشياء ولا يعقلون شيئا ، فضلا عن أن يملكوا الشفاعة عند اللّه تعالى.

(٨٤/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٨٥

قُلْ تبكيتا وتجهيلا لهم : لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً أي : هو مالكها ، ولا يقدر أحد أن يتصدى لها ، إلا أن يكون المشفوع له مرتضى ، والشفيع مأذونا ، وكلاهما مفقود فى أصنامهم ، ثم قرر اختصاصه بالشفاعة بقوله :

لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : له التصرف فيهما ، وفيما فيهما من المخلوقات ، لا يملك أحد أن يتكلم فى أمر من أموره بدون إذنه ورضاه ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ يوم القيامة ، لا إلى أحد سواه ، فيفعل يومئذ ما يريد.

قال النّسفى : لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ اليوم ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ يوم القيامة ، فلا يكون الملك فى ذلك اليوم إلّا له ، فله الملك فى الدنيا والآخرة. هـ.

الإشارة : الشفاعة إنما تكون لأهل الجاه عند اللّه ، والجاه يعظم بحسب التوجه ، والتوجه يعظم على قدر المحبة ، والمحبة على حسب العناية السابقة ، يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ فبقدر أنوار التوجه تعظم أنوار المواجهة ، وبقدر أنوار المواجهة تتسع المعرفة ، وبحسب المعرفة يكون الجاه ، وبقدر الجاه تتسع الشفاعة ، حتى إن الواحد من الأولياء يشفع فى وجود بأسره من أهل زمانه ، إما عند موته ، أو عند

الحساب. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر علامة أهل الشرك ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٤٥ الى ٤٦]

وَإِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦)

قلت : «وحده» : منصوب عند سيبويه ، على المصدر ، وعند الفراء : على الحال ، والظاهر : أنه أطلق المصدر على اسمه.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ أي : إذا أفرد اللّه بالذكر ، ولم تذكر معه آلهتهم ، فمدار المعنى على قوله : وَحْدَهُ ، اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أي : انقبضت ونفرت ، كقوله : ... وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً

«١» ، وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ يعنى : آلهتهم ، ذكر اللّه معهم ، أو لم يذكر ، إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ لفرط افتتانهم بها ، ونسيانهم ذكر اللّه ، أو : وإذا قيل لهم :

لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، نفروا لأن فيه نفيا لآلهتهم.

---

(١) من الآية ٤٦ من سورة الإسراء. [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٨٦

وقال الورتجبي : صورة الآية وقعت على الجاحدين والمتكبرين ، الذين ليس فى محبتهم إلا متابعة الأشكال والأمثال ، من حيث التشبيه والخيال لأن قلوبهم خلقت على مشاكلة الأضداد والأنداد ، ولم يكن فى قلوبهم سجية أهل المعرفة باللّه ، فإذا سمعوا ذكر من لا يدخل فى الخيال والمثال انقبضت قلوبهم وصدورهم ، ونفرت ، وإذا سمعوا ذكر غير اللّه من الصور والأشباح ، سكنت نفوسهم إليها من غاية غباوتهم ، وكمال جهالتهم ، فهم مثل الصبيان ، إذ هم يفرحون بالأفراس الطينية والأسد الخشبية ، ولا يطيقون أن ينظروا إلى عدو العاديات ، وإلى الضراغم الباديات .. هـ. مختصرا.

ولقد بالغ فى بيان حالتيهم المتقابلتين حيث ذكر الغاية فيهما ، فإن الاستبشار : هو أن يمتلىء القلب سرورا ، حتى تنبسط له بشرة الوجه وتتهلل ، والاشمئزاز : أن يمتلىء القلب غيظا وغمّا ، حتى ينقبض منه أديم الوجه ، فتظهر عليه الكآبة والحزن. والعامل فى إِذا الأولى : «اشمأزت» ، وفى الثانية : ما هو

العامل فى «إذا» الفجائية ، والتقدير : وقت ذكر الذين من دونه فاجأوا وقت الاستبشار.
ثم أمر نبيه بالالتجاء إليه حين إدبارهم ، فقال : قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : يا فاطر ، وليس بوصف ، خلافا للفراء والمبرّد ، أي : اللهم يا مظهر السماوات والأرض ، عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أي : ما غاب من أسرار ذاتك وما ظهر ، أو : السر والعلانية ، أي : التجئ إليه تعالى إذا اغتممت من شدة شكيمتهم فى المكابرة والعناد فإنه القادر على الأشياء بجملتها ، والعالم بالأحوال برمتها. أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ أي : حكما يسلمه كلّ مكابر ومعاند ، ويخضع له كلّ عات ومارد ، فاحكم بينى وبين معاندى ، بالنصر عليهم فى الدنيا والآخرة.
وعن ابن المسيّب «١» : «ما أعرف آية قرئت فدعى عندها إلا أجيب سوى هذه». يعنى أنه صلّى اللّه عليه وسلم دعا اللّه أن يحكم بينه وبين عدوه بالاستئصال ، فأمهل لأنه رحمة. وعن الرّبيع بن خثيم – وكان قليل الكلام – : أنه أخبر بقتل الحسين رضي اللّه عنه ، وقالوا : الآن يتكلم ، فما زاد على أن قال : أو قد فعلوا؟ ، وقرأ : اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ...
الآية ، ثم قال على إثرها : قتل من كان رسول صلّى اللّه عليه وسلم يجلسه فى حجره ، ويقبل فاه «٢». هـ.
الإشارة : ينبغى للمؤمن أن يكون متعاكسا مع المشرك ، إذا سمع كلمة التوحيد «لا إله إلا اللّه» ، فرح وانبسط ، وإذا ذكر اللغو واللعب اشمأز وانقبض ، والعابد أو الزاهد إذا سمع ما يدل على الطاعة والاستعداد للآخرة فرح ونشط ،

---

(١) فى النّسفى : الربيع بن المسيب.
(٢) انظر : تفسير النّسفى (٢/ ١٨٥).

وإذا سمع ما يدلّ على الدنيا والبطالة اشمأز وانقبض ، والمريد السائر ، إذا سمع ما يقرب إلى اللّه فرح وانبسط ، وإذا سمع ما يبعد عنه من ذكره السّوى اشمأز وانقبض ، وأما الواصل الكامل فلا ينقبض من شىء لزيادته إلى اللّه بكلّ شىء لأنه عرف اللّه فى كلّ شىء ، وسمع منه فى كلّ شىء ، فلا يحجبه عن اللّه شىء ، قد فنيت دائرة حسه ، واتسعت دائرة معرفته ، يأخذ النّصيب من كلّ شىء ، ولا يأخذ النّصيب منه شىء.
قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه : فى بعض كتب اللّه المنزلة على أنبيائه ، يقول اللّه

تعالى : من أطاعنى فى كلّ شىء ، بهجرانه لكل شىء ، أطعته فى كلّ شىء ، بأن أتجلى له دون كلّ شىء ، حتى يرانى أقرب إليه من كل شىء. هذه طريق أولى ، وهى طريق السالكين. وطريق أخرى كبرى : من أطاعنى فى كلّ شىء ، بإقباله على كل شىء ، لحسن إرادة مولاه فى كلّ شىء ، أطعته فى كلّ شىء ، بأن أتجلى له فى كلّ شىء ، حتى يرانى كأنى كل شىء. هـ.

ثم ذكر وبال الشرك ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٤٧ الى ٤٨]

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٤٨)

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا بالشرك ، ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً : من الأموال والذخائر ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ زائد عليه ، لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ أي : شدته ، يَوْمَ الْقِيامَةِ أي : لو أن لهم جميع ما فى الدنيا لجعلوا ذلك فدية لأنفسهم من العذاب الشديد ، وهيهات هيهات ، ولات حين مناص. وهذا كما ترى وعيد شديد لأهل الشرك ، وإقناط كلى لهم. وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ أي : ظهر لهم من فنون العقوبات ما لم يكن فى ظنهم وحسبانهم ، ولم يحدّثوا به نفوسهم. وهذا غاية من الوعيد ، لا غاية وراءها ، ونظيره فى الوعد : قوله تعالى : فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ «١».

---

(١) من الآية ١٧ من سورة السجدة.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٨٨

وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا أي : ظهر لهم سيئات أعمالهم التي كسبوها. أو : سيئات كسبهم حين تعرض عليهم صحائفهم ، وكانت خافية عليهم ، أو : عقاب ذلك. وَحاقَ بِهِمْ أي : نزل بهم وأحاط ، ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أي : جزاء هزئهم بالإسلام ، ومن جاء به ، ومن تبعه.

الإشارة : الآية تجرّ ذيلها على كلّ ظالم لم يتب ، فيتمنى الفداء بجميع ما فى الأرض ، فلا يمكّن منه. وقوله تعالى : وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ، هذه الآية عامة ، لا يفلت منها إلا الفرد النّادر ، الذي وصل إلى غاية المعرفة العيانية ، ومن لم يصل إلى هذا المقام فهو مقصر ، يظن أنه فى عليين ، وهو فى أسفل سافلين ، ولذلك عظم خوف السلف منها ، فقد جزع محمد بن المنكدر عند الموت ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أخشى آية من كتاب اللّه : وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ فأنا

أخشى أن يبدو لى من اللّه ما لم أحتسب «١». وعن سفيان أنه قرأها ، فقال : ويل لأهل الرّياء ، ويل لأهل الرّياء. هـ.

وفى الإحياء : من اعتقد فى ذات اللّه وصفاته وأفعاله خلاف الحق ، وخلاف ما هو عليه إما برأيه أو معقوله ونظره ، الذي به يجادل ، وعليه يعول ، وبه يغتر ، وإما بالتقليد ، فمن هذا حاله ربما ينكشف له حال الموت بطلان ما اعتقده جهلا ، فيتطرق له أن كلّ ما اعتقده لا أصل له ، فيكون ذلك سببا فى شكه عند خروج روحه ، فيختم له بسوء الخاتمة ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وبقوله : هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا «٢» .. الآية. انظر عبارته فى كتاب الخوف ، وقريبا منه فى القوت ، عصمنا اللّه من سوء القضاء ، وختم لنا بالسعادة التامة بمنّه وكرمه.

ثم ذكر حالة أخرى من قبائح أهل الشرك ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٤٩ الى ٥١]

فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١)

---

(١) انظر تفسير البغوي (٧/ ١٢٤).

(٢) الآية ١٠٣ من سورة الكهف.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٨٩

يقول الحق جل جلاله : فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ أي : جنسه ضُرٌّ : فقر أو غيره دَعانا معرضا عما سوانا. والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، من ذكر حالتى أهل الشرك القبيحتين ، وما بينهما اعتراض مؤكد للإنكار عليهم ، أي : إنهم يشمئزّون عن ذكر اللّه وحده ، ويستبشرون بذكر الآلهة ، فإذا مسهم الضر دعوا من اشمأزوا عن ذكره ، دون من استبشروا بذكره ، فناقضوا فعلهم.

فإن قلت : حق الاعتراض أن يؤكّد المعترض بينه وبينه؟ قلت : ما فى الاعتراض من دعاء الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم ربه ، بأمر من اللّه ، وقوله : أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ ، ثم ما عقّبه من الوعد العظيم ، تأكيد لإنكار اشمئزازهم ، واستبشارهم ، ورجوعهم إلى اللّه فى الشدائد ، دون آلهتهم ، كأنه قيل : قل : يا ربّ لا يحكم بينى وبين هؤلاء ، الذين يجترئون عليك مثل هذه الجراءة ، إلا أنت ، ثم هدهم بقوله : ولو أن لهؤلاء الظلمة ما فى الأرض جميعا لافتدوا به.

انظر النّسفى.

ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا : أعطيناه إياها ، تفضلا فإن التخويل مختص به ، لا يطلق على ما أعطى جزاء ، فإذا أعطيناه ذلك قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ أي : ذلك التخويل أو الإنعام عَلى عِلْمٍ منى بوجوه كسبه ، كما قال قارون : إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي «١» أو : على علم منى بأنى سأعطاه ، لما فىّ من فضل واستحقاق ، أو : على علم من اللّه تعالى باستحقاقى لذلك المال ، فتذكير الضمير إما لعوده على التخويل المأخوذ من خَوَّلْناهُ ، أو : بتأويل النّعمة بمعنى الإنعام ، أو : المراد بشىء من النّعمة ، أو : يعود على «ما» إذا قلنا : موصولة ، لا كافة ، أي : إن الذي أوتيته على علم منى.

قال تعالى : بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ أي : ليس ما خوّلناه نعمة بل هى محنة وابتلاء له ليظهر كفره أو شكره. ولما كان الخبر مؤنثا ساغ تأنيث المبتدأ لأجله ، وقرىء : «بل هو فتنة». وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أنّ الأمر كذلك ، وأنّ التخويل إنما كان فتنة ، وفيه دلالة على أن المراد بالإنسان الجنس.

قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أي : قد قال هذه المقالة ، وهى : إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ من قبلهم ، كقارون وقومه ، قال قارون : إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي «٢» وقومه راضون بمقالته ، فكأنهم قالوها معه.

ويجوز أن يكون فى الأمم الخالية آخرون قائلون مثلها. فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ من متاع الدنيا ، وما جمعوا منها شيئا حين ينزل بهم العذاب ، فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا أي : جزاء سيئات ما كسبوا ، وهو العذاب فى الدنيا والآخرة ، أو : سمّى جزاء السيئة سيئة للازدواج ، كقوله : وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها «٣» أي : فأصابهم وبال

---

(١) من الآية ٧٨ من سورة القصص.

(٢) من الآية ٧٨ من سورة القصص.

(٣) من الآية ٤٠ من سورة الشورى.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٩٠

ما كسبوا ، وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ : المشركين ، يعنى قريشا ، سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا من الكفر والمعاصي ، كما أصاب أولئك. والسين للتأكيد. وقد أصابهم ذلك ، حيث قحطوا سبع سنين ، وقتل صناديدهم يوم بدر. وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ : بفائتين من عذاب اللّه الإشارة : هذه الخصال الذميمة توجد فى كثير من هذه الأمة ، إذا أصابت العبد شدة أو قهرية رجع إلى اللّه ، فإذا فرج عنه بسبب عادى ، كما هو دأب عالم الحكمة ، أسند الفرج إلى ذلك السبب ، فيقول : فلان فرج عنى ، أو الدواء الفلاني

شفانى ، وهو شرك ، كاد أن يكون جليا. والواجب : النظر إلى فعل اللّه وقدرته ، وإسقاط الوسائط من نظره ، ولو وجدت حكمة ، فالكمال فعلها وجودا ، والغيبة عنها شهودا. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر ما جرت به عادته فى خلقه ، من تعاقب العسر واليسر ، والقبض والبسط ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٥٢]

أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أي : أقالوا ذلك ولم يعلموا ، أو : أغفلوا ولم يعلموا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ أي : يوسعه لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ أي : يضيق لمن يشاء بلا سبب ولا علة ، أو : يجعله على قدر القوت من غير زيادة ولا نقصان ، وهو من إتمام النّعمة. وفى الحكم : «من تمام النّعمة عليك أن يعطيك ما يكفيك ، ويمنعك ما يطغيك» «١». إِنَّ فِي ذلِكَ : البسط والقبض لَآياتٍ دالة على أن الحوادث كلها من اللّه بلا واسطة ، لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ، إذ هم المستدلون بها على أن القابض والباسط هو اللّه ، دون غيره.

الإشارة : قد يبسط اللّه الرّزق لمن لا خلاق له عنده ، ويقبضه عن أحب الخلق إليه ، وهو الغالب ، فرزق المتقين كفاف ، ورزق المترفين جزاف.

ولما وبّخ المشركين ، وأطنب الكلام فيه ، وأبرق وأرعد ، رغّب فى التوبة للكافة ، استعطافا وترغيبا بعد الترهيب ، فقال :

---

(١) انظر الحكم ، بتبويب المتقى الهندي/ ص ٣٧ حكمة ٢٢٥.

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٥٣ الى ٥٤]

قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (٥٤)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أي : أفرطوا فى الجناية عليها ، بالإسراف فى المعاصي ، والغلو فيها ، لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ : لا تيأسوا من مغفرته أولا ، وتفضله بالرحمة ثانيا ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، بالعفو عنها ، إلا الشرك. وفى قراءة النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى» «١» لكنها لم تتواتر عنه.

والمغفرة تصدق بعد التعذيب وقبله ، وتقييده بالتوبة خلاف الظاهر ، كيف ، وقوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لا

يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ «٢» ظاهر فى الإطلاق مما عدا الشرك؟ ولما يدل عليه التعليل بقوله :

إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ على المبالغة ، وإفادة الحصر ، والوعد بالرحمة بعد المغفرة. وما فى عِبادِيَ من الدلالة على الذلة والاختصاص ، المقتضيين للترحم. إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ يستر عظام الذنوب الرَّحِيمُ يكشف فظائع الكروب. والآية ، وإن نزلت فى «وحشي» ، قاتل «حمزة» ، أو فى غيره ، لا تقتضى التخصيص بهم ، فإن أسباب النّزول لا تخصص. وعن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية» «٣».

ولما نزلت فى شأن وحشي ، وأسلم ، قال المسلمون : هذه له خاصة ، أو للمسلمين عامة؟ فقال النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «بل هى للمسلمين عامة» «٤». وقال قتادة : إن ناسا أصابوا ذنوبا عظاما ، فلما جاء الإسلام أشفقوا ألا يتاب عليهم ، فدعاهم اللّه تعالى بهذه الآية «٥». وقال ابن عمر : نزلت هذه الآيات فى عياش بن أبى ربيعة ، والوليد بن الوليد ،

---

(١) أخرجها الترمذي فى (التفسير – باب ومن سورة الزمر ، ح ٣٢٣٧) والبغوي فى شرح السنة (١٤/ ٣٨٤) وفى التفسير (٧/ ١٢٦) من حديث أسماء بنت يزيد ، قال الترمذي : حديث حسن غريب.

(٢) الآية ٤٨ ، ١١٦ من سورة النّساء.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٥) وابن جرير (٢٤/ ١٦) والبيهقي فى شعب الإيمان (باب ٤٧ ح ٧١٣٧) من حديث ثوبان رضي اللّه عنه.

(٤) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٦٢٠) للطبرانى ، وابن مردويه ، والبيهقي فى الشعب ، بسند لين. عن ابن عباس رضي اللّه عنه.

(٥) أخرج البخاري فى (التفسير – تفسير سورة الزمر – باب يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ ح ٤٨١٠) عن سعيد جبير ، عن ابن عباس : أن ناسا من أهل الشرك كانوا قتلوا وأكثروا ، وزنوا وأكثروا ، فأتوا النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، وقالوا : إن الذي تدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة. فنزلت هذه الآية. [.....]

ونفر كانوا قد أسلموا ثم فتنوا ، فكنا نقول : لا يقبل اللّه منهم صرفا ولا عدلا ، فنزلت الآية ، وكان

عمر بن الخطاب كاتبا ، فكتبها بيده ، ثم بعث بها إلى عياش بن أبى ربيعة والوليد ، وإلى أولئك النّفر ، فأسلموا ، وهاجروا «١».

قال علىّ رضي اللّه عنه : «ما فى القرآن آية أوسع من هذه الآية.» «٢». فما يقنط النّاس ويشدد عليهم بعد هذه الآية إلا جهول ، أو جامد ، قال زيد بن أسلم : إنّ رجلا كان فى الأمم الماضية مجتهدا فى العبادة ، فيشدد على نفسه ، ويقنط الناس من رحمة اللّه ، فمات ، فقال : أىّ ربّ مالى عندك؟ فقال : النار. فقال : يا رب أين عبادتى؟ فقال : إنك كنت تقنط النّاس من رحمتى فى الدنيا ، فاليوم أقنطك من رحمتى. وعن علىّ - كرم اللّه وجهه - قال : الفقيه كل الفقيه الذي لا يقنط النّاس من رحمة اللّه ، ولا يؤمنهم من عذاب اللّه ، ولا يرخص لهم فى معاصى اللّه. هـ.

ثم حضّ على التوبة لتتحقق المغفرة ، فقال : وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ أي : ارجعوا إليه بالتوبة والإخلاص. فالإنابة أخص من التوبة لأن التوبة : مطلق النّدم على الزلة ، والإنابة : تحقيق التوبة والنّهوض إلى اللّه بإخلاص التوجه. قال صلّى اللّه عليه وسلم : «من السعادة أن يطول عمر الرّجل ويرزقه اللّه الإنابة» «٣». قال القشيري : وقيل الفرق بين الإنابة والتوبة : أن التائب يرجع خوفا من العقوبة ، والمنيب يرجع حياء منه تعالى. هـ.

والأمر بالتوبة لا يدل على تقييد المغفرة فى الآية بها ، كما تقدم إذ ليس المدعى : أن الآية تدل على حصول المغفرة لكل أحد من غير توبة وسبق تعذيب ، حتى يغنى عن الأمر بها ، وإنما المراد : الإخبار بسعة غفرانه ، سواء كان مع التوبة أم لا. قال ابن عرفة : واعلم أن التوبة من الكفر مقطوع بها ، ومن المعاصي ، قيل : مظنونة ، وقيل :

مقطوع بها ، هذا فى الجملة ، وأما فى التعيين ، كتوبة زيد بن عمرو ، فلا خلاف أنها مظنونة. هـ. قلت : قد اقترن بتوبة زيد من الأخبار ما يقطع بصحتها.

ثم قال : وأما العاصي إذا لم يتب فهو فى المشيئة ، مع تغليب جانب الخوف والعقوبة ، واعتقاد أن العذاب أرجح ، وأما العصيان بالقتل ، ففيه خلاف بين أهل السّنة ، فقيل : يخلد فى النّار ، وقيل : فى المشيئة. هـ. وقال أبو الحجاج الضرير - رحمه اللّه :

وتوبة الكافر تمحو إثمه لا خلاف فيه بين الأمّه

وتوبة العاصي على الإرجاء وقيل كالأول بالسواء

إذ لا يكون دونه فى الحال وهو عندى أحسن الأقوال

دليله : تتابع الظواهر شاملة مسلم وكافر. هـ.

---

(١) أخرجه الطبري (٢٤/ ١٥) وانظر : أسباب النّزول للواحدى (ص/ ٣٨٤).

(٢) أخرجه الطبري (٢٤/ ١٦).

(٣) رواه الحاكم (٤/ ٢٤٠) وصحّحه ، ووافقه الذهبي ، من حديث جابر رضي اللّه عنه.

البحر المديد ج ٥ ، ص : ٩٣

وَأَسْلِمُوا لَهُ أي : اخضعوا له ، وانقادوا لأمره. قال القشيري : أي : أخلصوا فى طاعتكم ، والإسلام – الذي هو الإخلاص بعد الإنابة – : هو أن يعلم نجاته بفضله ، لا بإنابته فبفضله يصل إلى إثابته ، لا بإنابته يصل إلى فضله. هـ. مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ فى الدنيا ، أو فى الآخرة ، إن لم تتوبوا قبل نزول العقاب.

قال القشيري : العذاب هنا ، قيل : الفراق ، وقيل : هو أن يفوته وقت الرّجوع بسوء الإياس. هـ. ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ :

لا تمنعون منه أبدا.

الإشارة : لا يعظم عندك الذنب عظمة تصدك عن حسن الظن باللّه ، فإن من استحضر عظمة ربه صغر فى عينه كلّ شيء. وتذكر قضية الرّجل الذي قتل تسعا وتسعين نفسا ، ثم سأل راهبا : هل له توبة؟ فقال : لا ، فكمل به المائة ، ثم سأل عارفا ، فقال له : ومن يحول بينك وبينها؟ لكن اخرج من القرية التي كنت تعصى فيها ، واذهب إلى قوم يعبدون اللّه فى مكان ، فذهب ، فأدركه الموت فى الطريق ، فلما أحس بالموت انحاز بصدره إلى القرية التي قصدها ، ثم مات ، فاختصمت فيه ملائكة العذاب وملائكة الرّحمة ، فقال لهم الحق تعالى «١» : قيسوا من القرية التي خرج منها ، إلى القرية التي قصدها ، فإلى أيهما هو أقرب هو منها؟ فوجدوه أقرب إلى القرية التي قصدها بشبر ، فأخذته ملائكة الرّحمة «٢». إلى غير ذلك من الحكايات التي لا تحصى فى هذا المعنى.

وتأمل قضية الشاب الذي أتى النّبى صلّى اللّه عليه وسلم يبكى ، فقال : ما يبكيك؟ قال : ذنوبى. فقال له عليه السّلام : إن اللّه يغفر ذنوبك ، ولو كانت مثل السماوات السبع ، والأرضين السبع ، والجبال الرّواسى ، فقال : يا رسول اللّه ، ذنب من ذنوبى أعظم من السماوات السبع والأرضين السبع ، فقال له : ذنوبك أعظم أو العرش؟ قال : ذنوبى ، فقال له : ذنوبك أعظم أو الكرسي؟ قال : ذنوبى ، فقال : ذنوبك أعظم أو إلهك؟ فقال : اللّه أعظم ، فقال : فأخبرنى عن ذنبك. قال : إنى أستحيى ، فقال : فأخبرنى ، فقال : إنى كنت نباشا أنبش القبور منذ سبع سنين ، حتى ماتت جارية من بنات الأنصار ، فنبشتها ، وأخرجتها من كفنها ، فمضيت ، ثم غلبنى الشيطان ، فرجعت ، فجامعتها ، فقامت الجارية ، وقالت : الويل لك يا شاب من ديّان يوم الدين ، يوم يضع كرسيه للقضاء ، يأخذ من الظالم للمظلوم ، تركتنى عريانة فى عساكر الموتى ، وأوقفتنى جنبا ين يدى اللّه ، فقام النّبى صلّى اللّه عليه وسلم وهو يضرب فى قفاه ، وهو يقول : يا فاسق ، اخرج ، ما أقربك من النّار ، فخرج الشاب تائبا إلى اللّه تعالى ، حتى أتى عليه ما شاء اللّه ، ثم قال : يا إله محمد وآدم وحواء ، إن كنت

(١) بوحي ، كما تفيده رواية البخاري. وفى رواية مسلم : «فأتاهم ملك فى صورة آدمي فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ..» الحديث.

(٢) أخرج القصة البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب حديث الغار ، ح ٣٤٧٠) ومسلم فى (التوبة ، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ، ٤/ ٢١١٨ ، ح ٢٧٦٦) من حديث أبى سعيد الخدري رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٩٤

غفرت لى فأعلم محمدا وأصحابه ، وإلا فأرسل علىّ نارا من السماء فاحرقنى بها ، ونجنى من عذاب الآخرة ، فجاء جبريل ، فقال : السّلام يقرئك السّلام ، فقال : هو السّلام وإليه يعود السّلام ، قال : يقول : أأنت خلقت خلقى؟ قال :

بل هو الذي خلقهم. قال : يقول : ترزقهم؟ قال : بل هو الذي يرزقهم ، قال : يقول : أأنت تتوب عليهم؟ قال : بل هو الذي يتوب عليهم. قال : فتب على عبدى ، فإنى تبت عليه ، فدعا النّبى صلّى اللّه عليه وسلم الشاب ، وتاب عليه ، وقال : إن اللّه هو التواب الرّحيم. هـ. ذكره السمرقندي والثعلبي «١».

ثم أمر باتباع القرآن بعد الإنابة ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٥٥ الى ٥٩]

وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (٥٩)

يقول الحق جل جلاله : وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ أي : القرآن ، فإنه أحسن الحديث ، ولا أحسن منه لفظا ومعنى ، أو : المأمور به دون المنهي ، أو : العزائم دون الرّخص ، كقوله : الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ «٢» ، أو : الناسخ دون المنسوخ ، ولعله ما هو أعم ، فيصدق بكلّ ما يقرب إلى اللّه ، كالإنابة ، والطاعة ، ونحوهما ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً : فجأة ، وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ بمجيئه لتداركوا وتتأهبوا.

أمرتكم بذلك كراهة أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ ، والتنكير للتكثير ، كما فى قوله : عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ «٣» ،

أو :

يراد به بعض الأنفس ، وهى نفس الكافر ، أو : يراد نفس متميزة إما بلجاج فى الكفر شديد أو بعقال عظيم :

---

(١) غفر اللّه لشيخنا ابن عجيبة ، لقد كان فى غنى عن ذكر هذه الرّواية الغريبة.

(٢) من الآية ١٨ من سورة الزمر.

(٣) من الآية ١٤ من سورة التكوير.

يا حَسْرَتى ، بألف بدل من ياء الإضافة لأن العرب تقلب ياء المتكلم ألفا فى الاستغاثة ، فيقولون : يا ويلتا ، يا ندامتا ، فيخرجون ذلك على لفظ الدعاء ، وربما ألحقوا بها الهاء ، فيقال : يا رباه ، يا مولاه ، وربما ألحقوا ياء المتكلم ، جمعا بين العوض والمعوض ، وبذلك قرأ أبو جعفر : «يا حسرتاى» أي : يا ندامتاه ويا حزناه. عَلى ما فَرَّطْتُ قصّرت. و«ما» : مصدرية ، أي : على تقصيرى وتفريطى فِي جَنْبِ اللَّهِ أي : جانبه وحقه وطاعته ، أو : فى ذاته ، أي : معرفة ذاته ، أو فى قربه ، من قوله : وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ «١» ، أو : فى سبيل اللّه ودينه ، والعرب تسمى السبب الموصل إلى الشيء جنبا ، تقول : تجرعت فى جنبك غصصا ، أي : لأجلك ، أو : فى الجانب الذي يؤدى إلى رضوانه ، وهو توحيده والإقرار بنبوة نبيه محمد صلّى اللّه عليه وسلم. وقرىء «فى ذكر اللّه». وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أي : المستهزئين بدين اللّه. قال قتادة : لم يكفه أن ضيّع طاعة اللّه حتى سخر بأهلها. و«إن» : مخففة ، والجملة : حالية ، أي : فرطت وأنا ساخر.

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي : أعطانى الهداية ، لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ : من الذين يتقون الشرك. قال الإمام [أبو منصور] «٢» : هذا الكافر أعرف بهداية اللّه من المعتزلة. وكذلك أولئك الكفرة ، الذين قالوا لأتباعهم :

لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ «٣» يقولون : لو وفقنا اللّه للهداية ، وأعطانا الهدى لدعوناكم إليه ، ولكن علم منا اختيار الضلالة والغواية فخذلنا ولم يوفقنا. والمعتزلة يقولون : بل هداهم وأعطاهم التوفيق لكنهم لهم يهتدوا. انظر النسفي.

أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً أي : رجعة للدنيا ، فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ : الموحّدين الطائعين. و«أو» : للدلالة على أنها لا تخلو من هذه الأقوال ، تحيّرا وتحسرا ، وتعليلا بما لا طائل

تحته.

فردّ اللّه عليهم بقوله : بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ أي : قد جاءتك آياتي ، وبيّنت لك الهداية من الغواية ، وسبيل الحق من الباطل ، فتركت ذلك ، وضيعت ، واستكبرت عن قبوله ، وآثرت الضلالة على الهدى ، واشتغلت بضد ما أمرت به ، وإنما جاء التضييع من قبلك ، فلا عذر لك.

و«بلى» : جواب لنفى مقدر ، وهو نتيجة القياس الاستثنائى ، أي : لو أن اللّه هدانى لا هتديت وكنت متقيا ، لكنه لم يهدنى ، وإنما أخّره لأنه لا بد من حكاية أقوال النّفس على ترتيبها ، ثم يذكر الجواب فى الجملة. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٣٦ من سورة النّساء.

(٢) فى الأصول [ابن منصور] والمثبت هو الذي فى النّسفى.

(٣) كما جاء فى الآية ٢١ من سورة إبراهيم.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٩٦

الإشارة : واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم ، أي : خذوا فى الجد والاجتهاد فى اتباع الأحسن والأرجح ، فى الأفعال ، والأقوال ، والعقائد ، من قبل أن ينزل بكم العذاب. ولا عذاب أشد من الحجاب ، والتخلف عن مقامات الأحباب ، فى وقت لا ينفع التأسف ولا التحسر. قال القشيري : هذا فى أقوام يرون أمثالهم وأشكالهم ، تقدّموا عليهم فى أحوالهم ، فشكوا ما سلف من تقصيرهم ، ويرون ما وفّق أولئك إليه من أعالى الرّتب ، فيعضون بنواجذ الحسرة على أنامل الخيبة. هـ. وفى ذلك قيل وأنشد :

السّباق السّباق قولا وفعلا حذر النّفس حسرة المسبوق

وهو معنى قوله : أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ كانت مقصّرة فى الدنيا : يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ أي : فى السير إلى معرفة ذاته ، وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ممن يتعاطى ذلك ، ويخرب ظاهره لتعمير باطنه ، فكنت أسخر منه وأضحك عليه ، أو تحتج بالقدر ، فتقول : لو أن اللّه هدانى لسلوك طريقه لكنت من المتقين الكاملين فى التقوى.

ولا ينفع الاحتجاج بالقدر فى دار التكليف مع بيان الطريق. أو تقول حين ترى العذاب ، وهو فراق الأحباب والتخلف عنهم : لو أن لى كرة إلى الدنيا ، فأجهد نفسى حتى أكون من أهل الإحسان ، الذين يعبدون اللّه على العيان ، بلى قد جاءتك آياتي ، وهم الدعاة إلىّ فى كلّ زمان ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ

أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها ، فكذّبت بها ، واستكبرت عن الخضوع لهم ، وكنت من الجاحدين لطريق التربية.

ثم ذكر مآل أهل التكذيب والصدق ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٦٠ الى ٦١]

وَيَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١)

يقول الحق جل جلاله : وَيَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ ، بأن وصفوه بما لا يليق بشأنه ، كاتخاذ الولد والشريك ونفى الصفات عنه ، وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ بما ينالهم من الشدة والكآبة. والجملة : حال ، على أن الرّؤية بصرية ، أو : مفعول ثان لها ، إن كانت علمية. أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً أي : مقام لِلْمُتَكَبِّرِينَ عن الإيمان والطاعة ، وهو إشارة إلى قوله : وَاسْتَكْبَرْتَ ، ولا ينافى إشعاره بأن تكبرهم علة لاستحقاقهم النّار أن يكون دخولهم فيها لأجل أن كلمة العذاب حقّت عليهم لأن كبرهم مسبب عنها.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٩٧

وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا الشرك والمعاصي ، أي : من جهنم. بِمَفازَتِهِمْ : بفوزهم ، مصدر ميمى ، يقال : فاز بالمطلوب : ظفر به ، والباء متعلقة بمحذوف ، حال من الموصول ، مفيدة لمقارنة نجاتهم من العذاب بنيل الثواب ، أي : ينجيهم اللّه من مثوى المتكبرين ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم ، أو : بسبب فوزهم بالإيمان والأعمال الحسنة فى الدنيا ، ولذا قرأ ابن عباس رضي اللّه عنه : «بمفازتهم بالأعمال الحسنة». قال القشيري : كما وقاهم اليوم من المخالفات ، وحماهم ، فكذلك غدا عن العقوبة وقاهم ، فالمتقون فازوا بسعادة الدارين ، اليوم عصمة ، وغدا نعمة ، واليوم عناية ، وغدا كفاية. هـ.

لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ : إما حال أخرى من الموصول ، أو : من مفازتهم وقيل : تفسير للمفازة ، كأنه قيل : وما مفازتهم؟ فقيل : لا يمسهم السوء ، أي : ينجيهم بنفي السوء والحزن عنهم ، فلا يمس أبدانهم سوء ، ولا قلوبهم حزن.

الإشارة : ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على اللّه ، بالدعاوى الباطلة ، من القلوب الخاوية ، ف كل من ادعى حالا ليست فيه ، أو : مرتبة لم يتحققها ، فالآية تجر ذيلها عليه ، واسوداد وجوهم بافتضاحهم. قال القشيري : هؤلاء الذين ادّعوا أحوالا ، ولم يصدقوا فيها ، وأظهروا المحبة للّه ، ولم يتحققوا بها ، وكفى بهم ذلك افتضاحا ، وأنشدوا :

ولما ادّعيت الحبّ قالت : كذبتنى فما لى أرى الأعضاء منك كواسيا؟

فما الحبّ حتى تنزف العين بالبكا وتخرس حتى لا تجيب المناديا «١».

وينجى اللّه الذين اتقوا شهود السّوى من كل مكروه ، بسبب مفازتهم بمعرفة اللّه فى الدنيا ، لا يمسهم السوء ، أي : غم الحجاب ، لرفعه عنهم على الدوام ، ولا هم يحزنون على فوات شيء إذ لم يفتهم شيء حيث فازوا باللّه ، «ما ذا فقد من وجدك»؟ «٢».

---

(١) انظر : ديوان قيس بن الملوح (مجنون ليلى) ص ٢١٣. وقال فى اللمع (٣٢١) : كان أبو الحسن سرىّ السّقّطى – رحمه اللّه – كثيرا. ينشد هذه الأبيات :

ولما ادعيت الحب قالت : كذبتنى فما لى أرى الأعضاء منك كواسيا

فما الحب حتى يلصق الجلد بالحشا وتذبل حتى لا تجيب المناديا

وتنحل حتى لا يبقى لك الهوى سوى مقلة تبكى بها أو تناجيا

(٢) جزء من مناجاة الشيخ أحمد بن عطاء اللّه السكندرى : انظر الحكم بتويب المتقى الهندي ص/ ٤٢.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٩٨

قال الورتجبي : بمفازتهم : ما كان لهم فى اللّه فى أزل أزله ، من محبتهم ، وقبولهم بمعرفته ، وحسن وصاله ، ودوام شهود كماله. لا يمسهم السوء : لا يلحقهم ، فلا يلحق بهم فى منازل الامتحان ، تفرقة عن مقام الوصلة ، وحجاب عن جمال المشاهدة ، انظر تمامه. وحاصلة : فازوا بإدراك السعادة الأزلية.

وعن جعفر الصادق : بمفازتهم :

بسعادتهم القديمة ، يعنى لقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى «١» ... الآية. قاله المحشى الفاسى.

ثم برهن على البعث الموعود به قبل ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٦٢ الى ٦٦]

اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦)

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ : جامد أوحى ، خير أو شر ، إيمان أو كفر ، لا بالجبر ،

بل بمباشرة الكاسب فى عالم الحكمة ، وفيه إثبات القدرة والعلم ، وهما مصححان للبعث والجزاء بالخير والشر ، لمحسن أو مسيء. قال القشيري : ويدخل تحت قوله : كُلِّ شَيْءٍ كسب العباد ، ولا يدخل كلامه لأن المخاطب لا يدخل تحت خطابه ولا صفاته. هـ. والمراد بالكلام : المعاني القديمة ، وأما الألفاظ والحروف فهى مخلوقة ، كما هو مقرر فى محله. وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ أي : حافظ يتولى التصرف فيه كيف يشاء.

لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : مفاتح خزائنها ، واحدها «مقليد» ، أو : إقليد «٢» ، أو : لا واحد لها ، وأصلها فارسية ، والمراد : أنه مالكها وحافظها ، وهو من باب الكناية لأن حافظ الخزائن ومدبّر أمرها هو الذي يملك مقاليدها ، ومنه قولهم : فلان ألقيت إليه مقاليد الملك ، أي : مفاتح التصرف قد سلّمت إليه ، وفيه مزيد دلالة على الاستقلال والاستبداد لأن الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتحها.

---

(١) الآية ١٠١ من سورة الأنبياء. [.....]

(٢) انظر لسان العرب (٥/ ٣٧١٨ ، مادة قلد).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٩٩

وعن عثمان : أنه سأل النّبى صلّى اللّه عليه وسلم عن المقاليد ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم : «هى لا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، وسبحان اللّه وبحمده ، أستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، بيده الخير ، يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير» «١».

ومعناه : أن للّه هذه الكلمات ، يوحّد بها ويمجّد ، وهى مفاتح خير السماوات والأرض ، ومن تكلّم بها أدرك ذلك فى الدنيا أو فى الآخرة ، ومرجعها إلى التحقق بالعبودية فى الظاهر ، ومعرفة الذات فى الباطن ، وهما السبب فى كل خير ، وبهما يدرك العبد التصرف فى الوجود بأسره ، فتأمله.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ أي : كفروا به بعد كونه خالق كل شيء ، ومتصرفا فى ملكه كيف يشاء ، بيده مقاليد العالم العلوي والسفلى ، فكفروا بعد هذا بآياته التكوينية ، المنصوبة فى الآفاق وفى الأنفس ، والتنزيلية ، التي من جملتها هذه الآيات النّاطقة بذلك ، أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ خسرانا لا خسر وراءه ، وقيل : هو متصل بقوله :

وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وما بينهما اعتراض.

قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ به ، وكانوا يقولون له : أسلم لبعض آلهتنا نؤمن بإلهك لفرط

جهالتهم. وغير : منصوب ب «أعبد» ، وتَأْمُرُونِّي : اعتراض ، أي : أتأمروني أعبد غير اللّه بعد هذا البيان التام؟

وحذف نون الوقاية وإثباتها مدغمة وغير مدغمة ، كل قرىء به.

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ : من الأنبياء – عليهم السّلام : لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ ، كلام وارد على طريق الفرض ، لتهييج الرّسل ، وإقناط الكفرة ، والإيذان بغاية بشاعة الإشراك وقبحه ، وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يمكن أن يباشره بمن عداه أو : الخطاب له ، والمراد غيره.

وإفراد الخطاب مع كون الموحى إليهم جماعة ، باعتبار خطاب كل واحد فى عصره ، واللام موطئة لقسم محذوف ، والثانية لام الجواب ، وهو سادّ مسدّ جواب الشرط ، وإطلاق الإحباط لاحتمال أن يكون من خصائصهم لأن الإشراك منهم أشد ، وأن يكون مقيدا بالموت ، كما صرح به فى آية البقرة «٢» ، وهو مذهب الشافعي ، وذهب مالك إلى أن الشرك يحبط العمل قبل الرّدة ، مات عليها ، أو رجع إلى الإسلام ، فينتقض وضوؤه وصومه. وما قاله الشافعي أظهر.

---

(١) أخرجه البيهقي فى الأسماء والصفات (باب ذكر الأسماء التي تتبع إثبات الباري ص ١٣) وابن السنى فى عمل اليوم والليلة (ح ٧٢) والعقيلي فى الضعفاء (ترجمة مخلد أبى هذيل ٤/ ٢٣١) من حديث ابن عمر. وعزاه المناوى فى الفتح السماوي لأبى يعلى فى مسنده. وذكره ابن الجوزي فى الموضوعات (١/ ١٤٤) وقال : «هذا حديث لا يصح». وانظر الفتح السماوي (٣/ ٩٦٨ – ٩٧٠) مع حاشية المحقق.

(٢) فى قوله تعالى : ... وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ .. الآية ٢١٧.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٠٠

بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ ، رد لما أمروه به من عبادة آلهتهم ، كأنه قال : لا تعبد ما أمروك بعبادته بل إذا عبدت فاعبد اللّه ، فحذف الشرط ، وأقيم تقديم المفعول مقامه. وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ على ما أنعم به عليك حيث جعلك رأس الموحدين وسيد المرسلين.

الإشارة : اللّه مظهر كل شىء حيث تجلى بها ، وهو قائم بكلّ شىء. له مفاتيح غيوب السماوات والأرض ، لا يطلع عليها إلا من خضع لأوليائه ، الذين هم آيات من آياته. والذين كفروا بآيات اللّه ،

الدالة على اللّه ، وهم أولياء اللّه ، أولئك هم الخاسرون ، فلا خسران أعظم من خيبة الوصول إذ لا يخلو المفروق عن اللّه من الشرك الخفي ، فإذا أمر المريد بإظهار شيء من سره ، أو مداهنة غيره ، قال : أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ. وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ بأن طالعت غيرى فى سرك ، أو تشوقت أن يعلم النّاس بخصوصيتك لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ ، بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ واكتف به ، واقنع بعلمه ، واغتن بشهوده ، وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ على ما أولاك من سر خصوصيته.

ثم ردّ على أهل الشرك ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٦٧]

وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)

يقول الحق جل جلاله : وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ أي : ما عظّموه حق تعظيمه حيث جعلوا له شريكا ، أو وصفوه بما لا يليق بشئونه الجليلة ، أو : حيث دعوك إلى عبادة غيره تعالى ، أو : ما عرفوه حق معرفته ، حيث لم يؤمنوا بقدرة اللّه تعالى. قال ابن عباس : فمن آمن أن اللّه على كل شيء قدير ، فقد قدر اللّه حق قدره.

يقال : قدرت الشيء : إذا حزرته لتعرف مبلغه ، والقدر : المقدار. والضمير ، إما لقريش ، المحدث عنهم ، وقيل : لليهود ، حيث تكلموا فى صفات اللّه تعالى ، فألحدوا وجسّموا.

ثم بيّن لهم شيئا من عظمته تعالى ، فقال : وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ : ف «جميعا» : حال من الأرض لأنه بمعنى الأرضين ، أي : والأرضون جميعا مقبوضة له بقدرته يوم القيامة. وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ أي : بقدرته. والقبضة : المرة من القبض ، والقبضة : المقدار المقبوض بالكف ، والمراد من الكلام : تصوير عظمته تعالى ، والتوقيف على كنه جلاله ، وأن تخريب هذا العالم هو عليه شيء هين ، على طريقة التمثيل والتخييل ، من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ، ولا مجازا ، هكذا قال جمهور المفسرين.

(١٠٠/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٠١

قلت : لا يبعد أن تحمل الآية على ظاهرها ، فإن اللّه تعالى يبدل الأرض ويجمعها بأجمعها ، فتكون كخبزة النقي ، ويطوى السماء كطى الكتاب ، حتى يبرز العرش ، كما فى الحديث ، ففى حديث البخاري ، عن أبى سعيد الخدري ، قال النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «تكون الأرض يوم القيامة خبزة

واحدة ، يتكفؤها الجبار بيده ، كما يتكفؤ أحدكم خبزته فى السفر ، نزلا لأهل الجنة» «١». وفى حديث أبى هريرة : «إن اللّه يقبض الأرض ، ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض» «٢» وقال ابن عمر رأيت النّبى صلّى اللّه عليه وسلم قائما على المنبر ، وهو يحكى عن ربه تعالى ، فقال : «إن اللّه تعالى إذا كان يوم القيامة ، جمع السماوات والأرضين السبع فى قبضته ، ثم قال هكذا ، وشد قبضته ، ثم بسطها ، ثم يقول : أنا اللّه ، أنا الرحمن ..» الحديث. وفى لفظ آخر : «يطوى اللّه السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون أين المتكبرون؟» «٣». وقال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : «كل ذلك فى يمينه ، وليس فى يده الأخرى شىء ، وإنما يستعين بشماله المشغول بيمينه ، وما السماوات السبع ، والأرضون السبع ، فى يد اللّه تعالى ، إلا كخردلة فى يد أحدكم ، ولهذا قال : مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ : يعنى السماوات والأرضين كلها بيمينه» «٤» قلت : من كحل عين بصيرته بإثمد التوحيد الخاص ، لا تصعب عليه هذه الأمور إذ تجليات الحق لا تنحصر ، فيمكن أن يتجلى من نور جبروته بنور يشاكل الآدمي فى الأعضاء كلها ، فيكون له ذات لها يدان وقدمان ، وبه ورد أن اللّه يضع قدمه على النّار ، فتقول : قط قط ، ويكشف عن ساقه لأهل الموقف ، ويتقدمهم للجنة ، إلى غير ذلك مما ورد فى الحديث. ولا يلزم من ذلك حصر ولا تجسيم ، إنما هى تجليات للذات الكلية المطلقة ، ولا يفهم هذا إلا أهل الفناء والبقاء من العارفين ، فسلم تسلم.

سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ أي : تنزيها عظيما لمن هذه قدرته وشأنه عما يضاف إليه من الشركاء ، أي : ما أبعد من هذا شأنه عن إشراكهم!

---

(١) أخرجه البخاري فى (الرقاق ، باب يقبض اللّه الأرض يوم القيامة ، ح ٦٥١٩) ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم ، باب فى نزل أهل الجنة ، ٤/ ٢١٥١ ، ح ٢٧٩٢).

وقوله صلّى اللّه عليه وسلم (يتكفؤها بيده) أي : يميلها من يد إلى يد حتى تجتمع وتستوى لأنها ليست منبسطة كالرقاقة ونحوها. ومعنى هذا الحديث : أن اللّه يجعل الأرض كالرغيف العظيم.

(٢) أخرجه البخاري فى (تفسير سورة الزمر ، باب وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ٥/ ٥٥١) ومسلم فى (صفات المنافقين ، باب صفة القيامة والجنة والنّار ، ٤/ ٢١٤٨ ، ح ٢٧٨٧).

(٣) أخرجه بنحوه مسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : صفة القيامة والجنة والنّار ، ٤/ ٢١٤٨ ، ح ٢٧٨٨) من حديث سيدنا عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنه.

(٤) ذكره السيوطي فى الدر (٥/ ٦٢٩) مختصرا ، وعزاه لعبد بن حميد ، وابن أبى حاتم ، وأبى الشيخ.

الإشارة : ما عرف اللّه حق معرفته من أثبت الكائنات معه ، وهى ممحوة بأحدية ذاته ، لا وجود لها معه على التحقيق ، فالأرض قبضة أسرار ذاته ، والسماوات محيطات أفلاك أنواره ، وبحر الذات مطبق على الجميع ، ماح للكل ، وأنشدوا :

فالكل دون اللّه إن حقيقته عدم على التفصيل والإجمال
واعلم بأنك والعوالم كلّها لولاه فى محو وفى اضمحلال
من لا وجود لذاته من ذاته فوجوده لولاه عين محال

وقال آخر :

من أبصر الخلق كالسّراب فقد ترّقى عن الحجاب
إلى وجود تراه رتقا بلا ابتعاد ولا اقتراب

ثم تمم أحوال القيامة ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٦٨ الى ٧٠]

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَوُضِعَ الْكِتابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ (٧٠)

يقول الحق جل جلاله : وَنُفِخَ فِي الصُّورِ النفخة الأولى فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ أي : خرّ ميتا ، أو مغشيا عليه ، إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ قيل : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، ثم يميتهم اللّه بعد ذلك ، وقيل : حملة العرش ، وقيل : خزنة النّار والجنة «١».

ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى هى النّفخة الثانية. و«أخرى» : فى محل الرّفع صفة لمحذوف ، أي : نفخ نفخة أخرى ، فَإِذا هُمْ قِيامٌ من قبورهم ، حال كونهم إذا فاجأهم خطب يَنْظُرُونَ يقلبون أبصارهم فى الجوانب

---

(١) راجع تفسير الآية ٨٧ من سورة النّمل.

الأربعة ، كالمبهوتين ، أو : ينظرون ما يفعل بهم ، ودلت الآية على أن النّفخة اثنتان للموت ، والبعث ، وقيل : ثلاث للفزع ، والموت ، والبعث.

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ أضاءت بِنُورِ رَبِّها حين يتجلى لفصل عباده ، فتشرق الأرض – أي : عرصات القيامة – بنور وجهه ، ويقال : إن اللّه يخلق فى القيامة نورا يلبسه وجه الأرض ، فتشرق به. قال فى الحاشية الفاسية : وهذا القول هو الذي اختاره محيى السنة ، وانتصر له الطيبي ، بما ورد من الأحاديث المقتضية لرؤيته فى عرصات القيامة ، قال : وما تعسف الزمخشري ، من حمل النّور على العدل ، إلا فرارا من ذلك. هـ. قال القشيري :

هو نور يخلقه فى القيامة ، عند تكوير الشمس ، وانكدار النّجوم ، ويستضيىء به قوم دون قوم ، والكفار يبقون فى الظلمة ، والمؤمنون : يَسْعى نُورُهُمْ ... الآية «١». ويقال : غدا إشراق الأرض ، واليوم إشراق القلب ، غدا أنوار التولي ، واليوم أنوار التجلي. هـ.

وقال السدى : بعدله ، على الاستعارة ، يقال للملك العادل : أشرقت الأرض بعدله ، كما استعيرت الظلمة للظلم.

وفى الحديث : «الظلم ظلمات يوم القيامة» «٢».

وَوُضِعَ الْكِتابُ أي : صحائف الأعمال. اكتفى باسم الجنس ، أو : كتاب المحاسبة والجزاء. وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ ليسألهم ربهم عما أجابتهم به أممهم ، وَالشُّهَداءِ أي : الحفظة ، ليشهدوا على كل إنسان بما عمل ، والذين يشهدون للرسل بتبليغ الرّسالة إذا جحدتهم أممهم ، أو : الذين استشهدوا فى سبيل اللّه. وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ :

بين العباد بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ بنقص ثواب ، أو زيادة عقاب. قال ابن عطية : الضمير فى بَيْنَهُمْ عائد على العالم بأجمعه. هـ. فيقتضى دخول الملائكة ، ويتصور القضاء فى حقهم ، من حيث جعلوا حفظة على العباد ، وأمناء على الوحى والتبليغ ، وغير ذلك من ترتيبهم فى مقاماتهم ، وترقيهم فى علومهم ، وتفاوتهم فى ذلك. وفى وجوه تخصيصاتهم وتصديقهم فى التبليغ ، ورد ما استندوا فيه لظواهر الأمور ، مع علمه تعالى خلافه ، مما لا اطلاع لهم عليه. قاله فى الحاشية.

وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ جزاء ما عَمِلَتْ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ فلا يفوته شيء من أفعالهم. ومضمون الآية : تصوير التعرض للقضاء بين العباد على ما هو شأن الملك ، من إحضار الشهود وخواص حضرته ، حين يبرز لذلك ، ويشهده الظالم والمظلوم ، وإن كان كنه معرفته موكولا إليه ، ثم من لوازم ذلك العدل. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآية ١٢ من سورة الحديد.

(٢) أخرجه البخاري فى (المظالم ، باب الظلم ظلمات يوم القيامة ح ٢٤٤٧) ومسلم فى (البر ، باب تحريم الظلم ، ٤/ ١٩٩٦ ، ح ٢٥٧٩) من حديث سيدنا عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٠٤

الإشارة : فى الآية إشارة للفناء والبقاء ، فيصعق العبد عن رؤية وجوده ، ثم يبقى بربه ، فتشرق أرض البشرية بنور وجود الحق ، ثم يشرق العالم كله. قال الورتجبي : نفخة الصعق قهرية جلالية ، ونفخة البعث ظهور أنوار جماله فى أنوار جلاله ، وبذلك ينتظر وقوع نور الكشف بقوله : وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها فيتجلى للخواص ، ثم تستضىء بأنوارهم أرض المحشر ، للعموم والخصوص ، تعالت صفاته عن أن تقع على الأماكن ، أو أن يكون محلا للحدثان ، يا عاقل ، لا تكون ذرة من العرش إلى الثرى إلا وهى مستغرقة فى أنوار إشراق آزاله وآباده. ثم قال عن بعضهم : (إلا من شاء اللّه) هم أهل التمكين ، مكّن اللّه أسرارهم من تحمل الواردات.

ثم ذكر نتيجة الفصل بين العباد ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٧١ الى ٧٢]

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا بَلى وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢)

يقول الحق جل جلاله : وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً أي : تسوقهم الزبانية بالعنف والإهانة ، كما تساق الأسارى والخارجين على السلطان ، إذا سيقوا للقتل أو السجن ، فتسوقهم الزبانية إلى جهنم أفواجا متفرقة ، بعضها إثر بعض ، حسب ترتب طبقاتهم فى الضلالة والشرارة ، والزمر : جمع زمرة ، أي : الجماعة ، واشتقاقها من الزمر ، أي : الصوت. والجماعة لا تخلو عنه.

حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها ليدخلوها ، وهى سبعة «١» ، وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها تقريعا وتوبيخا : أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ من جنسكم. وقرىء : «نذر منكم» ، يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا أي : وقتكم هذا ، وهو وقت دخولهم النّار. وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع ، من حيث إنهم عللوا توبيخهم بإتيان الرّسل وتبليغ الكتب. قالُوا بَلى قد أتونا وأنذرونا ، وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ أي : ولكن وجبت علينا كلمة اللّه : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ «٢» بسوء أعمالنا حيث كذّبنا ، وقلنا : ما نزّل اللّه

---

(١) كما ذكر فى سورة الحجر ، فى قوله تعالى : لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ الآية ٤٤.

(٢) من الآية ١١٩ من سورة هود.

من شيء ، إن أنتم إلا تكذبون. قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أي : مقدرين الخلود ، فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ، اللام للجنس ، والمخصوص محذوف ، أي : بئس مثوى المتكبرين جهنم ، وتكبرهم مسبب عن استحقاق كلمة العذاب عليهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كل من تكبّر عن أولياء زمانه – أهل التربية – حتى مات محجوبا عن شهود الحق ، يلحقه التوبيخ بلسان الحال ، فيقال له : ألم يأتكم رسل من أولياء زمانكم ، يعرفون بنا فى كلّ زمان؟ فيقولون : بلى ، ولكن حقت علينا كلمة الحجاب ، فيخلدون فى القطيعة والحجاب ، إلا فى وقت مخصوص. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر أهل الخير ، فقال :

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٧٣ الى ٧٥]

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ (٧٣) وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٧٥)

يقول الحق جل جلاله : وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ مساق إعزاز وتشريف ، بلا إسراع ولا تكليف ، إلى دار الكرامة والتعريف. قيل : يساقون راكبين مبجّلين ، كما يجيء الوافدون إلى دار الملوك ، يساقون إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً جماعة متفاوتين ، بحسب تفاوت مراتبهم فى الفضل ، وعلو الطبقة ، حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها الثمانية. وقرئ بالتخفيف والتشديد «١». وجواب «إذا» محذوف للإيذان بأن لهم من فنون الكرامة ما لا تحيط به العبارة ، كأنه قيل : حتى إذا جاءوها ، وقد فتحت أبوابها ، كان من الأمر والخبر ما يقصر عنه البيان.

وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ظفرتم ، وتقدستم فى دار التقديس من كل دنس ، وطبتم نفسا ، بما أتيح لكم من النّعيم والأمن ، فَادْخُلُوها خالِدِينَ ، وحذف الواو فى وصف أهل النّار لأن أبواب جهنم لا تفتح

---

(١) قرأ عاصم وحمزة الكسائي (فتحت) ، بتخفيف التاء ، وقرأ الباقون بالتشديد ، على التكثير. انظر الإتحاف (٢/ ٤٣٢).

لهم حتى يصلوا إليها ، وفى وقوفهم قبل فتحها مذلة لهم ، كما هى حال السجون ، بخلاف أهل الجنة ، فإنهم يجدونها مفتوحة ، قال تعالى : مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ «١» ، كما هى حال منازل الأفراح والسرور.

وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ أي : أنجزنا ما وعدنا فى الدنيا من نعيم العقبى. وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ أرض الجنة ، أي : المكان الذي استقروا فيه ، وقد أورثوها وملكوها. وأطلق تصرفهم فيها كما يشاؤون [تشبيها] «٢» بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه ، واتساعه فيها ، نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ أي : يتخذ كل واحد منا جنة لا توصف ، سعة وزيادة على الحاجة ، فيتبوأ أىّ مكان أراده من جنته الواسعة ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ فى الدنيا الجنة.

وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حال كونهم حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ أي : محدقين به. و«من» لابتداء الغاية ، أي : ابتداء حفوفهم من حول العرش إلى حيث شاء اللّه ، أو : زائدة ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ أي : يقولون سبحان اللّه ، والحمد للّه ، سبوح قدوس ، رب الملائكة والرّوح. أو : ينزهونه تعالى عما لا يليق به ، ملتبسين بحمده. والمعنى :

ذاكرين اللّه تعالى بوصفى جلاله وإكرامه ، تلذذا ، وفيه إشعار بأن أقصى درجات العليين فى لذائذهم هو الاستغراق فى شهوده عز وجل.

وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ يقوله أهل الجنة شكرا للّه حين دخلوها ، وتم وعد اللّه لهم : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ كما قال : وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ «٣».

الإشارة : وسيق الذين اتقوا ربهم حق تقاته إلى جنة المعارف ، زمرا ، متفاوتين فى السير ، على قدر تفاوتهم فى القريحة ، والاعتناء ، والتفرغ من الشواغل والعلائق. حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ، بذهاب حجاب الكائنات ، حتى بقي المكوّن وحده ، كما كان وحده ، وجدوا من الأسرار والأنوار مالا يدخل تحت دوائر العبارة ، ولا تحيط به الإشارة. وقال لهم خزنتها ، وهم شيوخ التربية ، العارفون اللّه : سلام عليكم طبتم ، أي : تقدستم من العيوب والأكدار ، فادخلوها خالدين لأن من وصل لا يرجع أبدا ، وما رجع من رجع إلا من الطريق. وقالوا : الحمد للّه الذي صدقنا وعده ، بأن أنجز لنا ما وعدنا من الوصول ، على ألسنة المشايخ. قال فى الحكم : «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه».

---

(١) من الآية ٥٠ من سورة ص. [.....]

(٢) ما بين المعقوفتين ، ليس فى الأصول ، وأثبته لاقتضاء السياق له.

(٣) من الآية ١٠ من سورة يونس.

(١٠٦/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٠٧

وأورثنا أرض الوجود بأسره ، نتبوأ من جنة المعارف ، فى أقطار الوجود ، بفكرتنا وهمتنا ، حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين. وترى الملائكة حافين من حول العرش ، أي : قلب العارف لأنه بيت الرّب ، ومحل قرار نوره ، فيحفونه بالحفظ والرّعاية من دخول الأغيار ، وينزهون اللّه عن الحلول والاستقرار. وقضى بينهم بالحق ، فعزلت الشياطين عن قلوب الذاكرين ، وتسلطت على قلوب الغافلين ، والحمد للّه رب العالمين ، حيث لم يظلم أحدا من العالمين.

(١٠٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٠٨

(١٠٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٠٩

سورة غافر

«١» مكية «٢». وآيها : خمس – أو ثمان – وثمانون آية «٣» ، ومناسبتها لما قبلها قوله : غافِرِ الذَّنْبِ ... إلخ ، فإنها فذلكة لما تقدم من أحوال المحشر لأن منهم من غفرت ذنوبه ، وقبلت توبته ، فسيق إلى الجنة ، وتطاولت عليه النّعم ، ومنهم من شددّ عقابه ، وردت عليه محاسنه ، فسيق إلى النّار ، قال تعالى :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (٤)

يقول الحق جل جلاله : حم أي : يا محمد. فاقتصر على بعض الحروف ، سترا عن الوشاة ، كعادة العشاق فى ذكر محبوبهم ، يرموزن إليه ببعض حروفه. وقال ابن عطية : سأل أعرابى النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلم عن «حم» ما هو؟

فقال : «بدء أسماء وفواتح سور» «٤» وفى حديث : «إذا بيّتم فقولوا : حم لا ينصرون» قال أبو عبيد : كأن المعنى : اللهم لا ينصرون. قلت : لا يبعد أن يكون توسل بحبيب اللّه على هزم الأعداء. وعن ابن عباس : (أنه اسم اللّه الأعظم).

هـ. وكأنه مختصر من «حى قيوم».

تَنْزِيلُ الْكِتابِ أي : هذا تنزيل القرآن مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ أي : العزيز بسلطانه ، الغالب على أمره ، العليم بمن صدّق به وكذّب. وهو تهديد للمشركين ، وبشارة للمؤمنين. والتعرض لوصفى العزة والعلم للإيذان بظهور أثريهما فى الكتاب لظهوره عزه وعز من تمسك به ، ولاشتماله على علوم الأولين والآخرين.

---

(١) فى الأصول : [سورة المؤمن].

(٢) قال السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٦٤٣) : أخرج ابن الضريس ، والنّحاس والبيهقي فى الدلائل ، عن ابن عباس – رضي اللّه عنهما ، قال : «أنزلت الحواميم السبع بمكة».

(٣) قال الداني فى «البيان فى عد آي القرآن» ص ٢١٨ : «وهى ثمانون وثنتان فى البصري ، وأربع فى المدنيين والمكي ، وخمس فى الكوفي ، وست فى الشامي». هذا ولم أقف على من قال أنها ثمان وثمانون آية.

(٤) ذكره فى المحرر الوجيز (٤/ ٥٤٥) والبحر المحيط (٧/ ٤٢٩).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١١٠

غافِرِ الذَّنْبِ أي : ساتر ذنب المؤمنين وَقابِلِ التَّوْبِ وقابل توبة الرّاجعين شَدِيدِ الْعِقابِ للمخالفين ، ذِي الطَّوْلِ على العارفين ، أي : الفضل التام على العارفين ، أو : ذى الغنى عن الكل. وعن ابن عباس : (غافر الذنب ، وقابل التوب ، لمن قال : «لا إله إلا اللّه» شديد العقاب لمن لم يقل لا إله إلا اللّه) «١».

والتّوب : مصدر ، كالتوبة. ويقال : تاب وثاب وآب ، أي : رجع ، فإن قلت : كيف اختلفت هذه الصفات تعريفا وتنكيرا ، والموصوف معرفة ، وهو اللّه؟ قلت : أما غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ فمعرفتان لأنه لم يرد بهما حدوث الفعلين حتّى يكون فى تقدير الانفصال ، فتكون إضافتهما غير حقيقة ، وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه. وأما شَدِيدِ الْعِقابِ فهو فى تقدير : شديد عقابه ، فيكون نكرة ، فقيل : هو بدل ، وقيل : كلّها أبدال غير أوصاف. وإدخال الواو فى قابِلِ التَّوْبِ لنكتة ، وهى : إفادة الجمع

للمذنب التائب بين رحمتين : بين قبول توبته ، فتكتب له طاعة ، وبين جعلها ماحية للذنوب ، كأن لم يذنب ، كأنه قال : جامع المغفرة والقبول. وفى توحيد صفة العذاب مغمورة بصفات النعمة دليل سبقها ورجحانها ، «إن رحمتى سبقت غضبى» «٢».

قال القشيري : سنّة اللّه تعالى : إذا خوّف العباد باسم ، أو لفظ ، تدارك قلوبهم بأن يبشّرهم باسمين أو وصفين. هـ. روى : أن عمر رضي اللّه عنه افتقد رجلا ذا بأس شديد ، من أهل الشام ، فقيل له : تابع هذا الشراب ، فقال لكاتبه : اكتب : من عمر إلى فلان ، سلام اللّه عليك ، وأنا أحمد إليك اللّه ، الذي لا إله إلا هو ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ حم ... إلى قوله : إِلَيْهِ الْمَصِيرُ وختم الكتاب ، وقال لرسوله : لا تدفعه إليه حتى تجده صاحيا ، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة ، فلما أتته الصحيفة ، جعل يقرؤها ، ويقول : قد وعدني اللّه أن يغفر لى ، وحذّرنى من عقابه ، فلم يبرح يردّدها حتى بكى. ثمّ نزع ، فأحسن النّزوع ، وحسنت توبته. فلما بلغ عمر رضي اللّه عنه أمره ، قال : «هكذا فاصنعوا ، إذا رأيتم أخاكم قد زلّ فسدّدوه ، وادعو له اللّه أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه» «٣» أي :

بالدعاء عليه هـ.

لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أي : فيجب الإقبال الكلى عليه ، وهو : إما استئناف ، أو : صفة لذى الطّول ، إِلَيْهِ الْمَصِيرُ أي : المرجع ، فيجازى كلا من العاصي والمطيع. قال القشيري : إذا كان إلى اللّه المصير فقد طاب المسير.

ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ أي : ما يخاصم فيها بالطعن فيها ، واستعمال المقدمات الباطلة لإدحاض الحق المشتملة عليه ، إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ، وأما الذين آمنوا فلا يخطر ببالهم شائبة شبهة منها ، فضلا عن الطعن فيها ،

---

(١) ذكره البغوي فى التفسير (٧/ ١٣٨).

(٢) جزء من حديث صحيح ، أخرجه البخاري فى (التوحيد ، باب قول اللّه تعالى : بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ح ٧٥٥٤) ومسلم فى (التوبة ، باب فى سعة رحمة اللّه تعالى ، رقم ٤٧٥١ ، ح ١٥) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٣) رواه أبو نعيم فى الحلية (٤/ ٩٧).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١١١

وأما الجدال فيها لحل مشكلاتها ، وكشف حقائقها ، وتوضيح مناهج الحق منها ، وردّ مذاهب أهل الزيغ بها ، فمن أعظم الجهاد فى سبيل اللّه.

قال الطيبي : وأما اتصال قوله : ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ ... الآية بما قبله ، فهو أنه لمّا قال تعالى : حم تَنْزِيلُ الْكِتابِ من الإله المعبود ، الموصوف بصفات العلم الكامل ، والعز الغالب ، الجامع بين غفران الذنب وقبول التوبة ، المتفرد بالعقاب ، الذي لا يقدّر كنهه ، وبالإفضال الذي لا يبلغ قدره ، قال : ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ أي : ما يجادل فى مثل هذا الكتاب ، المشتمل على الآيات البينات ، المنزل من مثل ذلك الموصوف بنعوت الكمال ، إلا أمثال هؤلاء الكفرة المغرورين ، فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ فإنه استدراج ، فلا يغرر مثلك فى منصب الرّسالة تقلب أولئك تقلب الأنعام ، المنعّمين فى هذا الحطم. وآيات اللّه : مظهر أقيم مقام المضمر للتعظيم والتفخيم. هـ.

والفاء لترتيب النّهى عن الاغترار على ما قبله من التسجيل عليهم بالكفر ، الذي لا شيء أمقت منه عند اللّه ، ولا أجلب لخسران الدنيا والآخرة ، فإنّ من تحقق ذلك لا يكاد يغتر بما لهم من الحظوظ الفانية ، والزخارف الدنيوية ، فإنهم مأخوذون عما قليل ، كما أخذ من قبلهم. ولذلك ذكرهم بقوله : كَذَّبَتْ ... إلخ.

الإشارة : «حم» أي : بحلمي ومجدى تجليت فى كلامى ، المنزل على حبى ، وهو تنزيل الكتاب من اللّه العزيز ، المعزّ لأوليائه ، العليم بما كان وما يكون منهم ، فلا يمنعه علمه عما سلف من قضائه. غافر الذنب لمن أصرّ واجترم ، وقابل التوب لمن تاب واحتشم ، شديد العقاب لمن جحد وكفر ، ذى الطول لمن توجه ووصل ، ويقال : غافر الذنب للغافلين ، وقابل التّوب للمتوجهين ، شديد العقاب للمنكرين ، ذى الطول للعارفين الواصلين. لا إله إلا هو ، فلا موجود معه ، إليه المصير بالسير فى ميادين النّفوس ، حتى يحصل الوصول إلى حضرة القدوس. ما يجادل فى آيات اللّه ، وهم أولياء اللّه ، الدالون على اللّه ، إلا أهل الكفر بوجود الخصوصية. قال القشيري : إذا ظهر البرهان ، واتّضح البيان استسلمت الألباب الصاحية للاستجابة والإيمان. وأمّا أهل الكفر فلهم على الجحود إصرار ، وشؤم شركهم يحول بينهم وبين الإنصاف ، وكذلك من لا يحترم أولياء اللّه ، يصرّون على إنكارهم تخصيص اللّه عباده بالآيات ، ويعترضون عليهم بقلوبهم ، فيجادلون فى جحد الكرامات ، وسيفتضحون ، ولكنهم لا يميزون بين رجحانهم ونقصانهم. هـ.

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٥ الى ٦]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (٥) وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ (٦)

يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ نوحا ، وَالْأَحْزابُ أي : الذين تحزّبوا على الرسل ، وناصبوهم العداوة ، مِنْ بَعْدِهِمْ أي : من بعد قوم نوح ، كعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وأضرابهم ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ من تلك الأمم الماضية بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ليتمكنوا منه ، فيصيبوا ما أرادوا من تعذيب أو قتل. والأخذ : الأسر. وَجادَلُوا بِالْباطِلِ الذي لا أصل له ، ولا حقيقة لوجوده ، لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ليبطلوا به الحق الذي جاءت به من الإيمان وغيره ، فَأَخَذْتُهُمْ بسبب ذلك أخذا وبيلا ، فَكَيْفَ كانَ عِقابِ الذي عاقبتهم به ، فإنّ آثار ديارهم عرضه للناظرين ، وسآخذ هؤلاء أيضا لاتحادهم فى السيرة ، واشتراكهم فى الجريرة ، كما ينبئ عنه قوله :

وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ أي : كما وجب حكم اللّه تعالى وقضاؤه بالتعذيب على أولئك الأمم المكذّبة ، المجترئة على رسلهم ، المجادلة بالباطل لإدحاض الحق ، وجب أيضا عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا بك ، وتحزّبوا عليك ، وهمّوا بما لم ينالوا ، كما ينبئ عنه إضافة اسم الرّب إلى ضميره صلّى اللّه عليه وسلم فإن ذلك للإشعار بأنّ وجوب كلمة العذاب من أحكام التربية ، التي من جملتها : نصرته صلّى اللّه عليه وسلم ، وتعذيب أعدائه ، وذلك إنما يتحقق بكون الموصول عبارة عن كفار قومه ، لا عن الأمم المهلكة.

وقوله تعالى : أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ فى حيز النّصب ، بحذف لام التعليل ، أي : لأنهم مستحقو أشد العقوبات وأفظعها ، الذي هو عذاب النّار ، وملازمتها أبدا ، لكونهم كفارا معاندين ، متحزّبين على الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم ، كدأب من قبلهم من الأمم المهلكة ، وقيل : إنه فى محل رفع ، على أنه بدل من «كلمة ربك» والمعنى : ومثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة المهلكة كونهم من أصحاب النّار ، أي : كما وجب إهلاكهم فى الدنيا بعذاب الاستئصال وجب تعذيبهم فى الآخرة بعذاب النّار ، ومحل الكاف من (كذلك) على التقديرين : النصب ، على أنه نعت لمصدر محذوف.

الإشارة : الأولياء على قدم الرّسل ، فكل ما لحق الرّسل من الإيذاء يلحق الأولياء ، فقد كذّبت ، وتحزّب عليهم أهل عصرهم ، وهمّوا بأخذهم ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا نور اللّه بأفواههم ، واللّه متم نوره ، فأخذهم اللّه بالخذلان والبعد ، والخلود فى نار القطيعة والحجاب ، والعياذ باللّه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١١٣

ثم ذكر شرف الإيمان وأهله ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٧ الى ٩]

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)

قلت : (الذين) : مبتدأ ، و(يسبّحون) : خبره ، والجملة : استئناف مسوق لتسلية الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم ببيان أن «أشرف» «١» الملائكة – عليهم السّلام – مثابرون على ولاية من معه من المؤمنين ، ونصرتهم ، واستدعاء ما يسعدهم فى الدارين.

يقول الحق جل جلاله : الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ على عواتقهم – وهم محمولون أيضا بلطائف القدرة ، وَمَنْ حَوْلَهُ أي : الحافّين حوله ، وهم الكروبيّون ، سادات الملائكة ، وأعلى طبقاتهم. قال ابن عباس : حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام «٢» ، وقيل : أرجلهم فى الأرض السفلى ، ورؤوسهم خرقت العرش ، وهم خشوع ، لا يرفعون طرفهم ، وهم أشد خوفا من سائر الملائكة «٣».

وقال أيضا : لمّا خلق اللّه حملة العرش ، قال لهم : احملوا عرشى قلم يطيقوا ، فخلق اللّه مع كلّ ملك من أعوانهم مثل جنود من فى السموات ومن فى الأرض من الخلق ، فقال لهم : احملوا عرشى ، فلم يطيقوا ، فخلق مع كل واحد منهم مثل جنود سبع سنوات وسبع أرضين ، وما فى الأرض من عدد الحصى والثرى ، فقال : احملوا عرشى ، فلم يطيقوا ، فقال : قولوا : لا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم ، فقالوها ، فاستقلوا عرش ربنا ، أي : لمّا حملوه باللّه أطاقوه ،

---

(١) فى الأصول الخطية [أشرف] والمثبت من تفسير أبى السعود.

(٢) عزاه فى الدر المنثور (٥/ ٦٤٨) لعبد ابن حميد ، وابن مردويه ، والبيهقي فى الأسماء والصفات.

(٣) عزاه فى الدر المنثور (٥/ ٦٤٨) لعبد بن حميد ، عن ميسرة.

فلم يحمل عرشه إلا قدرته ، وفى الحديث : «إن اللّه أمر جميع الملائكة أن يغدوا ، ويروحوا بالسلام

على حملة العرش ، تفضيلا لهم على سائر الملائكة». «١»

وقال وهب بن منبه : حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة ، صف خلف صف ، يدورون حول العرش ، يطوفون به ، يقبل هؤلاء ، ويدبر هؤلاء ، فإذا استقبل بعضهم بعضا ، هلّل هؤلاء ، وكبّر هؤلاء ، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام ، أيديهم إلى أعناقهم ، قد وضعوها على عواقتهم ، فإذا سمعوا تكبير هؤلاء وتهليلهم ، رفعوا أصواتهم ، فقالوا : سبحانك وبحمدك ما أعظمك وأجلّك ، أنت اللّه لا إله غيرك ، أنت الأكبر ، الخلق كلهم راجون رحمتك ، ومن وراء هؤلاء مائة ألف صف من الملائكة ، قد وضعوا اليمنى على اليسرى ، ليس منهم أحد إلا يسبح اللّه – تعالى – بتسبيح لا يسبحه الآخر ، ما بين جناحى أحدهم مسيرة ثلاثمائة عام ، واحتجب اللّه عز وجل – بينه وبين الملائكة الذين هم حول العرش – بسبعين حجابا من ظلمة ، وسبعين حجابا من نور ، وسبعين حجابا من درّ أبيض ، وسبعين حجابا من ياقوت أحمر ، وسبعين حجابا من زمرد أخضر ، وسبعين حجابا من ثلج ، وسبعين حجابا من ماء ، إلى ما لا يعلمه إلا اللّه تعالى هـ «٢».

قلت : لمّا أظهر اللّه العرش تجلى بنور جبروتى رحموتى ، استوى به على العرش ، كما يتجلى يوم القيامة لفصل القضاء ، ثم ضرب الحجب بين هذا التجلي الخاص وبين الملائكة الحافّين ، ولا يلزم عليه حصر ولا تجسيم إذ تجليات الذات العالية لا تنحصر ، وليست هذه الحجب بين الذات الكلية وبين الخلق إذ لا حجاب بينها وبين سائر المخلوقات إلا حجاب القهر والوهم.

واختلف فى هيئة العرش ، فقيل : إنه مستدير ، والكون كله فى جوفه كخردلة فى الهواء ، حتى قيل : هو الفلك التاسع ، وقيل : هو منبسط كهيئة السرير ، وله سوارى وأعمدة ، وهو ظاهر الأخبار النّبوية.

روى جعفر الصادق عن أبيه عن جده ، أنه قال : إن بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية من خفقان الطير المسرعة قياس ألف عام ، وإن ملكا يقال له : حزقائيل ، له ثمانية عشر ألف جناح ، ما بين الجناح والجناح خمسمائة عام ، فأوحى اللّه إليه : أن طر ، فطار مقدار عشرين ألف سنة ، فلم ينل رأسه قائمة من قوائم العرش ، ثم طار مقدار ثلاثين ألف سنة فلم ينلها ، فأوحى اللّه إليه : لو طرت إلى نفخ الصور لم تبلغ ساق عرشى. هـ. مختصرا.

وفى حديث آخر : «إن بين القائمة والقائمة من قوائم العرش ستين ألف صحراء ، فى كل صحراء ستون ألف عالم ، فى كل عالم قدر الثقلين». ومع هذا كله يسعه قلب العارف حتى يكون فى زاوية منه لأنه محدود ، وعظمة

---

(١) قال الحافظ ابن حجر : لم أجده. انظر الكافي الشاف (ص ١٤٤ ، ح ٣٣٧).

(٢) انظر تفسير البغوي (٧/ ١٤٠ – ١٤١) وزاد المسير (٧/ ٢٠٨). [.....]

الحق غير محدودة ، وقلب العارف قد تجلت فيه عظمة الحق ، فوسعها ، بدليل الحديث : «لن تسعنى أرضى ولا سمائى ، ووسعني قلب عبدى المؤمن» «١» ، أي : الكامل.

ثم أخبر تعالى عن حملة العرش ومن حوله بقوله : يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ أي : ينزهونه تعالى عما لا يليق بشأنه الجليل ، ملتبسين بحمده على نعمائه التي لا تتناهى ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ إيمانا يناسب حالهم. وفائدة ذكره مع علمنا بأن حملة العرش ومن حوله الذين يسبّحون بحمد ربهم مؤمنون إظهار لشرف الإيمان وفضيلته ، وإبراز لشرف أهله ، والترغيب فيه ، كما وصف الأنبياء فى بعض المواضع بالصلاح. وفيه تنبيه على أن الملائكة لم يحصل لهم العيان ، وإنما وصفوا بالإيمان بالغيب ، وهم طبقات : منهم العارفون أهل العيان ، ومنهم أهل الإيمان.

ثم قال تعالى : وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا أي : ويستغفرون لمن شاركهم فى حالهم من الإيمان ، وفيه دليل على أن الإشراك يجب أن يكون أدعى شىء إلى النّصيحة والشفقة ، وإن تباعدت الأماكن ، وفى نظم استغفارهم لهم فى سلك وظائفهم المفروضة عليهم ، من تسبيحهم ، وتحميدهم ، وإيمانهم ، إيذان بكمال اعتنائهم به ، وإشعار بوقوعه عند اللّه – تعالى – موقع القبول.

رَبَّنا أي : يقولون : ربنا ، إمّا بيان لاستغفارهم ، أو حال ، وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً أي : وسعت رحمتك وعلمك كل شىء ، فأزيل الكلام عن أصله ، بأن أسند الفعل إلى صاحب الرّحمة والعلم ، ونصبا على التمييز ، مبالغة فى وصفه – تعالى – بالرحمة والعلم ، وفى عمومهما ، وتقديم الرّحمة لأنها السابقة والمقصودة هنا ، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا أي : للذين علمت منهم التوبة ، ليناسب ذكر الرّحمة ، وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ أي :

طريق الهدى التي دعوت إليها. والفاء لترتيب الدعاء على ما قبلها من سعة الرّحمة والعلم ، وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ أي : احفظهم منه ، وهو تصريح بعد إشعار للتأكيد.

رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ إياها ، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ أي : صلاحا مصححا لدخول الجنة فى الجملة ، وإن كانوا دون صلاح أصولهم ، و(من) : عطف على ضمير (وعدتهم) ، أي : وأدخل معهم هؤلاء ليتم سرورهم ، ويتضاعف ابتهاجهم. قال سعيد بن جبير : (يدخل الرّجل الجنة ، فيقول :

أين أبى؟ أين أمي؟ أين ولدي؟ أين زوجتى؟ فيقال له : لم يعملوا مثل عملك ، فيقول : كنت أعمل لى ولهم ، فيقال :

أدخلوهم الجنة) «٢». وسبق الوعد بالإدخال والإلحاق لا يستدعى حصول الموعود بلا توسط شفاعة واستغفار ، وعليه بنى قول من قال : فائدة الاستغفار للمنيب الكرامة والثواب. انظر أبا السعود.

---

(١) ذكره الغزالي فى الإحياء (٣/ ١٦) ، قال العراقي فى المغني : «ليس له أصل» وقال القاري فى الأسرار المرفوعة (ص ٣١٠) :
«ليس له إسناد معرووف عن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم». والحديث وجدته بنحوه عند الديلمي فى الفردوس (٣/ ١٧٤ ح ٤٤٦٦) من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه لفظه : «لا يسعنى شيء ووسعني قلب عبدى المؤمن اللين الوادع إذا ألبسته لبسة أحبائى ...» الحديث.
(٢) أخرجه ابن جرير (٢٤/ ٤٥).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١١٦
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أي : الغالب الذي لا يمتنع عليه مقدور ، وأنت مع ملكك وعزتك لا تفعل شيئا خاليا عن حكمة ، وموجب حكمتك أن تفى بوعدك.
وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ أي : جزاء السيئات ، وهو العذاب ، أو : المعاصي فى الدنيا ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ أي : ومن تقه عقاب السيئات يومئذ فقد رحمته ، أو : ومن تقه المعاصي فى الدنيا فقد رحمته فى الآخرة ، وكأنهم طلبوا لهم السبب بعد ما طلبوا المسبّب ، وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الإشارة إلى الرّحمة المفهومة من رحمته ، أو : إليها وإلى الوقاية ، أي : ذلك التوقي هو الفوز العظيم الذي لا مطمع وراءه لطامع.
الإشارة : العرش وحملته ، والحافّون به محمولون بلطائف القدرة لا حاملون فى الحقيقة ، بل لا وجود لهم مع الحق ، وإنما هم شعاع من أنوار الذات الأقدس وتجلّ من تجلياتها.
وقوله تعالى : يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، قال الورتجبي : يسبّحون اللّه بما يجدونه من القدس والتنزيه ، حمدا لأفضاله ، وبأنه منزه عن النّظير والشبيه ، ويؤمنون به فى كل لحظة ، بما يرون منه من كشوف صفات الأوليات ، وأنوار حقائق الذات ، التي تطمس فى كل لمحة مسالك رسوم العقليات ، وهم يقرون كل لحظة بجهلهم عن كنه معرفة وجوده ، ثم بيّن أنهم أهل الرّأفة ، والرّحمة ، والشفقة على أوليائه ، لأنهم إخوانهم فى نسب المعرفة والمحبة.
انظر تمامه.
والحاصل : أنهم مع تجلى أنوار ذاته ، قاصرون عن كنهه ، وحقيقة ذاته ، وغايتهم الإيمان به. قاله فى الحاشية.
قلت : والتحقيق أن المقربين منهم تحصل لهم المعرفة العيانية ، والرّؤية للذات فى مظاهر التجليات ، كما تحصل لخواص الأولياء فى الدنيا ، ولكن معرفة الآدمي أكمل لاعتدال حقيقته وشريعته ، لمّا

اعتدل فيه الضدان ، وأما معرفة الملائكة فتكون مائلة لجهة الشكر والهيمان للطافة أجسامهم ، فمثلهم كالمرآة بلا طلاء خلفها ، وأمّا ما ورد فى بعض الأخبار : أن جبريل لم ير اللّه قط قبل يوم القيامة ، فلا يصح إلا أن يحمل على أنه لم يره من غير مظهر ، وهذا لا يمكن له ولا لغيره ، وأما رؤيتهم اللّه يوم القيامة فهم كسائر المؤمنين ، يرونه على قدر تفاوتهم فى المراتب والقرب.

قال إمام أهل السنة ، أبو الحسن الأشعري رضي اللّه عنه ، فى كتاب «الإبانة فى أصول الديانة» : أفضل اللذات لأهل الجنة رؤية اللّه تعالى ، ثم رؤية نبيه صلّى اللّه عليه وسلم ، فلذلك لم يحرم اللّه أنبياءه المرسلين ، وملائكته المقربين ، وجماعة المؤمنين ، والصدّيقين النّظر إلى وجهه تعالى. هـ. وفى الآية حث على الدعاء للمؤمنين بظهر الغيب ، والاستغفار لهم ، وهو من شأن الأبدال ، أهل الرّحمة لعباد اللّه ، اقتداء بالملأ الأعلى.

(١١٦/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١١٧

ثم شفع بضد أهل الإيمان ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٠ الى ١٢]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ يوم القيامة ، من قبل الخزنة – وهم فى النّار : لَمَقْتُ اللَّهِ إياكم اليوم ، وإهانته لكم ، أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ فى الدنيا ، حيث حرمتموها الإيمان وعرضتموها للهوان ، إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ من قبل الرّسل فَتَكْفُرُونَ ، والحاصل : أنهم مقتوا أنفسهم فى الدنيا ، وأهانوها ، حيث لم يؤمنوا ، فإذا دخلوا النّار حصل لهم من المقت والغضب من اللّه أشد وأعظم من ذلك ، ف «إذا» : ظرف للمقت الثاني ، لا الأول ، على المشهور.

قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ أي : إماتتين وإحياءتين ، أو : موتتين وحياتين. قال ابن عباس : كانوا أمواتا فى الأصلاب ، ثم أحياهم ، ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها ، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة ، وهذا كقوله تعالى : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ ... الآية «١». قال السدى : أميتوا فى الدنيا ، ثم أحيوا فى قبورهم للسؤال ، ثم أميتوا فى قبورهم ، ثم أحيوا فى الآخرة.

والحاصل : أنهم أجابوا : بأن الأنبياء دعوهم إلى الإيمان باللّه واليوم الآخر ، وكانوا يعتقدون ما يعتقده الدهرية :

ألّا حياة بعد الموت ، فلم يلتفتوا إلى دعوتهم ، وداموا على الإنكار ، فلمّا رأوا الأمر عيانا ، اعترفوا. ووجه مطابقة قوله : قالُوا رَبَّنا ... إلخ لما قبله : الإقرار بما كانوا منكرين له من البعث ، الذي أوجب لهم المقت والعذاب طمعا فى الإرضاء له بذلك ليتخلصوا من العذاب ، ولذلك قالوا : فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا ، لمّا رأوا الإماتة والإحياء قد تكرر عليهم ، علموا أن اللّه قادر على الإعادة ، كما هو قادر على الإنشاء ، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة البقرة. وانظر تفسير البغوي (٧/ ١٤٢).

البعث وما يتبعه من جزائهم. ومقصدهم بهذا الإقرار : التوسل بذلك إلى ما علّقوا به أطماعهم الفارغة من الرّجوع إلى الدنيا ، كما صرحوا به فى قولهم : فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ أي : نوع من الخروج ، سريع أو بطيء ، مِنْ سَبِيلٍ أو : لا سبيل إليه قط. وهذا كلام من غلب عليه اليأس ، وإنما يقولون ذلك تحيّرا ، مع نوع استبعاد واستشعار يأس منه ، ولذلك أجيبوا بقوله :

ذلِكُمْ أي : ذلكم الذي أنتم فيه من العذاب ، وألّا سبيل إلى الخروج ، بِأَنَّهُ أي : بسبب أن الشأن إذا دُعِيَ اللَّهُ فى الدنيا ، أي : عبد وَحْدَهُ منفردا كَفَرْتُمْ بتوحيده ، وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا بالإشراك وتسارعوا فيه ، أي : كنتم فى الدنيا تكفرون بالإيمان ، وتسارعون إلى الشرك. قيل : والتعبير بالاستقبال ، إشارة إلى أنهم لو ردوا لعادوا ، وحيث كان حالكم كذلك ، فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الذي لا يحكم إلا بالحق ، ولا يقضى إلا بما تقتضيه حكمته ، الْعَلِيِّ شأنه ، فلا يردّ قضاؤه ، أو : فالحكم بعذابكم وتخليدكم فى النّار للّه لا لتلك الأصنام التي عبدتموها معه ، الْكَبِيرِ : العظيم سلطانه ، فلا يحدّ جزاؤه. وقيل : إنّ الحرورية «١» أخذوا قولهم : لا حكم إلا للّه ، من هذه الآية. قال علىّ رضي اللّه عنه لمّا سمع مقالتهم : كلمة حق أريد بها باطل. هـ.

الإشارة : إنّ الذي كفروا بطريق الخصوص ، وأنكروا وجود التربية ، حتى ماتوا محجوبين عن اللّه ، وبعثوا كذلك ، ينادون يوم القيامة بلسان الحال : لمقت اللّه لكم اليوم – حيث سقطتم عن درجات المقربين – أكبر من مقتكم أنفسكم ، حيث حرمتموها معرفة العيان ومقام الإحسان ، حين كنتم تدعون إلى تربية الإيمان ، وتحقيق الإيقان ، على ألسنة شيوخ التربية ، فتكفرون وتقولون : انقطعت التربية منذ زمان ، ثم يطلبون الخروج من عالم الآخرة إلى عالم الدنيا ، ليحصلوا المعرفة التي فاتتهم ، فيقال لهم : هيهات ، قد فات الإبّان «٢» ، «الصيف ضيعت اللبن» «٣».

فامكثوا فى حجابكم ، ذلكم بأنه إذا دعى اللّه وحده ، وأن لا موجود سواه ، كفرتم بإنكاركم سبيله ، وهى طريق التجريد والتربية ، وإن يشرك به بالتعمق فى الأسباب ، والمكث فيها ، تؤمنوا. والحاصل : أنهم كانوا ينكرون طريق التجريد ، ويؤمنون بطريق الأسباب ، فالحكم للّه العلى الكبير ، فيرفع من يشاء ، ويضع من يشاء بعلوه وكبير شأنه.

---

(١) الحرورية : طائفة من الخوارج ، تنسب إلى «حرور» ، اسم قرية بالكوفة. انظر اللسان (حرر ٢/ ٨٣١).

(٢) إبان كل شيء : وقته وحينه الذي يكون فيه. انظر اللسان (ابن ١/ ١٢).

(٣) هذا مثل. والتاء من «ضيعت» مكسورة فى كل حال ، إذا خوطب به المذكر والمؤنث والاثنان والجمع ، لأن المثل فى الأصل خوطبت به امرأة ، وهى دختنوس بنت لقيط بن زرارة ، كانت تحت عمرو بن عمرو بن عدس ، وكان شيخا كبيرا ، ففركته (كرهته) فطلقها ، ثم تزوجها فتى جميل الوجه ، وأجدبت ، فبعثت إلى عمرو تطلب منه حلوبة ، فقال عمرو : «فى الصيف ضيعت اللبن» ، فلما رجع الرّسول ، وقال لها ما قال عمرو ، ضربت يدها على منكب زوجها ، وقالت : «هذا ومذقه خير» تعنى أن هذا الزوج مع عدم اللبن خير من عمرو ، فذهبت كلماتهما مثلا. انظر مجمع الأمثال للميدانى (٢/ ٤٣٤).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١١٩

ثم برهن على علو شأنه بقوله :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٣ الى ١٧]

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَما يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (١٧)

يقول الحق جل جلاله : هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ الدالة على كبريائه ، وكمال قدرته ، من الرّياح ، والسحاب ، والرّعد ، والبرق ، والصواعق ، وغير ذلك ، لتستدلوا على ذلك ، وتعملوا بموجبها ، فتوحدوه تعالى ، وتخصوه بالعبادة ، وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً مطرا لأنه سبب الرّزق. وأفرده بالذكر مع كونه من جملة الآيات لتفرده بكونه من آثار رحمته ، وجلائل نعمه الموجبة للشكر إذ به قوام

الحيوانات بأسرها. وصيغة المضارع فى الفعلين للدلالة على تجدد الإراءة والتنزيل ، واستمرارهما. وَما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ أي : وما يتعظ ويعتبر بهذه الآيات الباهرة ، ويعمل بمقتضاها إلا من يتوب ويرجع عن غيه إلى اللّه تعالى ، فيتفكر فيما أودعه فى تضاعيف مصنوعاته من شواهد قدرته الكاملة ، ونعمه الشاملة. وأما المعاند فلا يتعظ ولا يعتبر لسفح الران على قلبه.

وإذا كان الأمر كما ذكرنا ، من اختصاص التذكير بمن ينيب ، فَادْعُوا اللَّهَ ، أو : تقول : لمّا ذكر أحوال المشركين ، وأراد أن يشفع بأضدادهم ، جعل قوله : هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ .. إلخ ، توطئة لقوله : فَادْعُوا اللَّهَ أي :

اعبدوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ من الشرك الجلى والخفي ، بموجب إنابتكم إليه تعالى وإيمانكم ، وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ وإن غاظ ذلك أعداءكم ، ممن لم يتب مثلكم ، فإن اللّه يكرم مثواكم ، ويرفع درجاتكم ، فإنه رَفِيعُ الدَّرَجاتِ أي : رافع درجات أوليائه المؤمنين ، الداعين إليه ، المخلصين فى الدنيا والآخرة ، فى الدنيا بالعز والنّصر ، وفى الآخرة بالقرب والاختصاص ، أو : رفيع السموات التي هى مصاعد الملائكة ، ومهابطها ، للسفارة بين

(١١٩/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٢٠

المرسل والمرسل إليه ، وهو كالمقدمة لقوله : يُلْقِي الرُّوحَ ... إلخ. هذا على أنه اسم فاعل ، مبالغة ، وقيل : هو صفة مشبهة أضيفت إلى فاعلها ، أي : رفيع درجاته بالعلو والقهرية.

ذُو الْعَرْشِ أي : مالكه ، وهما خبران آخران عن هُوَ الَّذِي ... إلخ ، إيذانا بعلو شأنه ، وعظم سلطانه ، الموجبين لتخصيص العبادة به ، وإخلاص الدين له بطريق الاستشهاد بهما عليهما فإنّ ارتفاع الدرجات والاستيلاء على العرش – مع كون العرش محيطا بأكناف العالم العلوي والسفلى ، وهو تحت ملكوته وقبضة قهره مما يقضى بكون علو شأنه وعظيم سلطانه – فى غاية لا غاية ورائها. قاله أبو السعود.

ثم ذكر سبب رفع الدرجات بقوله : يُلْقِي الرُّوحَ أي : ينزل الوحى ، الجاري من القلوب بمنزلة الرّوح من الأجسام ، وكأنه لمّا ذكر رزق الأجسام أتبعه برزق الأرواح ، الذي هو العلم باللّه ، وطريقه الوحى.

والتعبير بالمضارع ، قال الطيبي : يفيد استمرار الوحى من لدن آدم إلى زمن سيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، ثم اتصاله إلى قيام يوم التنادى ، بإقامة من يقوم بالدعوة ، على ما روى أبو داود ، عن أبى هريرة ، عن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «إنّ اللّه سيبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها» «١» ومعنى التجديد : إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنّة ، والأمر بمقتضاهما. هـ.

قلت : وقد زرت شيخنا البوزيدى رضي اللّه عنه مرة ، فلما وقع بصره علىّ ، قال : واللّه ، حتى يحيى اللّه بك الدين المحمدي. وكتب لى شيخ الجماعة ، وقطب دائرة التربية ، مولاى العربي الدرقاوى رضي اللّه عنه ، فقال فى آخر كتابه :

وأرجو من اللّه ألا تموت حتى تكون داعيا إلى اللّه ، تذكّر أهل المشرق والمغرب. أو ما هذا معناه ، وقد وقع ذلك ، والحمد للّه.

وقوله : مِنْ أَمْرِهِ أي : من قضائه ، أو : بأمره ، فيجوز أن يكون حالا من الرّوح ، أو متعلقا ب (يلقى) أي :

يلقى الرّوح حال كونه ناشئا ، أو : مبتدئا من أمره ، أو : يلقى الوحى بسبب أمره عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وهو الذي اصطفاه لرسالته ، وتبليغ أحكامه إلى عباده ، لِيُنْذِرَ أي : اللّه ، أو : الملقى عليه ، وهو النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، ويؤيده قراءة يعقوب بالخطاب ، أي : لتخوف يَوْمَ التَّلاقِ يوم القيامة لأنه يتلاقى فيه أهل السموات وأهل الأرض ، والأولون والآخرون ، و(يوم) : ظرف للمفعول الثاني ، أي : لينذر النّاس العذاب يوم التلاق ، أو : مفعول ثان لينذر ، فإنه من شدة هوله وفظاعته حقيق بالإنذار.

---

(١) أخرجه أبو داود فى (الملاحم ، باب ما يذكر فى قرن المائة ٤/ ٤٨٠ ، ح ٤٢٩١) والحاكم فى المستدرك (الفتن والملاحم ، ٤/ ٥٢٢) والبيهقي فى المعرفة (١/ ١٢٤) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه ، ورمز له السيوطي فى الجامع الصغير (ح ١٨٤٥) بالصحة.

يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ : بدل من «يوم التلاق» أي : خارجون من قبورهم ، أو : ظاهرون ، لا يستترون بشىء من جبل أو أكمة أو بناء لكون الأرض يومئذ قاعا صفصفا ، ولا عليهم ثياب ، إنما هم حفاة عراة ، كما فى الحديث. أو :

بارزة نفوسهم لا يحجبها غواش الأبدان ، أو : بارزة أعمالهم وسرائرهم ، لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ من أعمالهم وأحوالهم ، الجلية والخفية ، السابقة واللاحقة ، وهو استئناف لبيان بروزهم ، وإزاحة لما كان يتوهمه المتوهمون فى الدنيا من الاستتار توهما باطلا ، فإذا برزوا وحشروا ، نادى الحق – جل جلاله : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ فلا يجيبه أحد ، ثم يعود ثلاثا ، فيجيب نفسه بنفسه بقوله : لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ أي : الذي قهر العباد بالموت.

روى أن اللّه تعالى يجمع الخلائق فى صعيد واحد ، فى أرض بيضاء ، كأنها سبيكة فضة ، لم يعص اللّه

عليها قط ، فأول ما يتكلم به أن ينادى مناد : لمن الملك اليوم؟ فيجيب نفسه : «للّه الواحد القهار».
وقيل : المجيب أهل المحشر ، وروى أيضا : أن هذا القول يقوله الحق تعالى عند فناء الخلق وقبل البعث ، ولعله يقال مرتين.
قال تعالى : الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ من النّفوس البرة والفاجرة ، بِما كَسَبَتْ من خير أو شر ، وهذا من تتمة الجواب ، أو : حكاية لما سيقوله تعالى يومئذ عقب السؤال والجواب ، لا ظُلْمَ الْيَوْمَ بنقص ثواب أو زيادة عذاب ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ لأنه لا يشغله شأن عن شأن ، فكما أنه يرزقهم دفعة ، يحاسبهم دفعة ، فيحاسب الخلق قاطبة فى أقرب زمان ، كما نقل عن ابن عباس : أنه تعالى إذا أخذ فى حسابهم لم يقل «١» أهل الجنة إلا فيها ، وأهل النّار إلا فيها. هـ.
قلت : المراد بالحساب : إظهار ما يستحق كل واحد من النّعيم أو العذاب ، وأما ما ورد من طول المكث فى المحشر على الكفار والفجار فإنما ذلك تعذيب بعد فراغ المحاسبة. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : هو الذي يريكم آياته الدالة على توحيده ، وينزل لكم من سماء الغيوب علما ، تتقوت به قلوبكم وأرواحكم ، فتغيبون فى مشاهدة المدلول عن الدليل ، وما يتذكّر بهذا ويهتد إليه إلا من ينيب ، ويصحب أهل الإنابة.
فادعوا اللّه ، أي : اعبدوه وادعوا إلى عبادته وإخلاص العمل ، ولو كره الجاحدون ، فإنّ اللّه رفيع درجات الداعين إليه مع المقربين ، فى مقعد صدق عند ذى العرش المجيد. قال القشيري : يرفع درجات المطيعين بظواهرهم فى الجنة ، ودرجات العارفين بقلوبهم فى الدنيا ، فيرفع درجتهم عن النّظر إلى الكونين ، والمساكنة إليهما ، وأما المحبون فيرفع درجتهم عن أن يطلبوا فى الدنيا والعقبى شيئا غير رضا محبوبهم. هـ.

---

(١) من القيلولة.

يلقى الرّوح من أمره على من يشاء من عباده ، هو وحي أحكام للأنبياء ، ووحي إلهام للأولياء ، فيحيى اللّه بهم الدين فى كلّ زمان ، وقال القشيري : بعد كلام : ويقال : روح النّبوة ، وروح الرّسالة ، وروح الولاية ، وروح المعرفة.
هـ. والمراد بالروح : مطلق الوحى ، لينذر الداعي يوم التلاقي ، فيحصل اللقاء السرمدي مع الحبيب للمقربين ، ويحصل الافتراق والبعد للغافلين ، حين تبرز الخلائق بين يدى اللّه ، لا دعوى لأحد يومئذ

، فيقول الحق تعالى : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ.
قال القشيري : لا يتقيد ملكه بيوم ، ولا يختص بوقت ، ولكنّ دعاوى الخلق – اليوم – لا أصل لها ، ترتفع غدا ، وتنقطع تلك الأوهام. هـ. ومثله فى الإحياء ، وأنه إذا كشف الغطاء شهد الأمر كذلك ، كما كان كل يوم ، لا فى خصوص ذلك اليوم. فإذا حصل للعبد مقام الفناء ، لم ير فى الدارين إلا اللّه ، فيقول : لمن الملك اليوم؟ فيجيب : للّه الواحد القهار. اليوم تجزى كل نفس بما كسبت من التقريب أو الإبعاد. قال القشيري : يجازيهم على أعمالهم الجنان ، وعلى أحوالهم الرّضوان ، وعلى أنفاسهم – أي : على حفظ أنفاسهم – القرب ، وعلى محبتهم الرّؤية ، ويجازى المذنبين على توبتهم الغفران ، وعلى بكائهم الضياء والشفاء. هـ. لا ظلم اليوم ، بل كل واحد يرتفع على قدر سعيه اليوم.
وقوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ قال القشيري : وسريع الحساب مع أوليائه فى الحال ، يطالبهم بالنقير والقطمير. هـ. قلت : يدقق عليهم الحساب فى الحال ، ويرفع مقدارهم فى المآل. وباللّه التوفيق.
ثم حذّر من هول ذلك اليوم ، فقال :
[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٠]
وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ (١٨) يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠)
يقول الحق جل جلاله : وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ أي : القيامة ، سميت بها لأزوفها ، أي : قربها. فالأزوف والازدلاف هو القرب ، غير أن فيه إشعارا بضيق الوقت ، أو الخطة الأزفة ، وهى مشارفة أهل النّار لدخولها ، ثم أبدل من يوم الآزفة قوله : إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ أي : التراقى ، يعنى : ترتفع قلوبهم عن مقارّها ، فتلتصق

بحناجرهم من الرّعب ، فلا هى تخرج فيموتوا فيستريحوا ، ولا ترجع إلى مقارها فيتروّحوا. حال كونهم كاظِمِينَ ممسكين الغيظ بحناجرهم ، أو : ممسكين قلوبهم بحناجرهم ، يرومون ردها لئلا تخرج ، فهو حال من القلوب ، وجمعت جمع السلامة لوصفها بالكظم ، وهو من أوصاف العقلاء ، أو : من أصحاب القلوب إذ الأصل :
قلوبهم ، أو : من ضميرها فى الظرف ، ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ أي : قريب مشفق وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ أي :

ولا شفيع تقبل شفاعته ، فالمراد : نفى الشفاعة والطاعة ، كقول الشاعر :

ولا ترى الضّبّ فيها ينجحر «١» يريد به : نفى الضب وانجحاره. وكقول الآخر :

على لاحب لا يهتدى بمناره «٢» وإن احتمل اللفظ نفى الطاعة دون الشفاعة. فعن الحسن البصري : «واللّه ما يكون لهم شفيع البتة». ووضع «الظالمين» موضع الضمير للتسجيل عليهم بالظلم وتعليل الحكم به.

يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ أي : النظرة الخائنة ، كاستراق النّظر إلى ما لا يحلّ. قيل : فيه تقديم وتأخير ، أي : الأعين الخائنة ، وقيل : مصدر ، كالعافية ، أي : خيانة الأعين. قال ابن عباس رضي اللّه عنه : هو الرّجل يكون جالسا مع القوم ، فتمر المرأة ، فيسارقهم النّظر إليها «٣». هـ. وقال ابن عطية : متصل بقوله : سَرِيعُ الْحِسابِ ، فيحاسب على خيانة الأعين ، وقالت فرقة : متصل بقوله : لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، وهذا حسن ، يقويه تناسب المعنيين ، ويبعده بعد الآية من الآية ، وكثرة الحائل. والحاصل : أنه متصل بما تقدم من ذكر اللّه ووصفه ، واعترض فى أثناء ذلك بوصف القيامة لما استطرد إليه من قوله : لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ الآية. قاله المحشى. وَيعلم ما تُخْفِي الصُّدُورُ أي : ما تكنّه من خيانة وأمانة. وقيل : هو أن ينظر إلى أجنبية بشهوة مسارقة ، ثم يتفكر بقلبه فى جمالها ، ولا يعلم بنظرته وفكرته من حضره ، واللّه يعلم ذلك كله.

وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ أي : ومن هذه صفاته لا يقضى إلا بالعدل ، فيجازى كلّا بما يستحقه إذ لا يخفى عليه خفىّ ولا جلىّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ يعبدونهم مِنْ دُونِهِ من الآلهة لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ، وهذا

---

(١) عجز بيت ، صدره : لا تفزع الأرنب أهوالها.

(٢) هذا صدر بيت عجزه : [إذا سافه النّباطىّ جرجرا]. وهو من قصيدة لامرئ القيس فى ديوانه (٦٦). وصدر البيت فى لسان العرب (لحف ٥/ ٤٠٠٩). واللحب : الطريق الواسع ، من لحبه : إذا وطئه ومرّ فيه ، والمنار : ما يعلم به الطريق.

والشاهد فى البيت : نفى الاهتداء بالمنار ، والمقصود : نفى المنار ، فلا منار ولا هداية.

(٣) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٦٥٣) لسعيد بن منصور ، وابن أبى شيبة وابن النّذر وابن أبى حاتم.

تهكّم بهم لأن الجماد الذي لا يعقل لا يقال فيه : يقضى ولا يقضى ، وقرأ نافع بالخطاب أو : على إضمار «قل» ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ تقرير لقوله : يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ ووعيد

لهم لأنه يسمع ما يقولون ، ويبصر ما يعملون ، وأنه يعاقبهم عليه ، وتعريض بما يدعون من دون اللّه ، بأنها لا تسمع ولا تبصر.

الإشارة : قال القشيري : قيامة الكل مؤجّلة ، وقيامة المحبين معجّلة ، فى كل نفس من العتاب والعذاب ، والبعاد والاقتراب ، ما لم يكن فى حساب ، وشهادة الأعضاء بالدمع تشهد ، وخفقان القلب ينطق ، والنّحول يخبر ، واللون يفضح ، والعبد يستر ، ولكن البلاء يظهر ، قال :

يا من تغيّر صورتى لمّا بدا لجميع ما ظنّوا بنا تحقيق هـ. «١»

وقوله تعالى : إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ، هو فى حق من فاته التأهب والترقي فى هذه الدار ، فتحسّر حين يعاين مقامات الرّجال ، وليس له شفيع يرقيه ، ولا حميم يصافيه. وقوله تعالى : يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ هو فى حق العارفين : النظر إلى السّوى بعين الاستحسان. قال القشيري : خائنة الأعين هى من المحبين استحسانهم شيئا – أي : من السّوى – وأنشدوا :

يا قرّة العين : سل عينى هل اكتحلت بمنظر حسن مذ غبت عن عينى؟

وأنشد أيضا :

وعينى إذا استحسنت غيركم أمرت الدّمع بتأديبها «٢»

قلت : ومثله قول الشاعر :

وناظر فى سوى معناك حقّ له يقتصّ من جفنه بالدّمع وهو دم

والسمع إن حال فيه ما يحدّثه سوى حديثك ، أمسى وقره الصّمم

ثم قال : ومن خائنة الأعين : أن تأخذهم السّنة والسّنات «٣» فى أوقات المناجاة ، وفى قصص داود عليه السّلام :

«كذب من ادّعى محبتى ، فإذا جنّة الليل نام عنى» ومن خائنة أعين العارفين : أن يكون لهم خير ، أي : استحسان يقع لقلوبهم مما تقع عليه أعينهم ، ينظرون ولكن لا يبصرون – أي : ينظرون إلى المستحسنات ، ولكن لا يقفون

---

(١) فى لطائف الإشارات : [لجميع ما ظنوا بنا تصديقا].

(٢) فى القشيري : [أمرت السهاد بتعذيبها]. والبيت منسوب إلى سلم الخاسر ، كما فى نهاية الأرب (٢/ ٥٦) وفيه :

تقول وفى قولها حشمة أتبكي بعين ترانى بها

فقلت إذ استحسنت غيركم أمرت الدموع بتأديبها با أديبها

(٣) فى القشيري : والسبات. [.....]

معها – ومن خائنة أعين الموحّدين – أي : السائرين للتوحيد – أن يخرج منها قطرة دمع ، تأسفا على مخلوق يفوت من الدنيا والآخرة ، ومن خائنة الأعين : النظر إلى غير المحبوب بأى وجه كان ، ففى الخبر : «حبّك الشيء يعمى ويصمّ» «١» ، أي : يغيبك عن غيره ، فلا ترى إلا محاسن الحبيب ، وجماله فى مظاهر تجلياته ، وإليه يشير قول ابن الفارض رضي اللّه عنه :

عينى لغير جمالكم لا تنظر وسواكم فى خاطرى لا يخطر

وقوله تعالى : وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ قال القشيري : يقضى للأجانب بالبعاد ، ولأهل الوداد بالوصال ، ويقضى يوم القدوم بعدل «٢» عمال الصدود. هـ. أي : يعدل فى أهل الصدود عن حضرته ، فيجازيهم بنعيم الأشباح فقط. ثم قال : وإذا ذبح الموت غدا بين الجنة والنّار على صورة كبش أملح ، فلا غرو أن يذبح الفراق على رأس سكة الأحباب ، فى صورة شخص ، ويصلب على جذوع الغيرة ، لينظر إليه أهل الحضرة. هـ.

ثم أمر بالتفكر – الذي هو طريق النّجاة من كل ضرر – فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٢١ الى ٢٢]

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (٢١) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (٢٢)

قلت : (هم أشد) : ضمير فصل ، وحقه أن يقع بين معرفتين ، إلا أنّ (أشد) لمّا ضارع المعرفة فى كونه لا يدخله الألف واللام أجرى مجراها.

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي أقطار الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ أي : مآل من قبلهم من الأمم المكذّبة لرسلهم ، كعاد ، وثمود ، وأضرابهم ، كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً أي : قدرة وتمكنا من التصرف ، وَآثاراً فِي الْأَرْضِ وأشد تأثيرا فى الأرض ، ببناء القلاع الحصينة ،

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ١٩٤) وأبو داود فى (الأدب ، باب فى الهوى ٥/ ٣٤٦ ح ٥١٣٠) والخطيب فى تاريخ بغداد (٣/ ١١٧) من حديث أبى الدرداء رضي اللّه عنه.

(٢) فى القشيري : [بعزل] ، وهو أنسب.

والمدائن المتينة. وقيل : المعنى : وأكثر آثارا ، أي : ترك آثار فى الأرض ، كالحصون وغيرها. فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ أخذا وبيلا ، وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ أي : لم يكن لهم شيء يقيهم من عذاب اللّه. ذلِكَ الأخذ بِأَنَّهُمْ بسبب أنهم كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ بالمعجزات الدالة على صدقهم ، أو : بالأحكام الظاهرة الجلية ، فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ ، متمكن مما يريد غاية التمكن ، قادر على كل شيء ، شَدِيدُ الْعِقابِ لا يؤبه عند عقابه بعقاب.

الإشارة : قال القشيري : أولم يسيروا بنفوسهم فى أقطار الأرض ، ويطوفوا مشارقها ومغاربها ، فيعتبروا بها ، فيذهبوا فيها؟ ويسيروا بقلوبهم فى الملكوت بجولان الفكر ، فيشهدوا أنوار التجلي ، فيستبصروا بها؟ ويسيروا بأسرارهم فى ساحات الصمدية ، فيستهلكوا فى سلطان الحقائق ، ويتخلّصوا من جميع المخلوقات قاصيها ودانيها؟

ثم قال : قوله تعالى : ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ ، إن بغى من أهل السلوك ، قاصد لهم يصل إلى مقصوده ، فليعلم أنّ موجب حجبته اعتراض خامر قلبه على بعض شيوخه ، فى بعض أوقاته ، فإنّ الشيوخ بمحلّ السفير للمريدين. وفى الخبر : «الشيخ فى أهله كالنبىّ فى أمته» «١». هـ.

ثم سلّى نبيه بقصة موسى عليه السّلام ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٢٣ الى ٢٧]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٢٥) وَقالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ (٢٦) وَقالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ (٢٧)

---

(١) عزاه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ٤٩٦٩ - ٤٩٧٠) للخليلى فى مشيخته ، وابن النّجار ، عن أبى رافع. وابن حبان فى الضعفاء ، والشيرازي فى الألقاب ، عن ابن عمر. والحديث ضعيف. وقال الشوكانى فى الفوائد (٢٨٦) : جزم ابن حجر وغيره بأنه موضوع. وانظر : تنزيه الشريعة (١/ ٢٠٧) الشذرة فى الأحاديث المشتهرة للصالحى (١/ ٣٥٢).

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا معجزاته التسع وَسُلْطانٍ مُبِينٍ أي : حجة قاهرة ، وهى

: إما عين الآيات ، والعطف لتغاير العنوانين ، فكونها آيات من جهة خرق العادة ، وكونها حجة من حيث الدلالة على صدق صاحبها ، وإما أن يريد بالسلطان بعض مشاهيرها ، كالعصا ، أفردت بالذكر مع اندراجها تحت الآيات لعظمها. وقال ابن عرفة : الآيات : المعجزات ، والسلطان المبين ، راجع إلى التحدي بها ، فهو من قبيل الإدعاج «١» ، أو : يكون السلطان راجعا إلى ظهورها إذ ليس من شرطها الظهور ، أو : يرجع إلى نتيجتها ، وهو الغلبة والنّصر. هـ.

أرسل إِلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارُونَ ، فَقالُوا فيما أظهره ، أو : فيما ادّعاه من الرّسالة : هو ساحِرٌ كَذَّابٌ. فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا وهو الوحى والرّسالة ، قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أي : صبيانهم الذكور ، وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ للخدمة ، أي : أعيدوا عليهم القتل الذي كنتم تفعلونه أولا ، وكان فرعون قد كفّ عن قتل الولدان لئلا تعطل خدمته ، فلما بعث عليه السّلام ، وأحسّ بأنه قد وقع ما توقع ، أعاده عليهم غيظا ، وحمقا ، وزعما منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرته. وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ فى ضياع وبطلان ، فإنهم باشروا قتلهم أولا ، فما أغنى عنهم ، ونفذ قضاء اللّه بإظهار من خافوه ، فما يغنى عنهم هذا القتل الثاني ، فلم يعلم أن كيده ضائع فى الكرّتين ، واللام : إما للعهد المتقدم ، والإظهار فى موضع الإضمار لذمهم بالكفر ، والإشعار بعلة الحكم ، أو : للجنس ، وهم داخلون فيه دخولا أوليّا. والجملة : اعتراض جيء بها فى تضاعيف ما حكى عنهم من الأباطيل للمسارعة إلى بيان بطلان ما أظهروه من الإبراق والإرعاد الذي لا طائل تحته.

وَقالَ فِرْعَوْنُ لملئه : ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى ، وكان ملؤه إذا همّ بقتله كفّوه ، وقالوا : ليس بالذي تخافه ، وهو أقل من ذلك ، وما هو إلا ساحر ، وإذا قتلته أدخلت شبهة على النّاس ، واعتقدوا أنك عجزت عن معارضته بالحجة ، والظاهر من دهاء اللعين ونكارته أنه قد استيقن أنه نبىّ ، وأن ما جاء به آيات باهرة ، وما هو بسحر ، ولكن كان يخاف إن همّ بقتله أن يعاجل بالهلاك ، وكان قوله تمويها على قومه ، وإيهاما أنهم هم الكافون عن قتله ، ولو لاهم لقتله ، وما كان يكفه إلا ما فى نفسه من الفزع الهائل. وقوله : وَلْيَدْعُ رَبَّهُ تجلد منه وإظهار لعدم المبالاة بدعائه ، ولكنه أخوف ما يخافه.

---

(١) هكذا.

ثم قال : إِنِّي أَخافُ إن لم أقتله أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أي : يغير ما أنتم عليه من الدين ، وهو عبادتهم له وللأصنام لتقربهم إليه ، أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ أي : ما يفسد دنياكم من التحارب والتهارج إن

لم يقدر على تبديل دينكم بالكلية. والحاصل : أنه قال : أخاف أن يفسد عليكم دينكم ، بدعوته إلى دينه ، أو : يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من التقاتل والتهارج ، الذي يذهب معه الأمن ، وتتعطل المزارع والمكاسب والمعايش.

وَقالَ مُوسى لمّا سمع ما أجراه من الحديث فى قتله لقومه : إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ ، صدّر عليه السّلام كلامه بأنّ تأكيدا له ، وإظهارا لمزية الاعتناء بمضمونه ، وفرط الرّغبة.

وخص اسم الرّب المنبئ عن الحفظ والتربية إذ بهما يقع الحفظ.

وفى قوله : وَرَبِّكُمْ حث لهم على أن يقتدوا به ، فيعوذوا باللّه عياذته ، ويعتصموا بالتوكّل اعتصامه ، ولم يسمّ فرعون ، بل ذكره بوصف يعمه وغيره من الجبابرة لتعميم الاستعاذة ، والإشعار بعلة القساوة والجرأة على اللّه تعالى ، وهو التكبر. قال ابن عرفة : أشار إلى أن كفره لم يكن لأجل أن موسى لم يأت بدليل ولا معجزة ، ولم يكن أيضا لخفاء تلك المعجزة ، وعدم ظهورها ، بل كان لجحود التعنت والتكبر ، والإباية عن الانحطاط من سلطنة الملك إلى رتبة الاتّباع. هـ. وقال : لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ لأنه إذا اجتمع فى الرّجل التجبر والتكذيب بالجزاء ، وقلة المبالاة بالعاقبة ، فقد استكمل أسباب القوة والجرأة على اللّه وعباده ، والعياذ باللّه.

الإشارة : قال القشيري : كان موسى عليه السّلام أكرم خلقه فى وقته ، وكان فرعون أخسّ خلقه فى وقته إذ لم يقل أحد : ما علمت لكم من إله غيرى ، فأرسل أخصّ عباده إلى أخسّ عباده. ثم إن فرعون سعى فى قتل موسى ، واستعان على ذلك بخيله ورجله ، ولكن كما قال تعالى : وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ ، وإذا حفر أحد لوليّ اللّه حفرة ، ما وقع فيها غير حافرها ، كذلك أجرى الحقّ سنّته. هـ.

ثم ذكر موعظة مؤمن آل فرعون لقومه ، فقال :

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٢٩

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٢٨ الى ٢٩]

وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلاَّ ما أَرى وَما أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشادِ (٢٩)

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ ، قيل : كان قبطيا ، ابن عمّ لفرعون ، آمن بموسى سرّا ،

وقيل : كان إسرائيليا موحّدا ، وهو المراد بقوله : وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى «١» ، قال ابن عباس : اسمه حزقيل. وقال ابن إسحاق : جبرل ، وقيل : سمعان. وقيل : حبيب «٢». ومِنْ آلِ فِرْعَوْنَ : صفة ثانية لرجل ، أو :

صلة ليكتم ، أي : يَكْتُمُ إِيمانَهُ من فرعون وملائه : أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أي : أتقصدون قتله كراهة أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وحده ، من غير روية ولا تأمل فى أمره؟ وهذا إنكار منه عليهم ، كأنه قال : أترتكبون هذه الفعلة الشنعاء – وهى قتل نفس محرمة – من غير حجة ، غير قوله الحق ، وإقراره بالتوحيد؟ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ أي :

والحال أنه جاءكم بالمعجزات الظاهرة ، التي شاهدتموها وعاهدتموها من ربكم ، يعنى أنه لم يكتف ببينة واحدة ، بل جاء ببينات كثيرة مِنْ عند رَبِّكُمْ ، أضافه إليهم ، استنزالا لهم عن رتبة المكابرة ، واستدراجا للاعتراف.

ثم أخذهم بالاحتجاج فقال : وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، لا يتخطى وبال كذبه إلى غيره ، فيحتاج فى دفعه إلى قتله ، وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ من العذاب ، احتج عليهم بطريق التقسيم لأنه لا يخلو ، إما أن يكون كاذبا أو صادقا ، فإن كان كاذبا فوبال كذبه عليه ، وإن كان صادقا يصبكم قطعا بعض ما يعدكم من العذاب ، ولم يقل : كل الذي يعدكم ، مع أنه وعد من نبىّ صادق ، مداراة لهم وسلوكا لطريق الإنصاف ، فجاء بما هو أقرب إلى تسليمهم له ، فكأنه قال : إن لم يصبكم الجميع يصبكم البعض ، وليس فيه نفى لإصابة الكل ، فكأنه قال : أقلّ ما فيه أن يصيبكم بعض ما يعدكم ، وهو العذاب العاجل ، وفى ذلك هلاككم ، وكان وعدهم عذاب الدنيا والآخرة. وتفسير البضع بالكل مزيّف. إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ، هذا احتجاج آخر ذو وجهين أحدهما : أنه لو كان مسرفا كذابا لما هداه اللّه إلى النّبوة ، ولما عضده بتلك البينات ، وثانيهما : إن كان كذلك خذله اللّه وأهلكه ، فلا حاجة إلى قتله. وقيل : أوهم أنه يريد بالمسرف موسى ، وهو يعنى به فرعون ، ويحتمل أن يكون من كلام اللّه – تعالى – اعتراضا بين أجزاء وعظه ، إخبارا بما سبق لهم من الشقاء ، فلا ينفع فيهم الوعظ.

---

(١) من الآية ٢٠ من سورة يس.

(٢) انظر هذه الأقوال فى تفسير القرطبي (٧/ ٥٩٢١) والبغوي (٧/ ١٤٦).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٣٠

ثم قال : يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ حال كونكم ظاهِرِينَ غالبين عالين على بنى إسرائيل فِي الْأَرْضِ أرض مصر ، لا يقاومكم أحد فى هذا الوقت ، فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا يعنى : إن لكم اليوم ملك مصر ، وقد علوتم النّاس ، وقهرتموهم ، فلا تسرفوا على أنفسكم ، ولا تتعرضوا لبأس اللّه ، أي : عذابه فإنه لا طاقة لكم به إن جاءكم ، ولا يمنعكم منه أحد. وإنما نسب ما يسرهم من الملك والظهور فى الأرض إليهم خاصة ، ونظم نفسه فيما يسوؤهم ، من مجيء بأس اللّه تعالى ، إمحاضا للنصح ، وإيذانا بأن الذي ينصحهم به هو مساهم لهم فيه.

قالَ فِرْعَوْنُ بعد ما سمع نصحه لقومه : ما أُرِيكُمْ أي : ما أشير عليكم إِلَّا ما أَرى وأستصوبه من قتل موسى ، يعنى : لا أستصوب إلا قتله ، وهذا الذي تقولونه غير صواب ، وَما أَهْدِيكُمْ بهذا الرّأى إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ أي : الصواب ، ولا أعلنكم إلا ما أعلم ، ولا أسرّ عنكم شيئا خلاف ما أظهر ، يعنى : أن لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول ، وقد كذب اللعين ، فقد كان مضمرا للخوف الشديد من جهة موسى عليه السّلام ، ولكنه كان يتجلّد ، ولو لا استشعاره للخوف لم يستشر أحدا فى قتله ، وقد كان سفّاكا جبارا ، فما منعه إلا خوف الهلاك إن مدّ يده إليه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قال القشيري : قد نصح وأبلغ مؤمن آل فرعون ، واحتجّ عليهم ، فلم ينجع فيهم قوله ، وأعاد عليهم نصحه فلم يسمعوا ، وكان كما قيل :

وكم سقت فى آثاركم من نصيحة وقد يستفيد البغضة المستنصح «١»

ثم قال تعالى :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٣٠ الى ٣٣]

وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ (٣١) وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٣)

---

(١) البيت للعباس بن الفرج الرّياشى. انظر الكامل للمبرد (٢/ ٣٩٢) وفيه : وكم صغت فى آثاركم ...

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٣١

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِي آمَنَ مخاطبا قومه : يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ فى تكذيب موسى ،

والتعرض له بسوء ، مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ أي : مثل أيام الأمم الماضية المتحزبة على رسلها ، يعنى وقائعهم. وجمع الأحزاب مع التفسير أغنى عن جميع اليوم ، أي : بالإضافة ، وفسره بقوله :

مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ كقوم لوط وشعيب ، لم يلبس أنّ كلّ حزب منهم كان له يوم دمار ، فاقتصر على الواحد من الجمع. ودأب هؤلاء : دؤوبهم فى عملهم من الكفر ، والتكذيب ، وسائر المعاصي ، حتى دمّرهم اللّه. ولا بد من حذف مضاف ، أي : مثل جزاء دأبهم – وهو الهلاك.

و(مثل) الثاني :

عطف بيان لمثل الأولى. وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ فلا يعاقبهم بغير ذنب ، أو : يزيد على ما يستحقونه من العذاب ، يعنى أن تدميرهم كان عدلا لأنهم استحقوه بأعمالهم ، وهو أبلغ من قوله : وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ «١» حيث جعل المنفي إرادة الظلم منّكرا ، وإذا بعد عن إرادة ظلم ما لعباده كان عن الظلم أبعد وأبعد. وتفسير المعتزلة :

بأنه لا يريد لهم أن يظلموا ، بعيد لأن أهل اللغة قالوا : إذا قال الرّجل لآخر : لا أريد ظلما لك ، معناه : لا أريد أن أظلمك ، وهذا تخويف بعذاب الدنيا. ثم خوّفهم من عذاب الآخرة بقوله :

وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ أي : يوم القيامة لأنه ينادى فيه بعضهم بعضا للاستغاثة ، ويتصايحون بالويل والثبور ، وينادى أصحاب النّار أصحاب الجنة ، وأصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم ، وعن الضحاك : إذا سمعوا زفير النّار ندّوا هربا ، فلا يأتون قطرا من الأقطار ، إلا وجدوا ملائكة صفوفا ، فيرجعون إلى مكانهم ، فبينهما هم يموج بعضهم فى بعض ، إذ سمعوا مناديا : أقبلوا إلى الحساب. أو : ينادى مناد عند الميزان : ألا إن فلانا بن فلان سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا ، ألا إن فلان بن فلان شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدا. قال ابن عطية :

المراد التذكير بكلّ نداء فى القيامة فيه مشقة على الكفار والعصاة ، وذلك كثير. هـ.

ثم أبدل من يوم التناد : قوله : يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ أي : منصرفين عن القوم إلى النّار ، أو : فارّين منها غير معاجزين ، ما لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ يعصمكم من عذابه ، ولمّا أيس من قبولهم قال : وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ يهديه إلى طريق النّجاة.

الإشارة : ينبغى للواعظ والمذكّر إذا ذكّر العصاة أن يخوفهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، كما فعل مؤمن آل فرعون ، أما عذاب الدنيا فما يلحق العاصي من الذل والهوان عند اللّه ، وعند عباده ، وما يلحقه إن طال عمره من المسخ وأرذل العمر ، فإنّ المعاصي فى زمن الشباب تجر الوبال إلى زمن الهرم ، كما أن الطاعة فى حال الشباب

---

(١) من الآية ٤٦ من سورة فصلت.

تجر الحفظ والرّعاية إلى حال الكبر ، وأما عذاب الآخرة فمعلوم ، ثم يحضّ على التوبة والإقلاع ، فإنّ التائب الناصح ملحق بالطائع ، فلا يلحقه شيء من ذلك. وباللّه التوفيق.

ثم وبّخهم بما تعودوا من تكذيب الرّسل ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٣٤ الى ٣٥]

وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)

قلت : (الذين يجادلون) : بدل من (من هو) ، وإنما جمع لأنه لم يرد مسرفا واحدا ، بل كلّ مسرف.

يقول الحق جل جلاله ، حاكيا لقول المؤمن : وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ ، هو ابن يعقوب ، وقيل : يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب ، أقام فيهم نبيا عشرين سنة «١» ، وقال وهب : فرعون موسى هو فرعون يوسف ، عمّر إلى زمنه ، وقيل : هو فرعون آخر لأن كلّ من ملك مصر يقال له فرعون ، وهذا أظهر.

وقول الجلال المحلى :

هو يوسف بن يعقوب فى قول ، عمّر إلى زمنه ، سهو. وإنما قيل ذلك فى فرعون لا فى يوسف.

قلت : والتحقيق : أنه وبّخهم بما فعل أسلافهم لأنهم على منوالهم ، راضون بما فعلوا ، فالمراد بيوسف ، هو الصّدّيق ، فما زالوا مترددين فى رسالته حتى مات ، واستمر خلفهم على ذلك إلى زمن موسى ، وقوله تعالى : مِنْ قَبْلُ أي : من قبل موسى ، أي : جاءكم يوسف بِالْبَيِّناتِ بالمعجزات الواضحة ، كتعبير الرّؤيا ، ودلائل التوحيد ، كقوله : أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ ... «٢» الآية ، وملكه أموالهم ورقابهم فى زمن المسغبة ، وغير ذلك مما دلّ على رسالته. فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ من الدين حَتَّى إِذا هَلَكَ بالموت قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ، حكما ، من عند أنفسكم ، من غير برهان ، أي : أقمتم على كفركم ، وظننتم أن لا يجدّد عليكم إيجاب الحجة.

---

(١) ذكره القرطبي (٧/ ٥٩٢٨) عن ابن عباس رضي اللّه عنه. وجاء فى البحر المحيط (٧/ ٤٤٥) والنّسفى (٣/ ٢١٠) «ابراهيم» بدلا من «إفرائيم».

(٢) من الآية ٣٩ من سورة يوسف.

قال القشيري : يقال : إن تكذيبهم وتكذيب سلفهم للأنبياء – عليهم السّلام – كان قديما حتى أهلكهم ، كذلك يفعل بهؤلاء «١». هـ.

كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ أي : مثل ذلك الإضلال الفظيع يضل اللّه من هو مسرف فى عصيانه ، شاكّ فى دينه ، لم يتفكر فيما شهدت البينات بصحته لغلبة الوهم ، والانهماك فى التقليد.

ثم فسّره فقال : الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بالرد والإبطال بِغَيْرِ سُلْطانٍ بغير حجة واضحة ، تصلح للتمسك بها فى الجملة ، أَتاهُمْ : صفة لسلطان ، أي : بغير برهان جاءهم بصحة ذلك ، كَبُرَ مَقْتاً أي : عظم بغضا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ، وفيه ضرب من التعجب والاستعظام. وفى «كبر» ضمير يعود على «من» وتذكيره باعتبار اللفظ. كَذلِكَ أي : مثل ذلك الطبع الفظيع يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ فيصدر منه أمثال ما ذكر من الإسراف ، والارتياب ، والمجادلة بالباطل. ومن قرأ بالتنوين «٢» فوصف لقلب ، وإنما وصف بالتكّبر والتجبّر لأنه منبعهما ، كما تقول : سمعت الأذن ، كقوله : فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ «٣» وإن كان الإثم للجملة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : يقال لأهل كلّ عصر : ولقد جاءكم فلان – لولىّ تقدم قلبهم – بالآيات الدالة على صحّة ولايته ، فما زلتم ، أي : ما زال أسلافكم من أهل عصره – فى شك منه ، حتى إذا مات ظهرت ولايته ، وأقررتم بها ، وقلتم : لن يبعث اللّه من بعده وليّا ، وهذه عادة العامة ، يقرون الأموات من الأولياء ، وينكرون الأحياء. وهى نزعة أهل الكفر والضلال ، كذلك يضل اللّه من هو مسرف مرتاب ، كالذين يخاصمون فى ثبوت الخصوصية عند أربابها ، من غير برهان ، وهو شأن المنكرين ، كذلك يطبع اللّه على كلّ قلب متكبر جبار.

ثم ذكر عتو فرعون وطغيانه ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٣٦ الى ٣٧]

وَقالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ (٣٦) أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبابٍ (٣٧)

---

(١) بالمعنى.

(٢) قرأ أبو عمر (قلب) بالتنوين فى الباء على قطع «قلب» عن الإضافة ، وجعل التكبر والجبروت صفته ، وقرأ الباقون بغير تنوين بإضافة «قلب» إلى ما بعده. واختلف عن ابن عامر. انظر الإتحاف (٢/ ٤٣٧).

(٣) من الآية ٣٨٣ من سورة البقرة.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ فِرْعَوْنُ ، تمويها على قومه ، وجهلا منه : يا هامانُ وزيره ابْنِ لِي صَرْحاً أي : قصرا عاليا ، وقيل : الصرح : البناء الظاهر الذي لا يخفى على النّاظر وإن بعد منه.

يقال : صرح الشيء : إذا ظهر. لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ أي : الطرق. ثم أبدل منها تفخيما لشأنها ، وإظهارا أنه يقصد أمرا عظيما :

أَسْبابَ السَّماواتِ أي : طرقها وأبوابها ، وما يؤدّى إليها ، وكلّ ما أدّاك إلى الشيء فهو سبب إليه ، فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى أي : فأنظر إليه وأتحقق وجوده ، قرأه حفص بالنصب ، جواب التمني ، والباقي بالرفع ، عطفا على «أبلغ». قال البيضاوي : ولعله أراد أن يبنى له صرحا فى موضع عال ، يرصد منه أحوال الكواكب ، التي هى أسباب سماوية ، تدلّ على الحوادث الأرضية ، فيرى هل فيها ما يدّل على إرسال اللّه تعالى إياه ، أو أن يرى فساد قوله عليه السّلام فإنّ إخباره عن إله السماء يتوقف على اطلاعه ووصوله إليه ، وذلك لا يتأتى إلا بالصعود للسماء ، وهو مما لا يقوى عليه الإنسان ، وما ذلك إلا لجهله باللّه وكيفية استنبائه. هـ.

قلت : والظاهر أنه كان مجسّما ، يعتقد أن اللّه فى السماء ، وأن اطلاعه إليه إنما كان ليرى هل ثم إله ، وإن قوله :

وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً أي : فى ادّعاء إله غيرى ، بدليل قوله : ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي «١» مع أنّ هذا كله إنما هو تمويه منه على قومه ، وجرأة على اللّه ، لا حقيقة له.

قال تعالى : وَكَذلِكَ أي : ومثل ذلك التزيين المفرط ، والصدّ البليغ ، زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ فانهمك فيه انهماكا لا يرعوى عنه بحال ، وَصُدَّ «٢» عَنِ السَّبِيلِ أي : سبيل الرّشاد ، وقرأ الكوفيون ويعقوب «وصدّ» بالبناء للمفعول ، فالفاعل فى الحقيقة فيهما هو اللّه ، بتوسط الشيطان فى عالم الحكمة ، ومن قرأ «صدّ» بالبناء للفاعل ، فالفاعل : فرعون ، إما صدّ النّاس عن طريق الحق بأمثال هذه التمويهات ، أو : اتصف بالصدّ. وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ أي : خسران وهلاك.

الإشارة : ما ظهر على فرعون هو من طغيان النّفس وعتوها ، فإنّ النّفس إذا اتصلت بها العوافي ، وساعدتها أقدار الجمال فى الظاهر ، ادّعت الرّبوبية ، فإنّ فرعون قيل : إنه عاش أربعمائة سنة ، لم يتوجع فيها قط ، فادعى الربوبية ، ولذا قال بعض الصوفية : فى النّفس خاصية ما ظهرت إلا على فرعون ، حين قال : أنا ربكم الأعلى ، فكان

---

(١) من الآية ٣٨ من سورة القصص. [.....]

(٢) قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : (و صدّ) بضم الصاد. وقرأ الباقون بالفتح. انظر الحجة للفارسى (٦/ ١١٢).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٣٥

نزول الأقدار القهرية والبلايا على العبد ، رحمة عظيمة ، تتحقق بها العبودية ، التي هى شرف العبد ورفعته. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر بقية وعظ المؤمن ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٣٨ الى ٤٠]

وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ (٣٨) يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ (٤٠)

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِي آمَنَ أي : مؤمن آل فرعون : يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ فيما دللتكم عليه ، أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ أي : طريقا يوصل صاحبه إلى المقصود. والرّشاد : ضد الغىّ ، وفيه تعريض بأن ما يسلكه فرعون وقومه سبيل الغىّ والضلال.

يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ أي : تمتع يسير لسرعة زوالها ، فالإخلاد إليها أصل الشر ، ومنبع الفتن ، ومنه يتشعب فنون ما يؤدى إلى سخط اللّه. أجمل له أولا ، ثم فسّر ، فاستفتح بذم الدنيا ، وتصغير شأنها ، ثم ثنّى بتعظيم الآخرة ، وبيّن أنها هى الموطن والمستقر بقوله : وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ لخلودها ، ودوامها ، ودوام ما فيها. قال ابن عرفة : التمتع بالدنيا مانع من الزهد ، وكون الآخرة دار مستقر يقتضى وجود الحرص على أسباب الحصول فيها. هـ.

ثم ذكر الأعمال التي تبعد عنها أو تقرب إليها ، فقال : مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فى الدنيا فَلا يُجْزى فى الآخرة إِلَّا مِثْلَها عدلا من اللّه تعالى. قال القشيري : له مثلها فى المقدار ، لا فى الصفة لأن الأولى سيئة ، والمكافأة حسنة ليست بسيئة. هـ. وقال ابن عرفة : فى توفيه مماثلة العذاب الأبدى على كفر ساعة تتصور المماثلة ، إما باعتبار نيته الكفر دواما ، وإما بأن يقال : ليس المراد المماثلة عقلا ، بل المماثلة شرعا. وفى الإحياء : قال الحسن :

إنما خلّد أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النّار ، فى النّار ، بالنية ، وهو – واللّه أعلم – مقتبس من قوله تعالى : أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ «١» هـ. قاله المحشى.

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة إبراهيم.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٣٦

وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ الذين عملوا ذلك يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ أي : بغير تقدير ، وموازنة بالعمل ، بل بأضعاف مضاعفة ، فضلا من اللّه – عز وجل – ورحمة. قال القشيري : أي : مؤبدا مخلدا ، لا يخرجون من الجنة ، ولا مما هم عليه من الحال. هـ. وجعل العمل عمدة ، والإيمان حالا للإيذان بأنه لا عبرة بالعمل بدونه ، وأنّ ثوابه أعلى من ذلك.

الإشارة : قال الورتجبي : سبيل الرّشاد : طريق المعرفة ، ومعرفة اللّه تعالى : موافقته ومتابعة أنبيائه وأوليائه ، ولا تحصل الموافقة إلا بترك مراد النّفس ، ولذلك قال : يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ. قال محمد بن على الترمذي : لم تزل الدنيا مذمومة فى الأمم السابقة ، عند العقلاء منهم ، وطالبوها مهانين عند الحكماء الماضية ، وما قام داع فى أمة إلا حذّر متابعة الدنيا وجمعها والحب لها ، ألا ترى مؤمن آل فرعون كيف قال : اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ ، كأنهم قالوا : وما سبيل الرّشاد؟ قال : إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ أي : لن تصل إلى سبيل الرّشاد وفى قلبك محبة الدنيا وطلب لها. هـ.

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٤١ الى ٤٦]

وَيا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَلا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (٤٤) فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ (٤٦)

يقول الحق جل جلاله ، حاكيا عن المؤمن : وَيا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ إلى السلامة من النار ، وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ بسلوك أسبابها. كرر نداءهم إيقاظا لهم عن سنة الغفلة ، واعتناء بالمنادى به ، ومبالغة فى توبيخهم ، وفيه أنهم قومه ، وأنه من آل فرعون ، وجيء بالواو فى النّداء الثالث ، دون الثاني لأن الثاني

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٣٧

داخل فى كلام هو بيان للمجمل وتفسير له ، بخلاف الثالث. ومدار التعجب الذي يلوح به الاستفهام هو دعوتهم إياه إلى النّار ، لا دعوته إياهم إلى النّجاة ، كأنه قيل : أخبرونى كيف هذا الحال أدعوكم إلى الخير وتدعوننى إلى الشر؟

تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ هو بدل من تَدْعُونَنِي الأول ، وفيه تعليل ، والدعاء يتعدّى باللام وبإلى ، كالهداية ، وَأُشْرِكَ بِهِ وتدعوننى لأشرك به ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ أي : بربوبيته ، والمراد بنفي العلم : نفى المعلوم ، كأنه قال : وأشرك به شيئا ليس بإله ، وما ليس بإله كيف يصحّ أن يعلم إلها؟ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ أي : إلى اللّه الجامع لصفات الألوهية ، من كمال القدرة والغلبة ، وما يتوقف عليه من العلم والإرادة إذ بالقدرة يتمكن من المجازاة بالتعذيب ، أو الإحسان بالغفران.

لا جَرَمَ لا شك ، أو : حقا ، وقال البصريون : «لا» نفى رد لما دعوه إليه ، و«جرم» : فعل ، بمعنى : حقّ ، و«أن» مع «ما» فى حيزه فاعل ، أي : حق ووجب أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَلا فِي الْآخِرَةِ أي : وجب عدم دعوة آلهتكم إلى عبادتها ، والظاهر : أن «جرم» من الجرم ، وأراد به هنا الكذب ، أي : لا كذب فى أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة .. إلخ ، فقد يضمن الفعل معنى المصدر ، وتدخل «لا» النافية للجنس عليه ، والمعنى : أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة إلى نفسه قط ، ومن حق المعبود بالحق أن يدعو العباد إلى طاعته ، وما تدعوننى إليه لا يدعو هو إلى عبادته ، ولا يدّعى الرّبوبية ، أو : معناه : ليس له استجابة دعوة فى الدنيا والآخرة ، أو : دعوة مستجابة. جعلت الدعوة التي لا استجابة لها ، ولا منفعة ، كلا دعوة. وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ أي : رجوعنا إليه بالموت ، وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ فى الضلال والطغيان ، كالإشراك وسفك الدماء ، هُمْ أَصْحابُ النَّارِ أي : ملازموها.

فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ من النّصائح عند نزول العذاب ، وَأُفَوِّضُ أسلّم أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ، قاله لمّا توعدوه. إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ فيحرس من يلوذ به من المكاره.

فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا شدائد مكرهم ، وما همّوا به من إلحاق أنواع العذاب لمن خالفه ، وقيل : إنه خرج من عندهم هاربا إلى جبل ، فبعث قريبا من ألف فى طلبه ، فمنهم من أكلته السباع ، ومن رجع منهم صلبه فرعون. وقيل : لمّا وصلوا إليه ليأخذوه ، وجدوه يصلّى ، والوحوش حوله ، فرجعوا رعبا ، فقتلهم. وقال مقاتل : لمّا قال المؤمن هذه الكلمات ، قصدوا قتله ، فوقاه اللّه من مكرهم ، أي : بعد تفويض أمره إلى اللّه ، فقيل : إنه نجا مع موسى فى البحر. هـ. وَحاقَ نزل بِآلِ فِرْعَوْنَ أي : بفرعون وقومه. وعدم التصريح به ، للاستغناء بذكرهم عن ذكره ، ضرورة أنه أولى منهم بذلك ، وسُوءُ الْعَذابِ الغرق والقتل والنّار.

(١٣٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٣٨

وقوله تعالى : النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا : جملة مستأنفة ، مسوقة لبيان سوء العذاب ، والنّار : خبر عن محذوف ، كأن قائلا قال : ما سوء العذاب؟ فقيل : هو النّار ، أو : بدل من «سوء» ،

و«النار» : مبتدأ ، و«يعرضون» :
خبر ، وعرضهم عليها : إحراقهم ، يقال : عرض الإمام الأسارى على السيف : إذا قتلهم به. وذلك لأرواحهم ، كما روى ابن مسعود : أن أرواحهم فى أجواف طير سود ، تعرض على النّار – أي : تحرق بها – بكرة وعشيا ، إلى يوم القيامة «١». وتخصيص الوقتين إما لأنهم يعذّبون فى غيرهما بجنس آخر ، أو : يخفف عنهم ، أو : يكون غدوا وعشيا عبارة عن الدوام.
هذا فى الدنيا فى عالم البرزخ ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يقال للخزنة : أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ ، من الإدخال الرباعي ، ومن قرأ : ادخلوا «٢» ، ثلاثيا ، فعلى حذف النّداء ، أي : ادخلوا يا آل فرعون أَشَدَّ الْعَذابِ أي : عذاب جهنم ، فإنه أشدّ مما كانوا فيه. أو : أشد عذاب النّار فإنّ عذابها ألوان ، بعضه أشد من بعض ، وهذه الآية دليل على عذاب القبر فى البرزخ ، وهو ثابت فى الأحاديث الصحاح.
الإشارة : النجاة التي دعاهم إليها : هى الزهد فى الدنيا ، وفى التمتع بها مع الاشتغال باللّه. والنّار التي دعوه إليها : هى الاشتغال بمتعة الدنيا مع الغفلة عن اللّه. لا جرم أنّ ما دعوه إليه لا منفعة له فى الدارين ، بل ضرره أقرب من نفعه. وقوله تعالى : وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ قال الورتجبي : [مرد المحبين «٣» إلى مشاهدته ، ومرد العارفين إلى الوصلة ، ومرد الكلّ إلى قضيات الأزلية.
قال حمدون القصّار : لا أعلم فى القرآن أرجى من قوله : وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ ، فقد حكى عن بعض السلف أنه قال : الكريم إذا قدر عفا ، وإنما يكون مرد العبد إلى ربه إذا أتاه على أمد الإفلاس والفقر ، لا أن يرى لنفسه مقاما فى إحدى الدارين ، وهو أن يكون فى الدنيا خاشعا لمن يذله ، ولا يلتفت إليه ، هاربا ممن يكرمه ويبره ، ويكون فى الآخرة طالبا لفضل اللّه ، مشفقا من حسناته أكثر من إشفاق الكفار عن كفرهم. هـ. قلت : هذا مقام العباد والزهاد ، وأما العارفون فلا يرون إلا اللّه ، فيلقون اللّه باللّه ، غائبون عن إحسانهم وإساءتهم.
وقوله تعالى : فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ هكذا يقول الواعظ إن لم ينفع وعظه ، ويفوض أمره وأمرهم إلى اللّه فإنّ اللّه بصير بهم. وقال بعضهم : وأفوض أمرى فى الدنيا والآخرة إلى اللّه ، فهو بصير بعجزي وضعفى عن

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٦٥٩) لعبد الرّزاق وابن أبى حاتم.
(٢) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر (ادخلوا) بهمزة وصل ، وضم الخاء ، وقرأ الباقون بقطع الهمزة المفتوحة ، وكسر الخاء ، أمر للخزنة. انظر الإتحاف (٢/ ٤٣٨).
(٣) ما بين المعقوفتين غير موجود فى الأصول ، وأثبته من عرائس البيان للشيرازى.

رد القضاء والقدر ، والتفويض : ألا يرى لنفسه ، ولا للخلق جميعا ، قدرة على النّفع والضر ، فيرى اللّه بإيجاد الموجود فى جميع الأنفاس ، بنعت المشاهدة والحال ، لا بنعت العلم والعقل. وقال بعضهم : التفويض : قبل نزول القضاء ، والتسليم : بعد نزول القضاء. وقال ذو النّون حين سئل عنه : متى يكون العبد مفوضا؟ قال : إذا أيس من فعله ونفسه ، والتجأ إلى اللّه فى جميع أحواله ، ولم تكن له علاقة سوى ربه. هـ. أي : لم يكن له تعلق إلا باللّه. فالمقامات ثلاث :

التفويض قبل النّزول ، والرّضا بعده بالمجاهدة ، والتسليم بلا مجاهدة.

وقوله تعالى : فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا هذه نتيجة التفويض ، فكلّ من فوّض أمره إلى اللّه فيما ينزل به ، وقاه اللّه جميع المكاره ، وكلّ ما يخشى إن قطع عن قلبه التعلق بغير اللّه ، كما هو حقيقة التفويض. قال القشيري : أشدّ العذاب على الكفار : يأسهم عن الخروج ، وأما العصاة من المؤمنين فأشدّ عذابهم : إذا علموا أن هذا يوم لقاء المؤمنين. هـ. أي : وهم قد حرموا ذلك.

ثم ذكر احتجاج الكفار فى النّار ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٤٧ الى ٥٠]

وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ (٤٧) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ (٤٨) وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ (٤٩) قالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا بَلى قالُوا فَادْعُوا وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٥٠)

يقول الحق جل جلاله : وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ أي : واذكر لقومك وقت تخاصم الكفار فى النّار ، فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ منهم لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا وهم رؤساؤهم : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ، وهو جمع تابع ، كخادم وخدم ، أو : ذوى تبع ، على أنه مصدر ، أو : وصف به للمبالغة ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ أي : فهل أنتم دافعون ، أو : حاملون عنا جزءا من النّار؟ قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها ، التنوين عوض عن المضاف ، أي : كلنا فيها ، لا يغنى أحد عن أحد. وقرىء (كلا) بالنصب «١» على التأكيد ، وهو ضعيف لخلوه من

---

(١) قرأ بذلك ابن السميفع وعيسى بن عمر. انظر القرطبي (٧/ ٥٩٣٧) والبحر المحيط (٧/ ٤٤٨).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٤٠

الضمير. إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ قضى بينهم ، بأن أدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النّار النّار ، لا مرد له ، ولا معقب لحكمه ، فلا يغنى أحد عن أحد شيئا.

قال ابن عرفة : فى الآية لف ونشر ، فقوله تعالى : إِنَّا كُلٌّ فِيها راجع لقوله : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً أي : إنا قد حصلنا جميعا فى النّار ، فجوزى كلّ على قدر علمه ، أنتم على ضلالكم ، ونحن على إضلالنا إياكم. وقوله : إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ راجع لقوله : فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا وبهذا المعنى يتقرر الجواب. هـ.

وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ للقوّام بتعذيب أهلها ، وإنما لم يقل : لخزنتها لأن فى ذكر جهنم تهويلا وتفظيعا ، ويحتمل أنّ جهنم هى أبعد النّار قعرا ، من قوله : بئر جهّنام ، أي : بعيدة القعر ، وفيها أعتى الكفرة وأطغاهم ، أو : لكون الملائكة الموكّلين بعذاب أهلها أقدر على الشفاعة لمزيد قربهم من اللّه ، فلهذا تعمدوهم بطلب الدعوة ، فقالوا لهم : ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً أي : مقدار يوم من الدنيا مِنَ الْعَذابِ واقتصارهم فى الاستدعاء على ما ذكر فى تخفيف قدر يسير من العذاب فى مقدار قصير من الزمان ، دون رفعه رأسا ، أو :

تخفيف منه فى زمان مديد لأن ذلك عندهم ليس فى حيز الإمكان ، أو لا يكاد يدخل تحت أمانيهم.

قالُوا أي : الخزنة ، توبيخا لهم ، بعد مدة طويلة : أَوَلَمْ تَكُ أي : القصة تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ بالمعجزات ، يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟ أرادوا بذلك إلزامهم الحجة ، وتوبيخهم على إضاعة أوقات الدعاء ، وتعطيل أسباب الإجابة ، قالُوا أي : إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم ، فإنّ الدعاء لمن يفعل ذلك مما يستحيل صدوره منا. زاد البيضاوي : إذ لم يؤذن لنا فى الدعاء لأمثالكم ، وبحث معه أبو السعود بأنه يوهم أن المانع هو عدم الإذن ، وأنّ الإذن فى حيز الإمكان ، ولا تجوز الشفاعة فى كافر. انظره.

قال تعالى : وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ فى ضياع وبطلان ، لا يجابون فيه لأنهم دعوا فى غير وقته ، ويحتمل أن يكون من كلام الخزنة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الآية تجر ذيلها على كلّ من له جاه ، فدعا إلى سوء ، بمقاله أو حاله ، فتبعه العامة على ذلك ، فيتحاجون يوم القيامة ، فيقول المستضعفون : إنا كنا لكم تبعا. ف كل من أمر بسوء ، وفعل ، عوقب الآمر والمأمور ، وكلّ من فعل فعلا خارجا عن السنّة ، كالرغبة فى الدنيا ، والتكاثر منها ، فتبعه العامة على ذلك ، عوتب الجميع ، وباللّه التوفيق.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٤١

ثم وعد أهل الحق بالنصر ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٥١ الى ٥٢]

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (٥١) يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا بالحجّة والظفر ، والانتقام لهم من الكفرة ، بالاستئصال ، والقتل ، والسبي ، وغير ذلك من العقوبات. ولا يقدح فى ذلك ما يتفق لهم من صورة الغلبة ، امتحانا إذ الحكم للغالب ، وهذا كقوله تعالى : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا .. «١» الآية ، وقوله : كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي «٢». والنّصر فى الدنيا إما بالسيف ، فى حق من أمر بالجهاد ، أو : بالحجة والإهلاك فيمن لم يؤمر به ، وبذلك يندفع قول من زعم تخصيص الآية أو تعميمها ، وإخراج زكريا ويحيى من الرّسالة ، وإن ثبت لهما النبوة لقتلهما ، وأن الآية ، إنما تضمنت نصر الرّسل دون الأنبياء ، فإنه خلاف لما صرّح به الجمهور من ثبوت الرسالة ليحيى ، ففى كلام ابن جزى هنا نظر. قاله المحشّى.

وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ أي : وننصرهم يوم القيامة ، عبّر عنه بذلك للإشعار بكيفية النّصرة ، وأنها تكون حين يجتمع الأولون والآخرون ، ويحضره الأشهاد من الملائكة وغيرهم ، فيشهدون للأنبياء بالتبليغ ، وعلى الكفرة بالتكذيب. قال النّسفى : الأشهاد جمع شاهد ، كصاحب وأصحاب ، يريد : الأنبياء والحفظة ، فالأنبياء يشهدون عند رب العزة على الكفرة بالتكذيب ، والحفظة يشهدون على بنى آدم. هـ.

يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ : هو بدل من يَوْمَ يَقُومُ أي : لا يقبل عذرهم ، ومن قرأ بالتأنيث «٣» فباعتبار لفظ المعذرة ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ أي : البعد من الرّحمة ، وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ أي : سوء دار الآخرة ، وهو عذابها.

الإشارة : كما نصرت الرّسل بعد الامتحان ، نصرت الأولياء بعد الامتحان والامتكان. قال الشاذلى رضي اللّه عنه :

اللهم إنّ القوم قد حكمت عليهم بالذلّ حتى عزوا .. إلخ. وهم داخلون فى قوله : وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ،

---

(١) من الآية ١٧١ من سورة الصفات.

(٢) من الآية ٢١ من سورة المجادلة.

(٣) قرأ يَوْمَ لا يَنْفَعُ بالتذكير نافع ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وقرأ الباقون يوم لا تنفع بالتاء. انظر الحجة للفارسى (٦/ ١١٥).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٤٢

ونصرتهم تكون أولا بالظفر بنفوسهم ، ثم بالغيبة عن حس الكائنات ، باتساع دائرة المعاني ، ثم بالتصرف فى الوجود بأسره بهمته. قال القشيري : ويقال : ينصرهم على أعدائهم بلطف خفىّ ، وكيد غير مرئىّ ، من حيث يحتسب أو لا يحتسب ، كما ينصرهم فى الدنيا على تحقيق المعرفة ، واليقين بأنّ الكائنات من اللّه. ثم قال : غاية النصرة أن يقتل النّاصر عدوّ من ينصره ، [فإذا رآه حقق له] «١» أنه لا عدو له فى الحقيقة ، وأنّ الخلق أشباح ، وتجرى عليهم أحكام القدرة ، فالوليّ لا عدوّ له ولا صديق ، ليس له إلا اللّه. قال اللّه تعالى : اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا «٢» هـ. والنّصر فى الحقيقة هو التأييد عند التعرفات ، فإذا ابتلى الرّسول أو الوليّ أيّده اللّه باليقين ، ونصره بالمعرفة ، فيلقى ما ينزل عليه بالرضا والتسليم ، وتذكّر مالقى به الشاذلى حين دعا بالسلامة مما ابتلى به الرّسل ، متعللا بأنهم أقوى ، فقيل له : قل : وما أردت من شىء فأيّدنا كما أيدتهم. هـ.

ثم وعد نبيه بالنصر ، كما نصر موسى وغيره ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٥٣ الى ٥٦]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَأَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ (٥٣) هُدىً وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى ما يهتدى به من المعجزات ، أو الشرائع والصحف. وَأَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ أي : تركنا فيهم التوراة ، يرثه بعضهم من بعض ، أو : جنس الكتاب ، فيصدق بالتوراة والإنجيل والزبور لأنّ المنزّل عليه منهم. قال الطيبي : فيه إشارة إلى أن ميراث الأنبياء ليس إلا العلم والكتاب الهادي ، الناطق بالحكمة والموعظة. هـ. حال كون الكتاب هُدىً وَذِكْرى أي : هاديا ومذكّرا ، أو : إرشادا وتذكرة لِأُولِي الْأَلْبابِ لأولى العقول الصافية ، العالمين بما فيه ، العاملين به.

---

(١) عبارة القشيري : [فإذا أراد حتفه تحقق].

(٢) من الآية ٢٥٧ من سورة البقرة.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أي : فاصبر على ما يجرّعك قومك من الغصص إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ بنصرك وإعلاء دينك ، على ما نطق به قوله تعالى : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ «١» ، حَقٌّ لا يحتمل الاختلاف بحال. قال الطيبي : الآية تشير إلى نصره على أعدائه ، كموسى ، وأنه يظهر دينه على الدين كله ، ويورث كتابه ليعتصموا به ، فيكون لهم هدى وذكرى ، وعزا وشرفا. هـ. أي :

ولذلك قدّم ذكر موسى على بشارته بالنصر ليتم التشبيه.

وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ، تشريعا لأمتك فإنّ الاستغفار يمحو الذنوب التي تعوق عن النّصر ، أو : تداركا لما فرط منك من ترك الأولى فى بعض الأحايين ، فإنّ حسنات الأبرار سيئات المقربين. والحاصل : أن كلّ مقام له ذنب يليق به ، وهو التقصير فى القيام به على ما يليق به ، فالنبى صلّى اللّه عليه وسلم كلف بدوام الشهود ولو فى حال التعليم ، فإذا غاب عن الحق لحظة بشغل البال بالتعليم ، كان فى حقه نقصا يوجب الاستغفار. ثم قال : وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ أي : دم على التسبيح ملتبسا بحمده ، أي : قل : سبحان اللّه وبحمده ، أو : صلّ فى هذين الوقتين ، إذ كان الواجب بمكة ركعتين بكرة وعشيا ، وقيل : هما صلاة العصر والفجر ، خصصهما لشرفهما.

إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ ويجحدونها بِغَيْرِ سُلْطانٍ برهان أَتاهُمْ من جهته تعالى ، بل عنادا وحسدا. وتعليق المجادلة بذلك ، مع استحالة إتيانه للإيذان بأن التكلم فى أمر الدين لا بد من استناده إلى برهان ، وهذا عام لكلّ مجادل ، محق أو مبطل ، وإن نزل فى مشركى مكة. وقوله : إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ :

خبر «إنّ» ، أي : ما فى قلوبهم إلا تكبر عن الحق ، وتعاظم عنه ، وهو إرادة التقدم والرّئاسة ، وألا يكون أحد فوقهم ، فلذلك عادوك ، ودفعوا آياتك ، خيفة أن تتقدمهم ، ويكونوا تحت قهرك لأن النّبوة تحتها كلّ ملك ورئاسة ، أو : إرادة أن تكون لهم النّبوة دونك ، حسدا وبغيا ، كقولهم : لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ «٢» ، لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ «٣».

ثم وصف كبرهم بقوله : ما هُمْ بِبالِغِيهِ أي : ما هم ببالغي موجب ذلك الكبر ومقتضاه ، وهو ما أرادوه من التقدم والرّئاسة ، وقيل : نزلت فى اليهود ، وهم المجادلون ، كانوا يقولون : لست صاحبنا المذكور فى التوراة ، بل هو المسيح بن داود ، يعنون الدجال ، يخرج فى آخر الزمان ، فيبلغ سلطانه البر والبحر ، وتسير معه الأنهار ، وهو آية من

---

(١) الآيات : ١٧١ – ١٧٣ من سورة الصافات.

(٢) الآية ٣١ من سورة الزخرف.

(٣) من الآية ١١ من سورة الأحقاف. [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٤٤

آيات اللّه ، فيرجع إلينا الملك «١» فسمى اللّه تمنيهم بذلك كبرا ، ونفى أن يبلغوا متمناهم. فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ فالتجىء إليه من كيد من يحسدك ، ويبغى عليك ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لما تقول ويقولون ، الْبَصِيرُ بما تعمل ويعملون ، فهو ناصرك عليهم ، وعاصمك من شرهم.

الإشارة : فاصبر أيها المتوجه إلى اللّه ، إنّ وعد اللّه بالفتح حق إن صبرت ، وكابدت ولم تملّ ، واستغفر لذنبك ، وتطهر من عيبك ، لتدخل حضرة ربك. قال الورتجبي : «واستغفر لذنبك» أي : لما جرى على قلبك من الأحكام البشرية ، وأيضا : استغفر لرؤية وجودك فى وجود الحق ، فإنّ كون الحادث فى وجود القديم ذنب فى إفراد القدم من الحدوث. انظر تمامه.

وقوله تعالى : وَسَبِّحْ .. إلخ ، فيه الحث على التوجه إلى اللّه فى هذين الوقتين ، فإن العبرة بالافتتاح والاختتام ، فمن فتح يومه بخير ، وختمه بخير ، حكم على بينهما. وقال فى أهل الإنكار : إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ ... الآية ، فاستعذ باللّه منهم ، وغب عنهم بإقبالك على مولاك. وباللّه التوفيق.

ولمّا كانت مجادلة الكفرة فى آيات اللّه مشتملة على إنكار البعث ، احتج عليهم بقوله :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٥٧ الى ٥٩]

لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (٥٩)

يقول الحق جل جلاله : لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، فمن قدر على اختراع هذه الأجرام مع عظمها كان على اختراع الإنسان بعد موته وبعثه مع مهانته أقدر ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ذلك لأنهم لا يتفكرون لغلبة الغفلة عليهم ، وعمى بصيرتهم.

وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أي : الغافل والمستبصر ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ولا يستوى المحسن والمسيء ، فلا بد أن تكون لهم حال أخرى ، يظهر فيها ما بين الفريقين من التفاوت ، وهى فيما بعد البعث ، فيرتفع المستبصر المحسن فى أعلى عليين ، ويسقط الغافل المسيء فى أسفل سافلين. وزيادة

---

(١) ذكره القرطبي (٧/ ٥٩٤١) وقيل فى المراد بالذين يجادلون فى آيات اللّه : هو كلّ من كفر بالنبي صلّى اللّه عليه وسلم وهذا حسن لأنه يعم.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٤٥

«لا» فى المسيء لتأكيد النّفى لطول الكلام بالصلة. قَلِيلًا ما تَتَذَكَّرُونَ «١» أي : تذكرا قليلا يتذكرون. وقرىء بالغيبة ، والخطاب ، على الالتفات. إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها لا شك فى مجيئها لوضوح دلائلها ، وإجماع الرّسل على الوعد بوقوعها ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ لا يصدقون بوقوعها لقصور نظرهم على ظواهر ما يحسون.

الإشارة : التفكر فى العوالم العلوية والسفلية ، يوجب فى القلب عظمة الحق جل جلاله ، وباهر قدرته وحكمته ، وإتيان البعث لا محالة لنفوذ القدرة فى الجميع. وكون خلق السموات والأرض أكبر من خلق الإنسان ، إنما هو باعتبار الجرم الحسى ، وأما باعتبار المعنى فالإنسان أعظم لاشتماله على العوالم كلها ، كما قال فى المباحث :

اعقل فأنت نسخة الوجود للّه ما أعلاك من موجود

أليس فيك العرش والكرسىّ والعالم العلوىّ والسّفلىّ؟

ثم أمر بعبادته ، أو دعائه ، بعد بيان عظمة قدرته ، ليكون الداعي موقنا بالإجابة ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : آية ٦٠]

وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ (٦٠)

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أي : اعبدوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ أي : أثبكم ، ويدل على هذا قوله : إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ صاغرين أذلاء ، أو : اسألونى أعطكم ، على ما أريد ، فى الوقت الذي أريد. قال القشيري : والحكمة فى أنه أمر بالسؤال قبل الإجابة ، وبالاستغفار قبل المغفرة ، أنه حكم فى اللوح أن يعطيك ذلك الشيء الذي تسأله وإن لم تسأل ، ولكن أمر بالسؤال ، حتى إذا وجدته تظن أنك وجده بدعائك ، فتفرح به. قلت : السؤال سبب ، والأسباب غطى بها سر قدرته تعالى. ثم قال :

ويقال : إذا ثبت أن هذا الخطاب للمؤمنين فما من مؤمن يدعو اللّه ، ويسأله شيئا ، إلا أعطاه إياه ، إما فى الدنيا ، وإما فى الآخرة. حيث يقال له : هذا ما طلبته فى الدنيا ، وقد ادخرته لك إلى هذا اليوم ، حتى يتمنى العبد أنه لم يعط شيئا فى الدنيا. هـ.

---

(١) قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي «تتذكرون» بتاءين من فوق ، على الخطاب ، وقرأ الباقون بالياء والتاء على الغيب .. انظر الإتحاف (٢/ ٤٣٩).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٤٦

قلت : فالدعاء كله إذا مستجاب ، بوعد القرآن ، لكن منه ما يعجّل ، ومنه ما يؤجّل ، ومنه ما يصرف عنه به البلاء ، كما فى الأثر ، وإذا فسر الدعاء بالسؤال كان الاستكبار عنه منزلا منزلة الاستكبار عن العبادة للمبالغة فى الحث عليه. قال صلّى اللّه عليه وسلم : «الدعاء هو العبادة» وقرأ الآية «١» ، وفى رواية : «مخ العبادة» «٢» ، وعن ابن عباس :

«وحّدونى أغفر لكم» ، فسّر الدعاء بالعبادة ، والعبادة بالتوحيد.

الإشارة : اختلف الصوفية أىّ الحالين أفضل؟ هل الدعاء والابتهال ، أو السكوت والرّضا؟ والمختار أن ينظر العبد ما يتجلى فى قلبه ، فإن انشرح للدعاء فهو فى حقه أفضل ، وإن انقبض عنه ، فالسكوت أولى ، والغالب على أهل التحقيق من العارفين ، الغنى باللّه ، والاكتفاء بعلمه ، كحال الخليل عليه السّلام ، فإنهم إبراهيميون.

قال الورتجبي : أي : ادعوني فى زمن الدعاء الذي جعلته خاصا لإجابة الدعوة ، فادعونى فى تلك الأوقات ، استجب لكم فإنّ وقوع الإجابة فيها حقيقة بلا شك ، ومن لم يعرف أوقات الدعاء ، فدعاؤه ترك أدب فإن الدعاء فى وقت الاستغفار من قلة معرفة المقامات ، فإن السلطان إذا كان غضبان لا يسأل منه ، وإذا كان مستبشرا فيكون زمانه زمن العطاء والكرم. – قلت : هذا فى حق الخصوص ، الفاهمين عن اللّه ، وأما العموم ، فما يناسبهم إلا دوام الدعاء فى الرّخاء والشدة ، قال تعالى : فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا «٣» ثم قال عن الوراق : ادعوني على حد الاضطرار والالتجاء ، حيث لا يكون لكم مرجع إلى [سواى] «٤» ، استجب لكم. هـ.

ثم برهن على توحيده ، وأنه لا يصح الرّجوع إلا إليه ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٦١ الى ٦٥]

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٦١) ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَالسَّماءَ بِناءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٦٥)

---

(١) أخرجه أبو داود فى (الصلاة ، باب الدعاء ٢/ ١٦١ ، ح ١٤٧٩) والترمذي فى (الدعوات ، باب ما جا فى فضل الدعاء ٥/ ٤٢٦ ، ح ٣٣٧٢) وقال «حسن صحيح» وابن ماجه فى (الدعاء ،

باب فضل الدعاء ٢/ ١٢٥٨ ، ح ٣٨٢٨) والحاكم (١/ ٤٩٠) وصححه ، ووافقه الذهبي ، من حديث النّعمان بن بشير رضي اللّه عنه.

(٢) أخرج هذه الرّواية الترمذي فى (الموضع السابق حديث ٣٣٧١) من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه.

(٣) من الآية ٤٣ من سورة الأنعام.

(٤) فى الأصول [سواه] والمثبت هو الذي فى عرائس البيان.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٤٧

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ بأن خلقه مظلما باردا ، تقلّ فيه الحركات فتستريح فيه الجوارح ، وَجعل النَّهارَ مُبْصِراً أي : مبصرا فيه. فأسند الإبصار إلى النّهار ، مجازا ، والأصل فى الحقيقة لأهل النّهار. وقرن الليل بالمفعول له ، والنّهار بالحال ، ولم يكونا حالين أو مفعولا لهما رعاية لحق المقابلة لأنهما متقابلان معنى لأن الليل مقابل النّهار ، فلما تقابلا معنى تقابلا لفظا ، مع أن كلّ واحد منهما يؤدى مؤدى الآخر ، ولأنه لو قيل : لتبصروا فيه فاتت الفصاحة التي فى الإسناد مجازى ، ولو قيل : «ساكنا» لم تتميز الحقيقة من المجاز ، إذ الليل يوصف بالسكون على الحقيقة ، ألا ترى إلى قولهم : ليل ساج ، أي : ساكن لا ريح فيه.

إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عظيم عَلَى النَّاسِ ، حيث تفضّل عليهم بهذه النّعم الجسيمة ، وإنما لم يقل : المتفضل لأن المراد تكثير الفضل ، وأنه فضله لا يوازيه فضل ، فالتنكير للتعظيم. وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ لجهلهم بالمنعم ، وإغفالهم مواضع النّعم. وتكرير النّاس ، ولم يقل : أكثرهم لتخصيص الكفران بهم ، وأنهم هم الذين من شأنهم الكفران ، كقوله : إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ «١».

ذلِكُمُ اللَّهُ أي : ذلكم المنفرد بالأفعال المقتضية للألوهية ، من خلق الليل والنّهار هو اللّه رَبُّكُمْ لا ربّا غيره ، خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أخبار مترادفة ، أي : الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والرّبوبية ، وإيجاد الأشياء ، والوحدانية ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ أي : فكيف ، ومن أىّ وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان؟! كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ أي : مثل ذلك الإفك العجيب ، الذي لا وجه له ، ولا مصحح له أصلا ، يؤفك كلّ من جحد بآياته تعالى من غير تروّ ولا تأمل.

ثم ذكر فضله المتعلق بالمكان ، بعد بيان فضله المتعلق بالزمان ، فقال : اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً مستقرا تستقرون عليها بأقدامكم ومساكنكم ، وَالسَّماءَ بِناءً سقفا فوقكم ، كالدنيا بيت سقفه السماء ،

(١) من الآية ٦٦ من سورة الحج.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٤٨

مزّينا بالمصابيح ، وبساطه الأرض ، مشتملة على ما يحتاج إليه أهل البيت. وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ، هذا بيان لفضله المتعلق بالأجسام ، أي : صوّركم أحسن تصوير ، حيث جعلكم منتصب القامة ، بادى البشرة ، متناسب الأعضاء والتخطيطات ، متهيئا لمناولة الصنائع واكتساب الكمالات. قيل : لم يخلق اللّه حيوانا أحسن صورة من الإنسان. وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أي : اللذائذ ، ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ أي : ذلكم المنعوت بتلك النّعوت الجليلة.

هو المستحق للربوبية ، فَتَبارَكَ اللَّهُ أي : تعالى بذاته وصفاته رَبُّ الْعالَمِينَ أي : مالكهم ومربيهم ، والكل تحت قدرته مفتقر إليه فى إيجاده وإمداده إذ لو انقطع إمداده لا نهدّ الوجود.

هُوَ الْحَيُّ المنفرد بالحياة الذاتية الحقيقية ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ إذ لا موجود يدانيه فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فَادْعُوهُ فاعبدوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أي : الطاعة من الشرك والرّياء ، وقولوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ. عن ابن عباس رضي اللّه عنه : من قال «لا إله إلا اللّه» ، فليقل على إثرها : الحمد للّه رب العالمين «١».

الإشارة : اللّه هو الذي جعل ليل القبض لتسكنوا فيه عند اللّه ، ونهار البسط لتبصروا نعم اللّه ، فتشكروا لتبتغوا زيادة فضله ، وجعل أرض النّفوس قرارا لقيام وظائف العبودية ، وسماء الأرواح مرقى لشهود عظمة الرّبوبية. قال القشيري : سكون النّاس بالليل – أي : الحسى – على أقسام : فأهل الغفلة يسكنون مع غفلتهم ، وأهل المحبة يسكنون بحكم وصلتهم ، فشتان بين سكون غفلة ، وسكون وصلة ، وقوم يسكنون إلى أمثالهم وأشكالهم ، وقوم إلى حلاوة أعمالهم ، [وبسطهم ، واستقبالهم] «٢» ، وقوم يعدمون القرار فى ليلهم ونهارهم – أي : لا يسكنون إلى شيء – أولئك أصحاب الاشتياق ، أبدا فى الإحراق هـ.

وقوله تعالى : وَصَوَّرَكُمْ أي : صوّر أشباحكم ، فأحسن صورتها ، حيث بهجها بأنوار معرفته. قال الورتجبي :

فأحسن صوركم بأن ألبستكم أنوار جلالى وجمالى ، واتخاذكم بنفسي ، ونفخت من روحى فيكم ، الذي أحسن الهياكل من حسنه ، ومن عكس جماله ، فإنه مرآة نورى الجلى للأشباح. هـ. قال القشيري : خلق العرش والكرسي والسموات والأرض ، وجميع المخلوقات ، ولم يقل فى شيء منها : فأحسن

صورها ، بل قاله لمّا خلق هذا الإنسان ، وليس الحسن ما يستحسنه النّاس ، ولكن الحسن ما يستحسنه الحبيب ، وأنشدوا :

ما حطّك الواشون عن رتبة عندى ، ولا ضرّك مغتاب

كأنّهم أثنوا ولم يعلموا عليك عندى بالّذى عابوا «٣»

---

(١) أخرجه الطبري (٢٤/ ٨١) والحاكم وصححه (٢/ ٤٣٨) ، والبيهقي فى الأسماء والصفات (١/ ١٧٩) عن ابن عباس رضي اللّه عنه موقوفا.

(٢) فى القشيري : [لبسطهم واستقلالهم].

(٣) البيتان لأبى نواس. انظر ديوانه (١/ ١٠٩) ونهاية الأرب (٢/ ٢٤١) وينسبان أيضا إلى العباس بن الأحنف ، كما جاء فى ديوانه (ص ٦١).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٤٩

لم يقل للشمس فى علاها ، ولا للأقمار فى ضيائها : فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ولما انتهى إلينا قال : لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ «١». ثم قال : وكما أحسن صوركم محى من ديوانكم الزلّات ، وأثبت الحسنات ، قال اللّه تعالى : يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ. «٢» هـ.

قوله تعالى : وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لذيذ المشاهدة ، وأنس الوصلة. وقوله تعالى : هُوَ الْحَيُّ الحياة عند المتكلمين لا تتعلق بشىء ، وعند الصوفية تتعلق بالأشياء إذ لا قيام لها إلا بأسرار معانى ذاته ، ومن تحققت حياته من الأولياء بحياة اللّه ، بحيث كان له نور يمشى به فى النّاس ، كان كلّ من لقيه حييت روحه بمعرفة اللّه ، ولذلك يضم الشيخ المريد إليه ، إن رآه لم ينهض حاله ، ليسرى حاله فيه ، يأخذون ذلك من ضم جبريل للنبى – عليهما السّلام. وباللّه التوفيق.

ولمّا كان صلّى اللّه عليه وسلم بين أظهر المشركين نهى عن أن يتصف بصفاتهم ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٦٦ الى ٦٨]

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جاءَنِي الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ أي : تعبدون مِنْ دُونِ اللَّهِ ولم يكن عبدها

قط ، لَمَّا جاءَنِي الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي من الحجج العقلية ، والآيات التنزيلية.
قال الطيبي : معرفة اللّه تعالى ووحدانيته معلومتان بالعقل ، وقد ترد الأدلة العقلية فى مضمون السمعية ، أما وجوب عبادة اللّه ، وتحريم عبادة الأصنام ، فحكم شرعى لقوله : قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أي : حرم علىّ ، وهذا إنما يتحقق بعد البعثة ، خلافا للمعتزلة فى الإيجاب قبل الشرع ، للتحسين والتقبيح ، والمعنى : أن قضية التقليد توجب ما أنتم

---

(١) الآية ٤ من سورة التين.
(٢) من الآية ٣٩ من سورة الرّعد.

عليه ، ولكنى خصصت بأمر دونكم ، كما قال إبراهيم : يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ ... «١» إلخ كلامه ، وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ أن أنقاد وأخلص دينى لِرَبِّ الْعالَمِينَ.
هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ أي : أصلكم ، وأنتم فى ضمنه ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ أي : ثم خلقكم خلقا تفصيليا من نطفة تمنى ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا أي : أطفالا ، واقتصر على الواحدة لأن المراد الجنس ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ : متعلق بمحذوف ، أي : ثم يبقيكم لتبلغوا أشدّكم ، وكذلك ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً ، وقيل : عطف على محذوف ، علة ليخرجكم ، ف «يخرجكم» من عطف علة على أخرى ، كأنه قيل : ثم يخرجكم طفلا لتكبروا شيئا فشيئا ، ثم لتبلغوا كمالكم فى القوة والعقل ، ثم لتكونوا شيوخا ، بكسر الشين وضمها «٢» جمع شيخ ، وقرىء «شيخا» كقوله : «طفلا».
وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ عبارة تجرى فى الأدراج المذكورة ، فمن النّاس من يموت قبل أن يخرج طفلا ، وآخرون قبل الأشدّ ، وآخرون قبل الشيخوخة. وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى أي : وفعل ذلك لتبلغوا أجلا مسمى ، أي : ليبلغ كلّ واحد منكم أجلا مسمى لا يتعداه ، وهو أجل موته ، وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ولكى تعقلوا ما فى ذلك من العبر ، والحجج ، وفنون الحكم فإنّ ذلك التدريج البديع يقضى بالقدر السابق ، ونفوذ القدرة القاهرة لبعد ذلك التفاوت ، والاختلاف العظيم ، عن الطبيعة والعلة ، وإنما موجب ذلك سبق الاختيار والمشيئة الأزلية ، ولذلك عقّبه بقوله :
هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ دفعا لما قد يتوهم – من كونه لم يذكر الفاعل فى قوله : وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ – أن ذلك من فساد مزاجه ، أو قتل غيره قبل أجله ، فرفع ذلك الإبهام بقوله : هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ لا غيره ، أي : يحيى الأموات ، ويميت الأحياء ، أو : يفعل الإحياء والإماتة ، فَإِذا قَضى أَمْراً

أي : أراد أمرا من الأمور ، فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ من غير توقف على شيء من الأشياء أصلا ، وهو تمثيل لتأثير قدرته تعالى فى الأشياء عند تعلق إرادته بها ، وتصوير سرعة ترتب المكونات على تكوينه ، من غير أن يكون هناك أمر ولا مأمور.

الإشارة : إذا دخل المريد مقام التجريد ، طالبا لأسرار التوحيد والتفريد ، وطلبه العامة بالرجوع للأسباب قبل التمكين ، يقول : (إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون اللّه ...) الآية. والبينات التي جاءته من ربه ، هو اليقين

---

(١) الآية ٤٣ من سورة مريم.

(٢) ضم شين «شيوخا» نافع ، وأبو عمرو ، وهشام ، وحفص ، وأبو جعفر ، وقرأ الباقون بكسر الشين. انظر الإتحاف (٢/ ٤٣٩). [.....]

الكبير بأن اللّه يرزق أهل التقوى بغير أسباب ، لقوله تعالى : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ «١». وفى هذا المعنى قال الغزالي رضي اللّه عنه :

تركت للنّاس دينهم ودنياهم شغلا بذكرك يا دينى ودنياى

قال القشيري : قل يا محمد : إنى نهيت وأمرت بالتبرّى مما عبدتم ، والإعراض عما به اشتغلتم ، والاستسلام للذى خلقنى ، وبالنبوة خصّنى. هـ. وكما تتربى النّطفة الإنسانية فى الرّحم ، تتربى نطفة الإرادة – وهى المعرفة العيانية – فى القلب ، فإذا عقد المريد نكاح الصحبة مع الشيخ ، قذف فى قلبه نطفة الإرادة ، فما زال يربيها له حتى يخرج عن حس دائرة الأكوان ، فهى ولادته طفلا ، ثم لا يزال يحاذيه بهمته حتى يبلغ أشده ، وهو كماله ، ثم يكون شيخا مربيا إن أذن له. واللّه تعالى أعلم.

وفيما ذكر الحق تعالى من أطوار البشر ، شواهد ظاهرة ، دالة على إثبات البعث ، وإنكار ذلك والجدال فيه ، جهالة ، كما قال تعالى :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٦٩ الى ٧٦]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَبِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣)

مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ (٧٤) ذلِكُمْ بِما

كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦)

---

(١) من الآيتين : ٢ - ٣ من سورة الطلاق.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٥٢

قلت : (الذين يجادلون) : بدل من الموصول قبله المجرور ، أو : رفع ، أو : نصب على الذم.

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ ، كرر الحق تعالى الجدال فى هذه السورة ثلاث مرات ، فإما أن يكون فى ثلاث طوائف : الأول فى قوم فرعون ، والثاني فى اليهود ، والثالث فى المشركين ، وإما للتأكيد ، أي : انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين فى آيات اللّه الواضحة ، الموجبة للإيمان بها ، الزاجرة عن الجدال فيها ، أَنَّى يُصْرَفُونَ أي : كيف يصرفون عنها ، مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها ، وانتفاء الصوارف عنها بالكلية.

وهذا تعجيب من أحوالهم الرّكيكة ، وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكلّ القرآن ، أو بسائر الكتب والشرائع ، كما أبانه بقوله : الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ أي : بالقرآن ، أو : بجنس الكتب السماوية ، وَبِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا من سائر الكتب ، أو : لوحى ، أو : الشرائع ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ عاقبة ما فعلوا من الجدال والتكذيب ، عند مشاهدتهم لأنواع العقوبات.

إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ أي : سوف يعلمون حين تكون الأغلال فى أعناقهم. و«إذ» : ظرف للماضى ، والمراد به هنا : الاستقبال لأن الأمور المستقبلة لمّا كانت محققة الوقوع ، مقطوعا بها ، عبّر بما كان ووجد. وَفى أعناقهم أيضا السَّلاسِلُ. وفى تفسير ابن عرفة : ولا يجوز مثل ذلك فى العقوبات الدنيوية ، وقياسه على العقوبات الأخروية خطأ ، وفاعله مخطئ غاية الخطأ ، ولم يذكر الأئمة فى اعتقال المحبوس للقتل إلا أنه يجعل القيد من الحديد فى رجله ، خيفة أن يهرب ، وأما عنقه فلا يجعل فيه شيء. هـ. يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ أي :

يجرّون فى الماء الحارّ ، وهو استئناف بيانى ، كأن قائلا قال : فما ذا يكون حالهم بعد ذلك؟ فقال : يسحبون فى الحميم ، ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ويحرقون ، من : سجر التنّور : إذا ملأه بالوقود ، والمراد : أنهم يعذبون بأنواع العذاب ، وينقلون من لون إلى لون.

ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا أي : غابوا ، وهذا قبل أن يقرن بهم آلهتهم ، أو : ضاعوا عنا فلم نجد ما كنا نتوقع منهم ، بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً أي : تبيّن لنا

أنهم لم يكونوا شيئا. أو : يكون إنكارا منهم ، كقولهم : وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ «١». وهذا كله مستقبل عبّر عنه بالماضي

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة الأنعام.

لتحققه. كَذلِكَ أي : مثل ذلك الضلال الفظيع يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ حيث لا يهتدون إلى شيء ينفعهم فى الآخرة ، أو : كما ضلّ عنهم آلهتهم يضلهم اللّه عن آلهتهم ، حتى لو تطالبوا لم يتصادفوا.

ذلِكُمْ الإضلال بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ أي : تبطرون وتتكبرون بِغَيْرِ الْحَقِّ ، بل بالشرك والطغيان ، وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ تفخرون وتختالون ، أو : تتكبرون وتعجبون. والالتفات إلى الخطاب للمبالغة فى التوبيخ. فيقال لهم : ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ أي : أبوابها السبعة المقسومة عليكم خالِدِينَ فِيها مقدّرا خلودكم فيها ، فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ عن الحق ، والمخصوص محذوف ، أي : جهنّم.

الإشارة : الأولياء العارفون أهل التربية الكاملة ، آية من آيات اللّه فى كلّ زمان ، فيقال فى حق من يخاصم فى وجودهم ، ويتنكب عن صحبتهم : الذين يجادلون فى آيات اللّه أنّى يصرفون؟ وهم الذين كذّبوا بأسرار الكتاب ، وعلوم باطنه ، وبما أرسل به خلفاء الرّسل ، ممن يغوص على تلك الأسرار ، فسوف يعلمون حين تخاطبهم أغلال الوساوس والخواطر ، وسلاسل العلائق والشواغل ، فيقبضهم عن النّهوض إلى قضاء الشهود والعيان ، وجولان الفكرة فى أنوار الملكوت وأسرار الجبروت ، يسحبون فى حرّ التدبير والاختيار ، ثم فى نار القطيعة يسجرون ، ثم قيل لهم إذا ماتوا : أين ما كنتم تشركون فى المحبة والميل من دون اللّه؟ قالوا : ضلوا عنا ، وغاب عنهم كلّ ما تمتعوا به من الحظوظ والشهوات ، فيقال لهم : ذلكم بما كنتم تنبسطون فى الدنيا فى أنواع المآكل ، والمشارب ، والملابس ، والمناكح ، وبما كنتم تفتخرون على النّاس ، فيخلدون فى الحجاب ، إلا فى وقت مخصوص. وباللّه التوفيق.

ثم أمر بالصبر وانتظار الفتح ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٧٧ الى ٧٨]

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٥٤

يقول الحق جل جلاله : فَاصْبِرْ يا محمد على أذى قومك ، وانتظر ما يلاقوا مما أعد لهم. إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ بإهلاكم وتعذيبهم حَقٌّ كائن لا محالة ، فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ من الهلاك ، كالقتل والأسر فى حياتك ، أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ قبل هلاكهم بعدك ، فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ لا محالة ، ف «ما» : صلة بعد «إن» ، لتأكيد الشرطية ، والجواب : محذوف ، أي : فإن نرينك بعض ما نعدهم فذاك ، أو نتوفينك قبل ذلك فإلينا يرجعون يوم القيامة ، فننتقم منهم أشد الانتقام.

ثم سلّاه بمن قبله ، فقال : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فأوذوا وصبروا حتى جاءهم نصرنا ، مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ فى القرآن ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ، قيل : عدد الأنبياء – عليهم السّلام – مائة ألف وأربعمائة وعشرون ألفا ، والمذكور قصصهم فى القرآن أفراد معدودة. قال الطيبي : والصحيح ما روينا عن أحمد بن حنبل ، عن أبى ذر ، قلت : يا رسول اللّه ، كم عدد الأنبياء؟ قال : «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا» «١». هـ. وقد تكلم فى الحديث بالضعف والصحة والوضع ، وقيل : عدتهم ثمانية آلاف ، أربعة آلاف نبىّ من بنى إسرائيل ، وأربعة آلاف من سائر النّاس. وعن علىّ – كرم اللّه وجهه : «إن اللّه تعالى بعث نبيا أسود ، فهو ممن لم تذكر قصته فى القرآن» «٢». فقوله تعالى : وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ أي : فى القرآن ، فلا ينافى إخباره بمطلق العدد على ما فى حديث أبى ذر.

وَما كانَ أي : ما صحّ ، ولما استقام لِرَسُولٍ منهم أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ مما اقترح عليه قومه ، إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ. فإنّ المعجزات على تشعب فنونها ، عطايا من اللّه تعالى ، قسمها بينهم على حسب المشيئة ، المبنية على الحكم البالغة ، وهذا جواب اقتراح قريش على رسول اللّه الآيات عنادا ، يعنى : إنّا قد أرسلنا كثيرا من الرّسل ، وما استقام لأحد منهم أن يأتى بآية إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ومشيئته ، فمن لى بأن آتى باية مما تقترحونه إلّا أن يشاء اللّه ، ويأذن فى الإتيان بها؟ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ بهلاكهم ، أو : بقيام الساعة ، قُضِيَ بِالْحَقِّ أي : بإنجاء المحق وإثابته ، وإهلاك المبطل وتعذيبه ، وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ أي : المعاندون المقترحون للآيات ، أو : المتمسكون بالباطل ، فيدخل المقترحون المعاندون دخولا أوليا.

---

(١) أخرجه مطولا ، أحمد فى المسند (٥/ ٢٦٦) وابن حبان (موارد ، كاب العلم ، باب السؤال للفائدة ح ٩٤).

(٢) أخرجه الطبري (٢٤/ ٨٧) والطبراني فى الأوسط (ح/ ٩٣١٩) ، زاد ابن حجر فى الكافي (رقم ٣٤٤) عزوه لابن مردويه.

الإشارة : فاصبر أيها المتوجه إلى اللّه على الأذى وحمل الجفاء ، فإما أن ترى ما وعد أهل الإنكار على الأولياء ، من التدمير ، وقطع الدابر ، فى حياتك ، أو يلحقهم بعد موتك. ولقد أوذى من قبلك ، منهم من عرفت ومنهم من لم تعرف ، وما صحّ لأحد منهم أن يظهر كرامة إلا بإذن اللّه ، فإذا جاء أمر اللّه وقامت القيامة ، قضى بالحق ، فيرتفع أهل الصبر من المقربين ، فى أعلى عليين ، وينخفض أهل الإذاية فى أسفل سافلين.

ثم ذكّرهم بالنعم الحسية ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٧٩ الى ٨١]

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَمِنْها تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (٨١)

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ خلق لَكُمُ الْأَنْعامَ الإبل لِتَرْكَبُوا مِنْها ، وَمِنْها تَأْكُلُونَ أي : لتركبوا بعضها ، وتأكلوا بعضها ، وليس المراد : أن الرّكوب والأكل مختص ببعض معين منها ، بحيث لا يجوز تعلقه بالآخر ، بل على أن بعضا منها صالح لكلّ منهما. وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ أخر غير الرّكوب ، كألبانها وأوبارها وجلودها ، وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً أي : ما تحتاجون إليه من حمل أثقالكم من بلد إلى بلد ، فِي صُدُورِكُمْ فى قلوبكم ، وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ أي : وعليها فى البر ، وعلى الفلك فى البحر تحملون ، ولعل المراد به : حمل النّساء والولدان عليها بالهودج ، وهو السر فى فصله عن الرّكوب. والجمع بينها وبين الفلك فى الحمل لما بينهما من المناسبة ، حتى سميت الإبل : سفائن البر.

وقيل : المراد بالأنعام : الأزواج الثمانية ، على أن المعنى : لتركبوا بعضها ، وهى الإبل ، وتأكلوا بعضها ، وهى الغنم والبقر ، فذكر ما هو الأهم من كلّ ، والمنافع تعم الكل ، وبلوغ الحاجة تعم الإبل والبقر.

وقال الثعلبي : التقدير :

لتركبوا منها بعضا ، ومنها تأكلون ، فحذف «بعضا» للعلم به.

يُرِيكُمْ آياتِهِ

دلائله الدالة على قدرته ووفور رحمته ، أَيَّ آياتِ اللَّهِ

أي : فأىّ آية من تلك الآيات الباهرةتُنْكِرُونَ

؟

فإن كلّا منها من الظهور بحيث لا يكاد يجترىء على إنكارها من له عقل فى الجملة. وإضافة آية إلى الاسم الجليل لتربية المهابة ، وتهويل إنكارها ، و«آيات» نصب بتنكرون ، وتذكير «أىّ» مع

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٥٦

تأنيث المضاف إليه ، هو الشائع المستفيض ، والتأنيث قليل لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث فى الأسماء غير الصفات ، نحو : حمار وحمارة غريب ، وهى فى «أىّ» أغرب لإبهامه.

الإشارة : ما أعظم قدرك أيها الإنسان إن اتقيت اللّه ، وعرفت نعمه ، فقد سلطك على ما فى الكون بأسره ، الحيوانات تخدمك وتنتفع بها ، أكلا ، وركوبا ، وملبسا ، وحملا ، والبحر يحملك ، والأرض تقلك ، والسماء تظلك ، وما قنع لك بالدنيا حتى ادخر لك الآخرة ، التي هى دار الدوام ، فإن شكرت هذه النّعم فأنت أعز ما فى الوجود ، وإن كفرتها فأنت أهون ما فى الوجود. وباللّه التوفيق.

ولا تعرف حقائق النّعم إلا بالتفكر ، ولذلك أمر به إثر ذكرها ، فقال :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٨٢ الى ٨٥]

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ (٨٥)

يقول الحق جل جلاله : أَفَلَمْ يَسِيرُوا أي : أقعدوا فلم يسيروا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من الأمم المهلكة ، كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ عددا وَأَشَدَّ قُوَّةً فى الأبدان والأموال ، وَأشد آثاراً فِي الْأَرْضِ أي : تركوا آثارا كثيرة بعدهم ، من الأبنية ، والقبور ، والمصانع ، فكانوا أشدّ منهم ، وقيل : هى آثار أقدامهم فى الأرض لعظم أجرامهم ، فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ أي : لم يغن عنهم ذلك شيئا حين نزل بهم العذاب ، أو : أي شىء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم؟ على أنّ «ما» استفهام. فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ بالمعجزات الواضحة ، فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ يريد علمهم بأمور الدنيا ، ومعرفتهم بتدبيرها ، كما قال : يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ «١» ،

---

(١) الآية ٧ من سورة الرّوم.

فلما جاءتهم الرّسل بعلوم الديانة ، والتأهب ليوم القيامة ، وهى أبعد شيء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا ، والتباعد عن تتبع ملاذها ، لم يلتفتوا إليها ، وصغّروها ، واستهزؤوا بها ، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفؤاد من علمهم ، ففرحوا به. أو : علم التنجيم والفلسفة ، والدهريّين فإنهم كانوا إذا سمعوا بالوحى دفعوه ، وصغّروا علم الأنبياء إلى علمهم ، واعتقدوا عندهم علما يستغنون به عن علم الأنبياء – عليهم السّلام – ولما سمع بقراط بموسى عليه السّلام قيل له : لو هاجرت إليه! فقال : نحن قوم مهذّبون ، فلا حاجة إلى من يهذّبنا.

ورأى بعض الصالحين النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلم فسأله عن ابن سيرين ، فقال له : «إنه أراد أن يصل إلى اللّه بلا واسطة ، فانقطع عن اللّه» وعلى فرض وقوفهم بالتجريد والرّياضة على انكشاف حضرة القدس ، فلا يظفرون بالعبودية ، ولا بالفناء فى توحيد الرّبوبية ، والتخلص من لوث وجودهم ، والشأن أن تكون عين الاسم ، لا أن تعرف الاسم والعين ، إنما تقتبس من مشكاة مهبط الوحى ، وانصباب أنوار الغيب إنما تفيض بواسطة درة الوجود ، نبينا صلّى اللّه عليه وسلم ، ومظهر سر العيان الأحدى الأحمدى ، فافهم. قاله شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرّحمن الفاسى.

قال تعالى : وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أي : نزل بهم عقوبة استخفافهم بالحق ، وتعظيمهم واغتباطهم بالباطل. فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا شدة عذابنا ، ومنه : بِعَذابٍ بَئِيسٍ «١» ، قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ يعنون الأصنام.

فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا أي : فلم يستقم ، ولم يصح أن ينفعهم إيمانهم عند مجىء العذاب لأن النّافع هو الإيمان الاختياري ، لا الاضطراري ، سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ أي : سنّ اللّه ذلك سنّة ماضية فى عباده ، ألّا يقبل الإيمان إلا قبل نزول العذاب. وهو من المصادر المؤكدة ، نحو : وعد اللّه ، ونحوه.

وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ أي : وقت رؤيتهم البأس. فهنالك : مكان استعير للزمان ، والكافرون خاسرون فى كل أوان ، ولكن يتبيّن خسرانهم إذا عاينوا العذاب.

وفائدة ترادف الفاءات فى هذه الآيات : أن فَما أَغْنى عَنْهُمْ نتيجة قوله : كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وفَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ كالبيان والتفسير لقوله : فَما أَغْنى عَنْهُمْ ، كقولك : رزق زيد المال ، فمنع المعروف ، فلم يحسن إلى الفقراء. وفَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا تابع لقوله : فَلَمَّا جاءَتْهُمْ ، كأنه قال : فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا. وكذلك : فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ [تابع لإيمانهم] «٢» لمّا رأوا بأس اللّه ، واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ١٦٥ من سورة الأعراف.

(٢) ما بين المعقوفتين ليس فى الأصول ، وأثبته من تفسير النّسفى.

(١٥٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٥٨

الإشارة : قد تقدم مرارا الحث على عبادة التفكر. وقوله تعالى : فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ... الآية ، كذلك من يظهر بعلم التجريد ، ويتكلم فى أسرار التوحيد ، سخر منه أهل زمانه ، ويقنعون بما عندهم من علم الرّسوم الظاهرة ، وهو علم لا يغنى ولا يفنى لأن جله يتعلق بمنافع النّاس ، لا بمنافع القلب ، فلا يغنى القلب ، ولا يفنى الحس ، إنما ينفع لطالب الأجور ، لا لطالب الحضور ورفع الستور ، وما مثال من ظفر بعلم القلوب – وهو أسرار التوحيد الخاص – إلا كمن عنده كنز من الفلوس ، ثم ظفر بالذهب الإبريز ، أو الإكسير ، فكيف يمكن أن يلتفت إلى الفلوس من ظفر بالإكسير؟! ولا يظهر هذا لأهل الظاهر إلا بعد موتهم ، فيؤمنوا به حيث لا ينفعهم. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(١٥٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٥٩

سورة فصّلت «١»

وهى ثلاث وخمسون آية. ومناسبتها لما قبلها : قوله : وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ «٢» مع قوله : تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، فكانت قريش من جملة المستهزئين بالقرآن ، وتقول : وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ «٣» فبيّن أنه منزل من الرّحمن الرّحيم ، كما قال تعالى :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٤)

وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)

قلت : (تنزيل) : خبر عن مضمر ، أي : هذا تنزيل. و(كتاب) : بدل من «تنزيل» ، أو : خبر بعد خبر ، و(تنزيل) :

مبتدأ. و(من الرّحمن) : صفة ، و(كتاب) : خبره ، و(قرآنا) : منصوب على الاختصاص والمدح ، أو : حال ، أي :

فصّلت آياته فى حال كونه قرآنا. و(لقوم) : متعلق بفصّلت ، أو : صفة ، مثل ما قبله وما بعده ، أي : قرآنا عربيا كائنا لقوم يعلمون. و(بشيرا ونذيرا) : صفتان ل «قرآنا».

---

(١) فى الأصول : [سورة حم السجدة] وهى سورة مكية.

(٢) الآية ٨٣ من سورة غافر.

(٣) كما جاء فى الآية ٢٦ من سورة فصلت.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٦٠

يقول الحق جل جلاله : حم يا محمد هذا تَنْزِيلٌ ، قال القشيري : أي : بحقي وحياتى ومجدى فى ذاتى وصفاتى ، هذا تنزيل مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. ونسبة التنزيل إلى الرّحمن الرّحيم للإيذان بأنه نزل للمصالح الدينية والدنيوية ، واقع بمقتضى الرّحمة الرّبانية ، حسبما ينبئ عنه قوله تعالى : وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ «١» ، كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ ميزت وجعلت تفاصيل فى أساليب مختلفة ، ومعان متغايرة من أحكام ، وتوحيد ، وقصص ، ومواعظ ، ووعد ، ووعيد وغير ذلك ، قُرْآناً عَرَبِيًّا أي : أعنى قرآنا بلسان العرب كائنا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ معانيه ، ويتدبرون فى آياته لكونه على لسانهم ، أو : لأهل العلم والنّظر لأنهم المنتفعون به.

بَشِيراً وَنَذِيراً بشيرا لأهل الطاعة ، ونذيرا لأهل المعصية ، فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ عن الإيمان به والتدبير فى معاينه ، مع كونه على لغتهم ، فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ سماع تفكر وتأمل ، حتى يفهموا جلالة قدره فيؤمنوا به. وَقالُوا للرسول – عليه الصلاة والسّلام – عند دعوته إياهم إلى الإيمان والعمل بما فى القرآن : قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ أي : أغطية متكاثفة ، وَفِي آذانِنا وَقْرٌ صمم وثقل يمنعنا من استماع قولك ، وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ غليظ ، وستر مانع يمنعنا من التواصل إليك. و(من) للدلالة على أن الحجاب مبتدى منهم ومنه بحيث استوعب ما بينهما من المسافة المتوسطة ، ولم يبق ثمّ فراغ أصلا. وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق وقبوله ، ومج أسماعهم له ، كأنّ بها صمما وثقلا منعهم من موافقتهم لرسول اللّه – صلّى اللّه عليه وسلم – ثم قالوا :

فَاعْمَلْ على دينك وإبطال ديننا ، إِنَّنا عامِلُونَ على ديننا ، لا نفارقه أبدا.

قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ ، هذا تلقين للجواب عنه ، أي : لست من

جنس مباين لكم حتى يكون بينى وبينكم حجاب ، وتباين مصحح لتباين الأعمال والأديان ، كما ينبئ عنه قوله : فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ ، بل إنما أنا بشر مثلكم ، مأمور بما أمرتم به من التوحيد ، حيث أخبرنا جميعا بأن إلهنا واحد ، فالخطاب فى «إلهكم» محكى منتظم للكل ، لا أنه خطاب منه – عليه الصلاة والسّلام – للكفرة. وقيل : لمّا دعاهم إلى الإيمان ، قالوا :

إنا نراك مثلنا ، تأكل وتشرب ، فلو كنت رسولا لاستغنيت عن ذلك ، فأنزل : قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ ... الآية فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ بالتوحيد وإخلاص العبادة ، غير ذاهبين يمينا وشمالا ، ولا ملتفتين إلى ما يسوّل لكم الشيطان من عبادة الأصنام. ، قال تعالى : وَاسْتَغْفِرُوهُ مما كنتم عليه من سوء العقيدة. والفاء لترتيب ما قبلها من إيحاء التوحيد على ما بعدها من الاستقامة ، وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ، وهو ترهيب وتنفير لهم عن الشرك إثر ترغيبهم فى التوحيد.

---

(١) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٦١

ووصفهم بقوله : الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ أي : لا يؤمنون بوجوب الزكاة ولا يعطونها ، وهو إخبار بما سيقع ، إذ لم تكن الزكاة حينئذ مفروضة ، أو : لا يفعلون ما يكونون به أزكياء ، وهو الإيمان. وفيه تحذير من منع الزكاة ، حيث جعله من أوصاف المشركين. وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ أي : وهم بالبعث والثواب والعقاب كافرون.

والجملة : عطف على (يؤتون) داخل فى الصلة. وإنما جعل منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة لأن أحب شىء إلى الإنسان ماله ، وهو شقيق روحه ، فإذا بذله فى سبيل اللّه فذلك أقوى دليل على استقامته ، وصدق نيته ، وخلوص طويته ، وما ارتدت العرب إلا بمنعها.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ غير مقطوع ، من : مننت الحبل : قطعته ، أو : غير ممنون به عليهم. وقيل : نزلت فى المرضى والهرمى ، إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملون «١».

الإشارة : كان الرّسول – عليه الصلاة والسّلام – يدعو إلى الإيمان بالقرآن والعمل به ، وخلفاؤه من مشايخ التربية يدعون إلى تصفية البواطن ، لتتهيأ لفهمه والغوص عن أسراره ، وحضور القلب عند تلاوته ، فأعرض أكثر الناس عن صحبتهم ، وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ .. إلى تمام الآية. فبقيت قلوبهم مغلفة بسبب الهوى ، ألسنتهم تتلوا وقلوبهم تجول فى أودية الدنيا ، فلا حضور ولا تدبر ، فلا

حول ولا قوة إلا باللّه ، فإذا طلبوا من المشايخ – الذين هم أطبة القلوب – الكرامة ، يقولون ما قالت الرّسل : إنما نحن بشر يوحى إلينا وحي إلهام بوحدانية الحق ، وانفراده بالوجود ، فاستقيموا إليه بتصفية بواطنكم ، واستغفروه من سالف زلاتكم ، فإن بقيتم على ما أنتم عليه من الشرك ورؤية السّوى ، فويل للمشركين الذين لا يزكّون أنفسهم ، وهم بالآخرة – حيث لم يتأهبوا لها كلّ التأهب – هم الكافرون.

إن الذين آمنوا إيمان الخصوص ، بصحبة الخصوص ، لهم أجر غير ممنون ، وهو شهود الحق على الدوام.

واللّه تعالى أعلم.

ثم وبّخهم على الكفر بعد بيان بطلانه ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٩ الى ١٢]

قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَبارَكَ فِيها وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (١١) فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)

---

(١) قاله السدى فيما ذكره القرطبي (٧/ ٥٩٦١).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٦٢

قلت : (و تجعلون) : عطف على (تكفرون). و(جعل) : عطف على (خلق) داخل فى حيز الصلة ، و(سواء) :

من نصبه فمصدر ، أي : استوت سواء. ومن جرّه فصفة لأيام ، ومن رفعه فخبر هى سواء. و(للسائلين) : متعلق بقدّر ، أو : بمحذوف ، أي : هذا الحصر للسائلين عن مدة خلق الأرض.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وهما الأحد والاثنين ، تعليما للتأنى ، ولو أراد أن يخلقها فى لحظة لفعل. وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً شركاء وأشباها. والحال أنه لا يمكن أن يكون له ند واحد ، فضلا عن التعدد ، وكيف يكون الحادث المعدوم ندا للقديم؟! ذلِكَ الذي خلق ما سبق.

وما فى الإشارة من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه لبعد منزلته فى العظمة ، أي : ذلك العظيم

الشأن هو رَبُّ الْعالَمِينَ أي : خالق جمع الموجودات ومربّيها ، فكيف يتصور أن يكون أخس الخلق ندا له؟! وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ جبالا ثوابت كائنة مِنْ فَوْقِها ، وإنما اختار إرساءها من فوق الأرض لتكون منافع الجبال معرضة لأهلها ، ويظهر للناظرين ما فيها من مراصد الاعتبار ، ومطارح الأفكار ، فإن الأرض والجبال أثقال على أثقال ، كلها ممسكة بقدرة اللّه عز وجل. وَبارَكَ فِيها أي : قدّر بأن يكثر خيرها بما يخلق فيها من منافع ، ويجعل فيها من المصالح ، وما ينبت فيها من الطيبات والأطعمة وأصناف النّعم. وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها أي : حكم أن يوجد فيها لأهلها ما يحتاجون إليه من الأقوات المختلفة المناسبة لهم على مقدار معين ، تقتضيه الحكمة والمشيئة ، وما يصلح بمعايشهم من الثمار والأنهار والأشجار ، وجعل الأقوات مختلفة فى الطعم والصورة والمقدار ، وقيل : خصابها التي قسمها فى البلاد. جعل ذلك فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ أي : تتمة أربعة أيام ، يومين للخلق ، ويومين لتقدير الأقوات ، كما تقول : سرت إلى البصرة فى عشرة ، وإلى الكوفة فى خمسة عشر ، أي : فى تتمة خمسة عشر ، ولو أجرى الكلام على ظاهرة لكانت ثمانية أيام يومين للخلق ، وأربعة للتقدير ، ويومين لخلق السماء ، وهو مناقض لقوله : فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ «١».

---

(١) كما جاء فى آيات ، منها : الآية ٥٤ من سورة الأعراف.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٦٣

وقوله : سَواءً راجع للأربعة ، أي : فى أربعة أيام مستويات تامات ، أو : استوت سواء لِلسَّائِلِينَ أي : قدّر فيها الأقوات للطالبين لها والمحتاجين إليها ، لأن كلا يطلب القوت ويسأله ، أو هذا الحصر فى هذه الأيام لأجل من سأل : فى كم خلقت الأرض وما فيها؟

ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ ، الاستواء مجاز عن إيجاد اللّه تعالى السماء على ما أراد ، تقول العرب : فعل فلان كذا ثم استوى إلى عمل كذا ، يريدون أنه أكمل الأول وابتدأ الثاني ، أو قصد وانتهى. فالاستواء إذا عدى ب «إلى» فهو بمعنى الانتهاء إليه بالذات أو بالتدبير ، وإذا عدّى ب «على» فبمعنى الاستعلاء ، ويفهم منه أن خلق السماء بعد الأرض ، وهو كذلك ، وأما دحو الأرض وتقدير أقواتها فمؤخر عن السماء ، كما صرح فى قوله : وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها «١» ، والترتيب فى الخارج : أنه خلق الأرض ، ثم خلق السماء ، ثم دحا الأرض فى يومين. ف «ثم» للتفاوت بين الخلقين لا للترتيب ، أو : للتفاوت فى المرتبة ، ترقيا من الأدنى إلى الأعلى ، كقول القائل :

إنّ من ساد ثم ساد أبوه ثم ساد بعد ذلك جدّه

وفى بعض الأحاديث : «إن اللّه خلق الأرض يوم الأحد والاثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء ، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والعمران والخراب ، فتلك أربعة أيام ، وخلق يوم الخميس السماء ، وخلق يوم الجمعة النّجوم والشمس والقمر والملائكة ، وخلق آدم عليه السّلام فى آخر ساعة من يوم الجمعة» «٢» وهى الساعة التي تقوم فيها الساعة.

قاله النّسفى ، وفى حديث مسلم ما يخالفه «٣».

قال ابن عباس رضي اللّه عنه : أول ما خلق اللّه – أي : بعد العرش – جوهرة طولها وعرضها ألف سنة ، فنظر إليها بالهيبة ، فذابت وصارت ماء ، فكان العرش على الماء ، فاضطرب الماء ، فثار منه دخان ، فارتفع إلى الجو ، واجتمع زيد ، فقام فوق الماء ، فجعل الزبد أرضا ، ثم فتقها سبعا ، والدخان سماء ، فسواهن سبع سموات «٤».

ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان طوعا أو كرها وامتثالهما أنه أراد أن يكوّنهما ، فلم يمتنعا عليه ، ووجدتا كما أراد ، وكانتا فى ذلك كالمأمور والمطيع ، وإنما ذكر الأرض مع السماء فى الأمر بالإتيان ، مع أن الأرض

---

(١) الآية ٣٠ من سورة النازعات. [.....]

(٢) أخرجه مطولا والطبري (٢٤/ ٩٤) والحاكم وصحّحه وتعقبه الذهبي (٢/ ٥٤٣) من حديث ابن عباس رضي اللّه عنه.

(٣) أخرج مسلم فى صحيحه (كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب ابتداء الخلق ، ٣/ ٢١٤٩ ، ح ٢٧٨٩) عن أبى هريرة – رضي اللّه عنه – قال : أخذ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بيدي ، فقال : «خلق اللّه عز وجل التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم عليه السّلام بعد العصر من يوم الجمعة ، فى آخر الخلق ، فى آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل».

(٤) ذكره النسفي فى تفسيره (٣/ ٢٢٨).

مخلوقة قبل السماء بيومين لأن المعنى : ائتيا على ما ينبغى أن تأتيا عليه من الشكل والوصف ، أي :

ائتى يا أرض مدحوة قرارا ومهادا لأهلك ، وائتى يا سماء [مبنية] «١» سقفا لهم ، ومعنى الإتيان : الحصول والوقوع.

وقوله : طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لبيان تأثير قدرته فيهما ، وأن امتناعهما عن قدرته محال ، كما تقول لمن تحت يدك : لتفعلن هذا شئت أو أبيت ، طوعا أو كرها. وقال ابن عطية : الأمر بالإتيان بعد اختراعهما ، قال : وهنا حذف ، أي : ثم استوى إلى السماء فأوجدها ، وأتقنها ، وأكمل أمرها ، وحينئذ قال لها وللأرض : ائتيا لأمرى وإرادتى فيكما ، والمراد : تنجيزهما لما أراده منهما ، وما قدر من أعمالهما. هـ.

حكى أن بعض الأنبياء «٢» قال : يا رب لو أن السماوات والأرض حين قلت لهما : ائتيا طوعا أو كرها عصتاك ، ما كنت صانعا بهما؟ قال : كنت آمر دابة من دوابى فتبتلعهما ، قال : وأين تلك الدابة؟ قال : فى مرج من مروجى ، قال : وأين ذلك المرج؟ قال : فى علم من علومى.

وانتصاب طَوْعاً أَوْ كَرْهاً على الحال ، أي : طائعين أو مكرهين. ولم يقل «طائعتين» لأن المراد الجنس ، أي : السموات والأرضين ، وجمع جمع العقلاء لوصفهما بالطوع والكره ، اللذين من وصف العقلاء ، وقال : طائعين فى موضع طائعات تغليبا للتذكير لشرفه ، كقوله : ساجِدِينَ «٣».

فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ أي : فأحكم خلقهن ، وأتقن أمرهن سبعا ، حسبما تقتضيه الحكمة ، فالضمير راجع إلى السماء ، لأنه جنس ، يجوز أن يكون الضمير مبهما مفسرا بقوله : سَبْعَ سَماواتٍ ، فينتصب سبع على الأول حالا ، وعلى الثاني تمييزا. حصل ذلك القضاء فِي يَوْمَيْنِ الخميس والجمعة ، أي : فى وقتين قدر يومين ، فكان المجموع ستة أيام ، وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها أي : أوحى إلى ساكنها وعمّارها من الملائكة فى كلّ سماء ما شاء اللّه من الأمور ، التي تليق بهم ، كالخدمة وأنواع العبادة ، وإلى السماء فى نفسها ما شاء اللّه من الأمور التي بها قوامها وصلاحها.

وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ كالشمس والقمر والنجوم ، وهى زينة السماء الدنيا ، سواء كانت فيها أو فيما فوقها لأنها ترى متلألأة عليها كأنها فيها ، والالتفات إلى نون العظمة لإبراز مزيد العناية بأمرها ، وَحِفْظاً أي : حفظناها حفظا من المسترقة ، أو من الآفات ، فهو مصدر لمحذوف ، وقيل : مفعول لأجله على المعنى ، أي :

وجعلنا المصابيح للزينة والحفظ. ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ أي : ذلك الذي ذكر تفصيله تقدير البالغ فى القدرة والعلم ، أو : الغالب العليم بمواقع الأمور.

---

(١) فى النسفي (مقببة).

(٢) هو سيدنا موسى ، كما ذكره القرطبي فى تفسيره (٧/ ٥٩٦٤).

(٣) من الآية ٤ من سورة يوسف.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٦٥

الإشارة : خلق الحق – تعالى – أرض النفوس محلا للعبودية ، وأرساها بجبال العقل ، لئلا تميل إلى بحر الهوى ، وبارك فيها ، بأن جعل فيها صالحين وأبرارا ، وعبادا وزهادا ، وعلماء أتقياء ، وقدر لها أقواتها الحسية والمعنوية ، فجعل الحسية سواء للسائلين ، أي : مستوية لا يزيد بالطلب ولا بالتعب ، ولا ينقص ، ففيه تأديب لمن لم يرض بقسمته ، والأرزاق المعنوية : أرزاق القلوب من اليقين والمعرفة ، يزيد بالطلب والتعب ، وينقص بنقصانه ، حكمة من الحكيم العليم ، ثم استوى إلى سماء الأرواح ، أي : قصدها بالدعاء إليه ، وهى لطائف ، فقال لها ولأرض النفوس : ائتيا إلى حضرتى ، طوعا أو كرها ، قالتا : أتينا طائعين ، فقضاهن سبع طبقات ، وهى دوائر الأولياء ، دائرة الغوث ، ثم دائرة الأقطاب ، ثم الأوتاد ، ثم النّقباء ، ثم النجباء ، ثم الأبرار ، ثم الصالحين. وأوحى فى كلّ سماء ، أي :

فى كلّ دائرة ما يليق بها من العبادة ، فمنهم من عبادته الشهود والعيان ، ومنهم من عبادته الفكرة ، ومنهم الركوع والسجود ، ومنهم التلاوة والذكر ... إلى غير ذلك من أنواع الأعمال.

قال القشيري : وجعل نفوس العابدين ، أرضا لطاعته وعبادته ، وجعل قلوبهم فلكا لنجوم علمه ، وشموس معرفته ، فأوتاد النفوس الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة ، وفى قلوب ضياء العرفان ، وشموس التوحيد ، ونجوم العلوم والعقول ، والنفوس والقلوب ، بيده يصرّفها على ما أراد من أحكامه.

وقال فى قوله : وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها : الجبال أوتاد الأرض ، فى الصورة ، والأولياء رواسى الأرض فى الحقيقة ، بهم تنزل البركة والأمطار ، وبهم يدفع البلاء. ثم قال : قوله تعالى : وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وزيّن وجه الأرض بمصابيح ، وهى قلوب الأحباب ، فأهل السماء إذا نظروا إلى قلوب أولياء اللّه بالليل ، فذلك متنزههم ، كما أن أهل الأرض إذا نظروا إلى السماء تأنسوا برؤية الكواكب. هـ.

ثم هدد أهل الكفر ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ١٣ الى ١٨]

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (١٧)

وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (١٨)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٦٦

قلت : (و أما ثمود) ، قراءة الجماعة بالرفع ، غير مصروف ، إرادة القبيلة ، وقراءة الأعمش ويحيى بن وثاب مصروفا ، إرادة الحي ، وقراءة ابن أبى إسحاق : بالنصب ، من باب الاشتغال ، وأصل الكلام : مهما يكن من شيء فثمود هديناهم ، فحذف الملزوم الذي هو الشرط ، وأقيم مقامه لازمه ، وهو الجزاء ، وأبقيت الفاء المؤذنة بأن ما بعدها لازم لما قبلها ، وإلا فليس هذا موضع الفاء لأن موضعه صدر الجزاء. انظر المطوّل.

يقول الحق جل جلاله : فَإِنْ أَعْرَضُوا عن الإيمان بعد هذا البيان فَقُلْ لهم : أَنْذَرْتُكُمْ خوّفتكم. وعبّر بالماضي للدلالة على تحقق الإنذار المنبئ عن تحقق الوقوع ، صاعِقَةً أي : عذابا شديدا لو وقع كان كأنه صاعقة ، وأصلها : رعد معه نار تحرق. تكون مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ وقد تقدم عذابهما «١».

إِذْ جاءَتْهُمُ : ظرف لمحذوف ، أي : أنزلناها بهم حين جاءتهم الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أي : أتوهم من كل جانب ، وعملوا فيهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا الإعراض ، أو : جاءتهم الرسل قبلهم لأبائهم ، وبعدهم لمن خلفهم ، أي : تواردت عليهم الرسل قديما وحديثا ، والمعهود إنما هو هود وصالح – عليها السلام. وعن الحسن : أنذروهم من وقائع اللّه بمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة ، أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ أي : بأن لا تعبدوا إلا اللّه ، على أنها مصدرية ، أو : لا تعبدوا ، على أنها مفسرة ، وقيل : مخففة ، أي : أنه لا تعبدوا إلا اللّه. قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً أي : لو شاء إرسال الرّسل لأرسل ملائكة ، ولمّا كان إرسالهم بطريق الإنزال عبّر به ، فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ أي : فحيث كنتم بشرا مثلنا ، ولم تكونوا ملائكة ، ولم يكن لكم فضل علينا ، فإنا لا نؤمن بكم ، ولا بما جئتم به ، وقولهم : أُرْسِلْتُمْ بِهِ ليس بإقرار بالإرسال ، وإنما هو على كلام الرسل ، وفيه تهكم ، كما قاله فرعون : إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ «٢» وقولهم : بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء ، الذين دعوا للإيمان.

---

(١) راجع تفسير الآيات ٦٥ – ٧٩ من سورة الأعراف (٢/ ٢٣٠ – ٢٣٤).

(٢) الآية ٢٧ من سورة الشعراء.

روى أن أبا جهل قال فى ملإ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة ، فكلّمه ، ثم أتانا بالبيان من أمره ، فقال عتبة بن ربيعة : واللّه لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر ، وعلمت من ذلك علما ما يخفى علىّ ، فأتاه ، فقال : أنت يا محمد خير أم هاشم؟ أنت يا محمد خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد اللّه؟ ، فبم تشتم آلهتنا وتضللنا؟ فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء ، فكنت رئيسنا ما بقيت ، وإن كان بك الباءة زوجناك عشر نسوة من أىّ بنات قريش شئت ، وإن كان بك المال ، جمعنا لك ما تستغنى به أنت وعقبك.

والنّبى صلّى اللّه عليه وسلّم ساكت ، فلما فرغ عتبة ، قال صلّى اللّه عليه وسلم : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ .. إلى قوله تعالى : مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ ، فأمسك عتبة على فيه النبىّ صلّى اللّه عليه وسلّم وناشده بالرحم ، فرجع عتبة إلى أهله ، ولم يخرج إلى قريش ، فلما احتبس عنهم ، قالوا : ما نرى عتبة إلا صبأ ، فانطلقوا ، وقالوا : يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك صبأت إلى محمد ، أم أنك أعجبك طعامه؟ فغضب ، ثم قال لهم : لقد كلمته فأجابنى بشىء ، واللّه ما هو شعر ، ولا كهانة ، ولا سحر ، ثم تلى عليهم ما سمع منه إلى قوله : مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ فأمسكت بفيه ، وناشدته بالرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب. هـ «١».

ثم بيّن ما ذكره من صاعقة عاد وثمود ، فقال : فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أي : تعاظموا فيها على أهلها بما لا يستحقون به التعظيم ، وهو القوة ، وعظم الأجرام ، واستولوا على الأرض بغير استحقاق للولاية ، وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ، كانوا ذوى أجسام طوال ، وخلق عظيم ، بلغ من قوتهم أن الرجل كان يقلع الصخرة من الجبل بيده ، ويلوى الحديد بيده ، أَوَلَمْ يَرَوْا أي : أولم يعلموا علم عيان أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً؟ أوسع منهم قدرة لأنه قادر على كلّ شىء ، وهم قادرون على بعض الأشياء بإقداره ، وَكانُوا بِآياتِنا المنزلة على رسلهم يَجْحَدُونَ أي : ينكرونها وهم يعرفون حقيتها ، كما يجحد المودع الوديعة. و(هم) : عطف على (فاستكبروا) ، وما بينها اعتراض ، للرد على كلمتهم الشنعاء.

فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً أي : باردا تهلك وتحرق لشدة بردها ، من : الصر ، وهو البرد ، الذي يجمع ويقبض ، أو : عاصفة تصوّت فى هبوبها ، من الصرير ، فضوعف ، كما يقال : نهنهت وكفكفت. فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ مشؤومات عليهم ، من : نحس نحسا ، نقيض : سعد سعدا ، وكانت من الأربعاء آخر شوال إلى الأربعاء ،

---

(١) أخرجه البغوي فى تفسيره (٧/ ١٦٧) وعزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٦٧٣ - ٦٧٤) للبيهقى فى الدلائل وابن عساكر. عن جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٦٨

وما عذّب قوم إلا فى الأربعاء. قيل : أمسك اللّه عنهم المطر ثلاث سنين ، ودامت الرّياح عليهم من غير مطر. قيل ، إذا أراد اللّه بقوم خيرا ، أرسل عليهم المطر ، وحبس عنهم كثرة الرّياح ، وإذا أراد اللّه بقوم شرا ، حبس عنهم المطر ، وأرسل عليهم كثرة الرّياح. هـ.

لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، أضاف العذاب إلى الخزي ، وهو الذل ، على أنه وصف للعذاب ، كأنه قال : عذاب خزى ، ويدل عليه قوله : وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى أي : أذل لصاحبه ، وهو فى الحقيقة وصف للمعذّب ، وصف به العذاب للمبالغة ، كقولك : له شعر شاعر. وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ برفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه.

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ دللناهم على الرّشد ، بنصب الآيات التكوينية ، وإرسال الرّسل ، وإنزال الآيات التشريعية ، فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى

أي : اختاروا الضلالة على الهداية ، فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ أي : داهية العذاب الذي يهين صاحبه ويخزيه ، وهى الصيحة والرّجفة ، والهون : الهوان ، وصف به للمبالغة ، بِما كانُوا يَكْسِبُونَ أي : بكسبهم الخبيث من الشرك والمعاصي.

قال الشيخ : أبو منصور : يحتمل قوله : فَهَدَيْناهُمْ : بيّنا لهم ، كما تقدم ، ويحتمل : خلق الهداية فى قلوبهم ، فصاروا مهتدين ، ثم كفروا بعد ذلك ، وعقروا النّاقة ، لأن الهدى المضاف إلى الخالق يكون بمعنى البيان ، ويكون بخلق فعل الاهتداء ، وأما الهدى المضاف إلى الخلق فيكون بمعنى البيان ، لا غير. هـ.

وقال الطيبي : قوله تعالى : فَهَدَيْناهُمْ هو كقوله تعالى : إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ «١». وقوله : فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى هو كقوله : قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا ... الآية «٢». وكذا فى قوله : فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ، فإن الفاء فى «فاستكبروا» فصيحة ، تفصح عن محذوف ، أي : فهديناهم فاستكبروا بدلالة ما قيل فى ثمود. هـ.

وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا أي : اختاروا الهدى على العمى ، من تلك الصاعقة ، وَكانُوا يَتَّقُونَ الضلالة والتقليد.

---

(١) من الآية ١٤ من سورة فصلت.

(٢) من الآية ١٤ من سورة فصلت

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٦٩

الإشارة : كل من أعرض عن الوعظ والتذكار ، ونأى عن صحبة الأبرار فالصعقة لاحقة به ، إما فى الدنيا أو فى الآخرة. وقوله تعالى : فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا ... الآية : أوصاف العبودية أربعة : الضعف ، والذل ، والفقر ، والعجز ، فمن خرج عن واحد منها ، فقد تعدى طوره ، واستحق الهلاك والهوان ، ورمته رياح الأقدار فى مهاوى النيران.

وقوله : وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ أي : بيّنا لهم طريق السير إلينا ، على ألسنة الوسائط ، فحادوا عنها ، واستحبوا العمى على الهدى حيث لم يسبق لهم الهداية فى الأزل ، فالسوابق تؤثر فى السوابق ، فكأن جبلة القوم الضلالة ، فمالوا إلى ما جبلوا عليه من قبول الضلالة.

وقوله تعالى : وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا أي : فى الدنيا من الصاعقة ، وفى الآخرة من السقوط فى الهاوية.

قال القشيري : منهم من نجّاهم من غير أن رأوا النار ، عبروا القنطرة ولم يعلموا ، وقوم كالبرق الخاطف ، وهم أعلاهم – قلت : بل أعلاهم كالطرف – ثم قال : وقوم كالرواكض ، وهم أيضا الأكابر ، وقوم على الصراط يسقطون وتردّهم الملائكة على الصراط ، فبعدوا. ثم قال : وقوم بعد ما دخلوا النار ، فمنهم من تأخذه إلى كعبيه ، ثم إلى ركبتيه ، ثم إلى حقويه «١» ، فإذا بلغ القلب قال الحقّ للنار : لا تحرقى قلبه ، فإنه محترق بي. وقوم يخرجون من النار بعد ما امتحشوا «٢» فصاروا حمما «٣». هـ منه.

ثم ذكر وعيد أهل الشرك ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ١٩ الى ٢٤]

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (٢٣)

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤)

---

(١) الحقو : الخصر

(٢) امتحش الحر أو النار جلده ، أي : أحرقه وقشره عن اللحم.

(٣) الحمم : الفحم وكل ما احترق من النار [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٧٠

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ «١» من كفار المتقدمين والمتأخرين إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ يضمون ويساقون إلى النار ، ويحبس أولهم على آخرهم ، فيستوقف سوابقهم حتى تلحق بهم تواليهم ، وهى عبارة عن كثرة أهل النار ، وأصله : من وزعته ، أي : كففته. حَتَّى إِذا ما جاؤُها أي : حضروها ، و«حتى» : غاية للحشر ، أو : ليوزعون ، و«ما» : مزيدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور ، فبمجرد حضورهم شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ أي : بشراتهم بِما كانُوا يَعْمَلُونَ فى الدنيا ، من فنون الكفر والمعاصي ، بأن ينطقها اللّه تعالى ، ويظهر عليها آثار ما اقترفوا بها. وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : أن المراد بشهادة الجلود : شهادة الفروج ، كقول الشاعر :

أو سالم من قد تث نّى جلده وابيضّ رأسه «٢»

فكنّى بجلده عن فرحه ، وهو الأنسب لتخصيص السؤال بها فى قوله تعالى : وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا ، فإن ما تشهد به من الزنا أعظم جناية وقبحا ، وأجلب للحزن والعقوبة ، مما تشهد به السمع والأبصار من الجنايات المكتسبة بتوسطها. روى : أن العبد يقول يوم القيامة : يا رب ، أليس قد وعدتني ألا تظلمنى؟ فيقول تعالى :

فإن لك ذلك ، قال : فإنى لا أقبل علىّ شاهدا إلا من نفسى ، قال تعالى : أو ليس كفى بي شهيدا ، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟ قال : فيختم على فيه ، وتتكلم أركانه بما كان يعمل ، فيقول لهن : بعدا لكنّ وسحقا ، عنكنّ كنت أجادل» «٣».

قالُوا فى جوابهم : أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ من الحيوانات ، وأقدرنا على بيان الواقع ، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح ، وما كتمناها. أو : ما نطقنا باختيارنا ، بل انتقنا اللّه الذي أنطق كل شيء. وقيل :

سألوها سؤال تعجب ، فالمعنى حينئذ : وليس نطقنا بعجب من قدرة اللّه – تعالى – الذي أنطق كل شيء ، وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فإنّ من قدر على خلقكم أول مرة ، وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه ،

---

(١) قرأ نافع ويعقوب «نحشر» بنون العظمة. و«أعداء» بالنصب ، مفعول به. وقرأ الباقون بياء الغيب مضمومة ، و«أعداء» بالرفع على النيابة. انظر الإتحاف (٢/ ٤٤٣).

(٢) جاء البيت فى تفسير القرطبي (٧/ ٥٩٧٠) مسبوقا ببيت آخر هو :

المرء يسعى للسلا مة والسلامة حسبه

وعزاه القرطبي لعامر بن جؤية.

(٣) أخرجه مسلم فى (الزهد والرقائق ، ٤/ ٢٢٨١ ، ح ٢٩٦٩) من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٧١

لا يتعجب من إنطاقه جوارحكم. ولعل صيغة المضارع ، مع أن هذه المحاورة بعد البعث والرجع ، كما أن المراد بالرجوع ليس مجرد الرد إلى الحياة بالبعث ، بل ما يعمه ، وما يترتب عليه من العذاب الخالد المترقب عند التخاطب ، على تغليب المتوقع على الواقع ، مع ما فيه من مراعاة الفواصل ، فهذا على أنه من تتمة كلام الجلود ، وقيل : هو من كلام الحق – تعالى – لهم ، فيوقف على «شى ء» وهو ضعيف. وكذا قوله :

وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ ، يحتمل أن يكون من كلام الجلود ، أو : من كلام اللّه – عز وجل – وهو الظاهر ، أي : وما كنتم تستترون فى الدنيا عند مباشرتكم الفواحش مخافة أن تشهد عليكم جوارحكم ، ولو خفتم من ذلك ما استترتم بها ، وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ من القبائح الخفية ، فلا يظهرها فى الآخرة.

وعن ابن مسعود رضي اللّه عنه : كنت مستترا بأستار الكعبة ، فدخل ثلاثة نفر وثقفيان وقرشى ، أو : قرشيان وثقفى ، فقال أحدهم : أترون أن اللّه يسمع ما نقول؟ قال الآخر : سمع جهرنا ولا يسمع ما أخفينا ، فذكر ذلك للنبى صلى اللّه عليه وسلم ، فأنزل اللّه تعالى : وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ ... الآية «١» ، فالحكم المحكي حينئذ يكون خاصا بمن كان على ذلك الاعتقاد من الكفرة. انظر أبا السعود.

وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ أهلككم ، ف «ذلك» : مبتدأ ، و«ظنكم» : خبر ، و«الذي ظننتم بربكم» : صفة ، و«أرادكم» : خبر ثان ، أو : ظنكم : بدل من «ذلك» و«أرداكم» : خبر ، فَأَصْبَحْتُمْ بسبب الظن السوء مِنَ الْخاسِرِينَ إذ صار ما منحوا لسعادة الدارين سببا لشقاء النشأتين.

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً مقام لَهُمْ أي : فإن يصبروا لم ينفعهم الصبر ، ولم ينفكوا به من الثوى فى النار ، وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا أي : يسألوا العتبى وهو الاسترضاء فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ المجابين إليها ، أي : وإن يطلبوا الاسترضاء من اللّه – تعالى – ليرضى عنهم ، فما هم من المرضين لما تحتم عليهم واستوجبوه من السخط ، قال الجوهري : أعتبنى فلان : إذا عاد إلى مسرتى ، راجعا عن الإساءة ، والاسم منه : العتبى ، يقال : استعتبته فأعتبنى ، أي : استرضيته فأرضانى. وقال الهروي : إن يستقيلوا ربهم لم يقلهم ، أي : لم يردهم إلى الدنيا ، أو : إن أقالهم وردهم لم يعملوا بطاعته ، كقوله : وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا

عَنْهُ «٢».

---

(١) أخرجه البخاري فى (التفسير ، سورة حم السجدة ، باب : وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ .. ح ٤٨١٦) ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم ، ٤/ ٢١٤١ ح ٢٧٧٥).

(٢) من الآية ٢٨ من سورة الأنعام.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٧٢

الإشارة : أعداء اللّه هم الجاحدون لوحدانيته ولرسالة رسله ، وهم الذين تشهد عليهم جوارحهم ، وأما المؤمن فلا ، نعم إن مات عاصيا شهدت عليه البقع أو الحفظة ، فإن تاب أنسى اللّه حفظته ومعالمه فى الأرض ذنوبه. قال فى التذكرة : إن العبد إذا صدق فى توبته أنسى اللّه ذنوبه لحافظيه ، وأوحى إلى بقع الأرض وإلى جميع جوارحه :

أن اكتموا مساوئ عبدى ، ولا تظهروها ، فإنه تاب إلىّ توبة صادقة ، بنية مخلصة ، فقبلته وتبت عليه ، وأنا التواب الرحيم.

وفى الآية حث على حسن الظن باللّه ، وفى الحديث : «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن باللّه عز وجل» «١» وقال أيضا : «يقول اللّه – عز وجل : أنا عند ظنّ عبدى بي ...» الحديث «٢» فمن ظن خيرا لقى خيرا ، ومن ظن شرا لقى شرا. وباللّه التوفيق.

ثم إن سبب الغواية أو الهداية هى الصحبة ، كما قال تعالى :

[سورة فصلت (٤١) : آية ٢٥]

وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (٢٥)

يقول الحق جل جلاله : وَقَيَّضْنا أي : سيّرنا ، أو : قدّرنا ، لَهُمْ أي : كفار مكة فى الدنيا قُرَناءَ سوء من الجن والإنس ، أو : سلطنا عليهم نظراء لهم من الشياطين يستولون عليهم ، كقوله : وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ «٣» ، فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ من أمور الدنيا ، واتباع الشهوات ، والتقليد لأسلافهم ، حتى حادوا عن الحق ، وَما خَلْفَهُمْ من أمور الآخرة ، حيث ألقوا إليهم : ألا بعث ولا حساب. أو : ما تقدم من أعمالهم وما هم عازمون عليها ، وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ أي : ثبت وتقرر عليهم كلمة العذاب ، أو : تحقق موجبها ومصداقها ، وهى قوله تعالى لإبليس : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ «٤» ، حال كونهم فِي جملة أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ أي : قبل أهل

مكة مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ

---

(١) أخرجه مسلم فى (كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب الأمر بحسن الظن باللّه ، ٤/ ٢٢٠٥ ، ح ٢٨٧٧) عن جابر رضي اللّه عنه.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري فى (كتاب التوحيد ، باب قول اللّه تعالى : وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ، ح ٧٤٠٥) ومسلم فى (كتاب الذكر والدعاء ، باب الحث على ذكر اللّه تعالى ، ٤/ ٢٠٦١ ح ٢٦٧٥) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٣) الآية ٣٦ من سورة الزخرف.

(٤) من الآية ٨٥ من سورة «ص».

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٧٣

كانوا مصرّين على الكفر العصيان ، إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ حيث آثروا الباطل على الحق ، وهو تعليل لاستحقاقهم العذاب. والضمير لهم وللأمم.

الإشارة : قال القشيري : إذا أراد اللّه بعبده سوء ، قيّض له إخوان سوء وقرناء شر ، هم الأضداد له فيما راموا ، وإذا أراد اللّه بعبد خيرا قيّض له قرناء خير ، يعينونه على الطاعة ، ويحملونه عليها ، ويدعونه إليها ، وإذا كانوا إخوان سوء يحملونه على المخالفات ، ويدعونه إليها ، ومن ذلك الشيطان. ثم قال : وشرّ قرين المرء نفسه ، ثم الشيطان ، ثم شياطين الإنس ، فزيّنوا لهم ما بين أيديهم من طول الأمل ، وما خلفهم من نسيان الزّلل ، والتسويف فى التوبة ، والتقصير فى الطاعة. هـ.

قلت : واللّه ما رأينا الفلاح والخسران إلا من الخلطة. قال بعضهم : واللّه ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح ، ولا سيما صحبة العارفين فساعة معهم تعدل عبادة سنين بالصيام والقيام وأنواع المجاهدة ، وللّه در الجيلاني «١» رضي اللّه عنه حيث قال :

فشمر ولذ بالأولياء فإنّهم لهم من كتاب اللّه تلك الوقائع
هم الذّخر للملهوف والكنز للرّجا ومنهم ينال الصّبّ ما هو طامع
بهم يهتدى للعين من ضلّ فى العمى بهم يجذب العشّاق والرّبع شاسع
هم الناس فالزم إن عرفت جنابهم ففيهم لضرّ العالمين منافع «٢»

ثم ذكر بعض ما زيّنوا لهم ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٢٦ الى ٢٨]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (٢٨)

---

(١) هو الشيخ عبد الكريم الجيلي.

(٢) البيت الأخير جاء فى ديوان الجيلي ص ٨٩ مسبوقا ببيت هو :

هم القصد والمطلوب السّؤل والمنى واسمهم للصب فى الحب شافع

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٧٤

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا من رؤساء المشركين لأتباعهم ، أو : بعضهم لبعض : لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ إذا قرئ ، أي : لا تنصتوا له لأنه يقلب القلوب ، ويسبى العقول ، وكل من استمع إليه صبا إليه ، وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ أي : عارضوه بكلام غير مفهوم ، أو : بالخرافات من الرّجز والشعر والتصدية ، وارفعوا أصواتكم بها لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ أي : تغلبونه على قراءته ، وشوّشوا عليه فيقع فى الغلط ، أو : لا يسمعه منه أحد.

واللغو : الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته.

فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : فو اللّه لنذيقن هؤلاء اللاغين والقائلين ، أو : جميع الكفار ، وهم داخلون فيهم دخولا أولياء. عَذاباً شَدِيداً لا يقادر قدره ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ أي : أعظم عقوبة على أسوأ أعمالهم ، وهو الكفر ، وقيل : إنه لا يجازيهم بمحاسن أعمالهم ، كإغاثة الملهوفين ، وصلة الأرحام ، وقرى الضيق لأنها محبطة بالكفر ، وإنما يجازيهم على أسوئها. وعن ابن عباس : عَذاباً شَدِيداً : يوم بدر ، وأَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ : ما يجزون فى الآخرة.

ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ النَّارُ أي : ذلك الأسوأ من الجزاء هو جزاء أعداء اللّه ، وهو النار. فالنار : خبر عن مضمر ، أو : عطف بيان للجزاء ، والنار : مبتدأ. وَلَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ : خبر ، أي : النار فى نفسها دار الخلد ، كما تقول : لك فى هذه الدار السرور ، وأنت تعنى الدار بعينها ، ويسمى فى علم البلاغة : التجريد ، وهو أن ينتزع من ذى صفة أمرا آخر مثله ، مبالغة ، لكمال فيه. تقول : لقيت من زيد أسدا. وقيل : هى على معناها ، والمراد : أن لهم فى النار المشتملة على الدركات دار مخصوصة ، هم فيها خالدون ، جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ أي : جوزوا بذلك جزاء بسبب ما كانوا يجحدون بآياتنا ويلغون فيها.

الإشارة : الآية تنسحب على من يرفع صوته بمحضر مجلس الوعظ والذكر ، أو العلم النافع ، أو صفوف الصلاة ، فهذه المجالس يجب صونها من اللغو والصخب ، ويجب الاستماع لها ، والإنصات ، والتوقير ، والتعظيم ، لأنها موروثة عن الرسول صلى اللّه عليه وسلم قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى «١» ، ومن فعل شيئا من ذلك فالوعيد بقوله تعالى : فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ... الآية – منه بالمرصاد. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٣ من سورة الحجرات.

ثم ذكر مقالتهم بعد دخول النار ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : آية ٢٩]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩)

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا وهم متقلبون فيما ذكر من العذاب : رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، يعنون الفريقين الحاملين على الضلال ، من شياطين الجن والإنس ، بالتسويل والتزيين ، وقيل : هما إبليس وقابيل ، فإنهما سنّا الكفر والقتل ، وقرىء بسكون الرّاء تخفيفا «١» ، كفخذ وفخذ ، وبالاختلاس «٢» ، أي : أبصرناهما ، نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا أي : ندسهما تحت أرجلنا ، انتقاما منهما ، أو : نجعلهما فى الدرك الأسفل لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ذلا ومهانة ، أو : مكانا ، جزاء إضلالهم إيانا.

الإشارة : كل من سقط عن درجة المقربين العارفين ، وتعوّق عن صحبتهم ، بسبب تعويق أحد ، تمنى يوم القيامة أن يكون تحت قدمه ، ليكون أسفل منه ، غيظا وندما ، ولا ينفع التمني والندم فى ذلك اليوم. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر أهل القرب والعناية ، بعد ذكر أهل البعد والغواية ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٣٠ الى ٣٢]

إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ أي : نطقوا بالتوحيد واعتقدوا ، ثُمَّ اسْتَقامُوا أي : ثبتوا على الإقرار ومقتضياته من حسن الأعمال ، وعن الصدّيق رضي اللّه عنه : استقاموا فعلا ، كما استقاموا قولا. وعنه : أنه تلاها ثم قال : ما تقولون فيها؟ قالوا : لم يذنبوا ، قال : حملتم الأمر على أشده ، قالوا : فما تقول؟ قال : لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. وعن عمر رضي اللّه عنه : لم يروغوا روعان الثعالب ، أي : لم ينافقوا. وعن عثمان رضي اللّه عنه : أحكموا العمل ،

---

(١) وبها قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بخلفه ، وأبو بكر ، ويعقوب ، وقرأ الباقون بالكسر. انظر الإتحاف (٢/ ٤٤٣).

(٢) وهى الوجه الثاني لأبى عمرو. [.....]

وعن علىّ رضي اللّه عنه : أدّوا الفرائض. وعن الفضيل : زهدوا فى الفانية ، ورغبوا فى الباقية «١».

قلت : ويجمعها الإقرار بالربوبية ، والقيام بوصائف العبودية.

تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ عند الموت ، وفى القبر ، وعند البعث ، أو : فى الدنيا بإلهام الخير وشرح الصدر ، وإعانتهم على الأمور الدينية ، كما أن الكفرة تقويهم ما قيض لهم فى قرناء السوء. والأظهر : العموم. أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا ف «أن» مخففة ، أو : تفسيرية ، أي : لا تخافوا ما تقدمون عليه ، ولا تحزنوا على ما خلفتم ، فالخوف : غم يلحق لتوقع مكروه ، والحزن : غم يلحق لفوات نافع ، أو حضور ضار. والمعنى : أن اللّه تعالى كتب لكم الأمن من كلّ غم ، فلن تذوقوه أبدا. وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ فى الدنيا على ألسنة الرسل.

وقال محمد بن على الترمذي : تتنزل عليهم ملائكة الرحمة ، عند مفارقة الأرواح الأبدان ، ألا تخافوا سلب الإيمان ، ولا تحزنوا على ما كان من العصيان ، وأبشروا بدخول الجنان ، التي توعدون فى سالف الأزمان.

نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ

، كما أن الشياطين قرناء العصاة وإخوانهم ، فكذلك الملائكة أولياء المتقين وأحباؤهم فى الدارين.

وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ

من فنون الطيبات ، وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ

ما تتمنون ، افتعال من الدعاء ، بمعنى الطلب ، نُزُلًا : حال من مفعول «تدّعون» المحذوف ، أو : من

«ما» ، والنزل : ما يقدم للنزيل ، وفيه تنبيه على أن ما يتمنونه بالنسبة إلى ما يعطون من عظائم النعيم كالنزل للضيف. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إن الذين أقروا بقهرية الربوبية ، وقاموا بوظائف العبودية ، تتنزل عليهم الملائكة بالبشارة الأبدية. قال القشيري : فأما الاستقامة فهى الثبات على شرائط الإيمان بجملتها ، من غير إخلال بشىء من أقسامها.

ثم قال : من كان له أصل الاستقامة ، وهى التوحيد ، أمن من الخلود فى النار ، ومن كان له كمال الاستقامة أمن من الوعيد ، من غير أن يلحقه سوء بحال. ويقال : استقاموا على دوام الشهود ، وانفراد القلب بالمعبود ، أو : استقاموا فى تصفية العقد ، ثم فى توفية العهد ، ثم فى صحّة القصد ، بدوام الوجد ، أو : استقاموا بأقوالهم ، ثم بأعمالهم ، ثم بصفاء أحوالهم ، فى وقتهم وفى مآلهم ، أو : داموا على طاعته ، واستقاموا فى معرفته ، وهاموا فى محبته ، وقاموا بشرائط خدمته. واستقامة العابد : ألا يعود إلى الفترة واتباع الشهوة ، ولا يدخله رياء ولا تصنع ، واستقامة العارف :

ألا يشوب معرفته حظ فى الدارين ، فيحجب به عن مولاه ، واستقامة المحبين : ألا يكون لهم أرب من غير محبوبهم يكتفون من عطائه ببقائه ، ومن مقتضى جوده بدوام عزّه ووجوده. هـ.

---

(١) انظر فى هذه الأقوال تفسير الطبري (٢٤/ ١١٥) والبغوي (٧/ ١٧٢) والبحر المحيط (٧/ ٤٧٥).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٧٧

وقوله تعالى : تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أي : تمدهم بالاهتداء والأنوار ، وتلهمهم العلوم والأسرار ، فى مقابلة تقييض الغافل بالقرناء الأشرار ، فكما أن الغافل يخذل بتسليط الغواة فى الدارين ، كذلك العارف يمد وينصر من قبل الملائكة فى الدارين.

وقوله تعالى : أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا أي : حيث وجدتم اللّه لا تخافوا من شىء ، ولا تحزنوا على فوات شىء ، إذ لم يفتكم شىء ، وما ذا فقد من وجده؟.

قال القشيري : لا تخاوفوا من عزلة الولاية ، ولا تحزنوا على ما أسلفتم من الجناية ، وأبشروا بحسن العناية ، أو : لا تخافوا مما أسلفتم ، ولا تحزنوا على ما خلّفتم ، وأبشروا بالجنة التي وعدتم. أو : لا تخافوا المذلة ، ولا تحزنوا على ما أسلفتم من الزلّة ، وأبشروا بدوام الوصلة. هـ.

ثم قال فى قوله تعالى : نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ

:

الولاية من اللّه – تعالى – بمعنى المحبة ، وتكون بمعنى النّصرة ، وهذا الخطاب بقوله : نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ ، يحتمل أن يكون من قبل الملائكة ، الذين يتنزلون عليهم ، ويحتمل أن يكون ابتداء خطاب من اللّه. تعالى – والنّصرة تصدر من المحبة ، ولو لم تكن المحبة الأزلية لم تكن تحصل النصرة فى الحال. هـ. وكونه من الملائكة أظهر ، كما تقدم. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا ذكر حال أهل الاستقامة ، ذكر حال من دعا إليها ، أو : تقول : لمّا ذكر حال أهل الكمال فقط ، ذكر أهل الكمال والتكميل ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٣٣ الى ٣٦]

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَما يُلَقَّاها إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ أي : إلى الإقرار بربوبيته ، والاستقامة على عبوديته ، وهو الرسول صلى اللّه عليه وسلم وخلفاؤه من أمته ، الدعاة إلى اللّه فى كلّ عصر ، أي : لا أحد أحسن قولا ممن دعا إلى

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٧٨

معرفة اللّه ، وَعَمِلَ صالِحاً فيما بينه وبين ربه ، بأن عمل أولا بما دعا إليه ، وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ تفاخرا بالإسلام ، وابتهاجا بأنه منهم ، واتخاذ الإسلام دينا ، من قولهم : هذا قول فلان ، أي : مذهبه لأنه يتكلم بذلك ، أو : يقوله تواضعا ، أي : من جملة عامة المسلمين وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، هذا بيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد ، إثر بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد وبين الرب – عز وجل – ترغيبا للدعاة إلى اللّه فى الصبر على إذاية الخلق ، لأن كلّ من يأمر بالحق يؤذى ، فأمروا بمقابلة الإساءة بالإحسان ، أي : لا تستوى الخصلة الحسنة والخصلة السيئة ، و(لا) : مزيدة ، لتأكيد النفي. ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أي : ادفع السيئة التي اعترضتك من بعض أعدائك بالتي هى أحسن منها ، وهى : أن تحسن إليه فى مقابلة إساءته ، فالحسنة والسيئة متفاوتتان فى أنفسهما ، فخذ بالحسنة التي هى أحسن من أختها ، وادفع بها السيئة ، كما لو أساء إليك رجل ، فالحسنة : أن تعفو عنه ، والتي هى أحسن : أن تحسن إليه مكان إساءته ، مثل أن يذمك فتمدحه ، ويحرمك فتعطيه ، ويقطعك

فتصله. وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : التي هى أحسن :
الصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عن الإساءة. «١» هـ.
فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ أي : فإنك إن فعلت ذلك انقلب عدوك المشاقق مثل وليك الحميم الشفيق ، مصافاة لك ، وهذا صعب على النفوس ، ولذلك قال :
وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا أي : ما يلقى هذه الخصلة التي فى مقابلة الإساءة بالإحسان إلا أهل الصبر ، وَما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ من اللّه – تعالى – وسبق عنايته بكمال النفس وتهذيبها. وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : الحظ العظيم : الثواب ، وعن الحسن : واللّه ما عظم حظ دون الجنة. وقيل : نزلت فى أبى سفيان بن حرب ، كان عدوا مؤذيا للنبى صلى اللّه عليه وسلم فصار وليا مصافيا له «٢» ، وبقيت عامة.
وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ ، النزغ : شبه النخس ، والشيطان ينزغ الإنسان ، كأنه ينخسه ، ببعثه على ما لا ينبغى ، وجعل النزغ نازغا مجاز ، كجدّ جدّه ، والمعنى : وإن طرقك الشيطان على ترك ما وصّيت به من الدفع بالتي هى أحسن ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ من شرّه ، وامض على [حلمك] «٣» ولا تطعه ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

---

(١) ذكره البغوي فى تفسيره (٧/ ١٧٤) وابن كثير (٤/ ١٠١).
(٢) قاله مقاتل بن حيان ، فيما ذكره البغوي فى تفسيره. (٧/ ١٧٤).
(٣) فى الأصول (حكمه) والمثبت من النسفي.

لاستعاذتك ، الْعَلِيمُ بنيتك وتعلقك به ، أو : بنزغ الشيطان ووسوسته. وهو تعليم لأمته صلى اللّه عليه وسلم إذ كان شيطانه أسلم على يده.
الإشارة : قال القشيري : قيل : الداعي إلى اللّه هو الذي يدعو الناس إلى الاكتفاء باللّه ، وترك طلب العوض من اللّه ، بل يكل أمره إلى اللّه ، ويرضى من اللّه بقسمة اللّه. ثم قال : وَعَمِلَ صالِحاً كما يدعو الخلق إلى اللّه يأتى بما يدعوهم إليه ، ويقال : هم الذين عرفوا طريق اللّه ، ثم دعوا – بعد ما عرفوا الطريق إلى اللّه – الخلق إلى اللّه ، وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ لحكمه ، الراضين بقضائه وتدبيره. هـ.
وقال الشاذلى رضي اللّه عنه : عليك برفض الناس جملة ، إلا من يدلك على اللّه ، بإشارة صادقة ، وأعمال ثابتة ، لا ينقضها كتاب ولا سنّة. هـ. وشروط الداعي إلى اللّه على طريق المشيخة أربعة : علم

صحيح ، وذوق صريح ، وهمة عالية ، وحالة مرضية ، كما قال زروق رضي اللّه عنه. وقال الشريشى «١» فى رائيته :

وللشيخ آيات إذا لن تكن له فما هو إلا فى ليالى الهوى يسرى

إذا لم يكن علم لديه بظاهر ولا باطن فاضرب به لجج البحر

أما العلم الظاهر فإنما يشترط منه ما يحتاج إليه فى خاصة نفسه ، ويحتاج إليه المريد فى حال سفره إلى ربه ، وهو القدر الذي لا بد منه ، من أحكام الطهارة والصلاة ونحو ذلك ، ولا يشترط التبحر فى علم الشريعة. قال الشيخ أبو يزيد ، رضي اللّه عنه : صحبت أبا على المسندى ، فكنت ألقنه ما يقيم به فرضه ، وكان يعلمنى التوحيد والحقائق صرفا.

هـ. ومن المعلوم أن الشيخ ابن عباد لم يفتح عليه إلا على يد رجل عامى ، وقد تحققت تربية كثير من الأولياء ، كانوا أميين فى علم الظاهر «٢». وأما علم الباطن فالمطلوب فيه التبحر التام إذ المقصود بالذات فى الشيخ المصطلح عليه عند القوم هو هذا العلم لأن المريد أنما يطلب الشيخ ليسلكه ويعلمه علم الطريقة والحقيقة فيكون عنده علم تام باللّه وصفاته وأسمائه ، ذوقا وكشفا ، وعلم بآفات الطريق ، ومكائد النفس ، والشيطان ، وطرق المواجيد ، وتحقيق المقامات ، كما هو مقرر فى فنه ، وهذا الداعي لا تخلو الأرض منه على الكمال ، خلافا لمن حكم بانقطاعه. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن خلف ، القريشي ، تاج الدين ، الشريشى ، المالكي ، الصوفي. ولد فى سلا – بجوار الرباط سنة ٥٨١ هـ ، ونشأ بمراكش ، وبرع فى علم الكلام وأصول الفقه. وتصوف على يد أبى حفص السهروردي عمر بن محمد ، واستقر بالفيوم بمصر ، وتوفى بها سنة ٦٤١ هـ ، اشتهر بقصيدته الرائية المسماة «أنوار السرائر وسرائر الأنوار». انظر الأعلام للزركلى (١/ ٢١٩).

(٢) انظر الفتوحات الإلهية للإمام المفسر (١٠٢ – ٢٠٤) وراجع التعليق على إشارة الآيات : ٤٧ – ٤٩ من سورة العنكبوت.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٨٠

وفى الإحياء : المقتدى به هو الذي استقام فى نفسه ، واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره ، لا من يظهر خلاف ما هو عليه ليقتدى به ، فإنه ملبّس ، لم ينصح لنفسه ، فكيف بغيره؟. هـ.

قال الورتجبي : ومن أحسن قولا ممن دعا إلى اللّه ، أي : ممن عرف اللّه بعد أن رآه وأحبه واشتاق إليه ، ودعا الخلق إليه ، من حيث هو فيه وصدقه فى حاله ، يدعو الخلق إلى اللّه بلسان الأفعال ، وصدق

المقال ، وحلاوة الأحوال ، ويذكر لهم شمائل القدم وحق الربوبية ، ويعرفهم صفات الحق وجلال ذاته ، ويحبب اللّه فى قلوبهم ، وهذا عمله الصالح ، ثم يقول بعد كماله وتمكنه : إننى واحد من المسلمين ، من تواضعه ولطف حاله خلقا وظرافة ، وإن كان إسلامه من قصارى – أي : غاية – أحوال المستقيمين. قال سهل : أي : ممن دلّ على اللّه ، وعلى عبادة اللّه وسنّة رسوله ، واجتناب المناهي ، وإدامة الاستقامة مع اللّه ، ثم قال : وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ بيّن اللّه هنا أن الخلق الحسن ليس كالخلق السيئ ، وأمر بتبديل الأخلاق المذمومة بالأخلاق المحمودة ، وأحسن الأخلاق : الحلم إذ يكون به العدو صديقا ، والبعيد قريبا ، حين دفع غضبه بحلمه ، وظلمه بعفوه ، وسوء جانبه بكرمه ، وفى مظنة الخطاب : أن من كان متخلقا بخلقه ، متصفا بصفاته ، مستقيما فى خدمته ، صادقا فى محبته ، عارفا بذاته وصفاته ، ليس كالمدعى الذي ليس فى دعواه معنى.

ثم قال : وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، بيّن اللّه سبحانه ألا يبلغ أحد درجة الخلق الحسن ، وحسنات الأعمال وسنيّات الأفعال ، إلا من تصبّر فى بلاء اللّه ، وامتحانه ، بالوسائط وغير الوسائط ، ولا يتحمل هذه البليات إلا ذو حظ عظيم من مشاهدته ، وذو نصيب من قربه ووصاله ، صاحب معرفة كاملة ، ومحبة شاملة. وكمال هذا الصبر الاتصاف بصبر اللّه ، ثم الصبر فى مشاهدة الأزل ، فبالصبر الاتصافى ومشاهدة الأبدى ، والحظ الجمالي ، يوازى طوارق صدمات الألوهية ، وغلبات القهّارية. ثم قال : عن الجنيد : ما يوفق لهذا المقام إلا ذو حظ عظيم من عناية الحق فيه. هـ.

ثم بيّن دلائل توحيده ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٣٧ الى ٣٩]

وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٨١

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْ آياتِهِ الدالة على وحدانيته : اللَّيْلُ وَالنَّهارُ فى تعاقبهما على حدّ معلوم ، وتناوبهما على قدر مقسوم ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ فى اختصاصهما بسير مقدّر ، ونور مقرّر إذ لا يصدر ذلك إلا من واحد قهار. لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ فإنها مخلوقان مثلكم ، وإن كثرت منافعهما ، وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ أي : الليل والنهار والشمس والقمر. وحكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى

أو الإناث فى الضمير ، تقول : الأقلام بريتها وبريتهنّ. ولعلّ ناسا من المشركين كانوا يسجدون للشمس والقمر ، تبعا للصّابئين من المجوس فى عبادتهم الكواكب ، ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لها السجود للّه – تعالى – فنهوا عن هذه الواسطة ، وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه اللّه وحده ، إن كانوا موحدين ، ولذلك قال : إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ فإن السجود أقصى مراتب العبادة ، فلابد من تخصيصه به سبحانه ، وهذا موضع السجدة عند مالك والشافعي ، وعند أبى حنيفة : (لا يسأمون).

فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا عن الامتثال ، فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ من الملائكة يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ أي : دائما ، وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ لا يملّون ولا يفترون ، والمعنى : فإن استكبر هؤلاء وأبوا إلا الواسطة ، فدعهم وشأنهم ، فإن اللّه غنى عنهم ، وقد عمّر سماواته بمن يعبده ، وينزهه بالليل والنهار عن الأنداد.

والعندية عبارة عن الزلفى والكرامة.

وَمِنْ آياتِهِ أيضا أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً يابسة مغبرة. والخشوع : التذلل ، فاستعير للأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها ، فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ المطر اهْتَزَّتْ أي : تحركت وَرَبَتْ انتفخت لأن النبات إذا دنا أن يظهر ارتفعت به وانتفخت ، ثم تصدعت عن النبات ، وقيل : تزخرفت وارتفعت بارتفاع نباتها ، إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى بالبعث ، إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، ومن جملة الأشياء : البعث والحساب.

(١٨١/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٨٢

الإشارة : الليل والنهار والشمس والقمر خلقهن من أجلك ، فعار عليك أن تخضع لما خلق لك ، وتترك المنعم بها عليك. قال القشيري : الحق – سبحانه – يأمرك بصيانة وجهك عن الشمس والقمر مع علوهما ، وأنت لأجل حظّ خسيس تنقل قدمك إلى كلّ أحد ، وتذل وجهك لكل أحد. هـ. وأما الخضوع لمن أمر اللّه بالخضوع له من الدعاة إلى اللّه فهو من الخضوع للّه ، كأمر الملائكة بالسجود لآدم ، وكأمره بالخضوع للأنبياء والأولياء ، فكان مآل من سجد وخضع التقريب ، ومآل من استكبر وأنف الطرد والبعد ، واللّه تعالى غنى عن الكل ، ولذلك قال : فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا ... الآية.

قوله تعالى : وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً ... الآية ، وكذلك أرض النّفوس تراها يابسة بالغفلة والقسوة والجهل ، فإذا أنزل عليها ماء الحياة ، وهى خمرة المحبة ، هاجت وارتفعت ، وحييت بذكر اللّه ومعرفته ، إن الذي أحيا الأرض الحسية قادر على إحياء النفوس الميتة بالغفلة ، وانظر القشيري «١».

ثم ذكر حال من أعرض عن الآيات ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٤٠ الى ٤٢]

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا أي : يميلون عن الحق فى أدلتنا التكوينية ، الدالة على وحدانيتنا ، فلا ينظرون فيها ، أو : يلحدون فى آياتنا التنزيلية ، بالطعن فيها ، وتحريفها ، بحملها على المحامل الباطلة ، لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا ، بل نجازيهم على ذلك. يقال : ألحد الكافر ولحد : إذا مال عن الاستقامة عن الحق.

ثم ذكر جزاءهم فقال : أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ. قيل : نزلت فى أبى جهل وعثمان «٢» ، وهى عامة ، اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ من الأعمال المؤدية إلى ما ذكر من الإبقاء فى النار ، والإتيان آمنا ، وفيه تهديد وتنديد. إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فيجازيكم بحسب أعمالكم.

---

(١) راجع لطائف الإشارات (٣/ ٣٣٤).

(٢) قاله مقاتل ، فيما ذكره أبو حيان ، فى البحر المحيط (٧/ ٤٧٨). وانظر تفسير القرطبي (٧/ ٥٩٨٧).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٨٣

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ القرآن لَمَّا حين جاءَهُمْ مخلدون فى النار ، أو : هالكون ، أو : معاندون ، فخبر «إن» محذوف ، دلّ عليه ما قبله. وقيل : بدل من قوله : إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا فخبر «إن» هو الخبر السابق ، وقال عمرو بن العلاء : الخبر : أُولئِكَ يُنادَوْنَ «١» ، وردّ بكثرة الفصل.

ثم فسّر الذكر المذكور بقوله : وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ ، منيع ، محميّ بحماية اللّه ، لا تتأتى معارضته بحال ، أو :

كثير المنافع ، عديم النّظير ، لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ أي : لا يتطرقه الباطل من جهة من الجهات ، أو : لا يأتيه التبديل والتحريف ، أو : التناقض بوجه من الوجوه ، وأما النّسخ فليس بمبطل للمنسوخ ، بل هو :

انتهاء حكم إلى مدة وابتداء حكم آخر ، خلافا لمن احتج بالآية على عدم النّسخ فى القرآن ، انظر

ابن عرفه.

تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ أي : تنزيل من حكيم محمود ، ف «تنزيل» : خبر عن مضمر ، أو : صفة أخرى لكتاب ، مفيدة لفخامته الإضافية ، كما أن الصلتين السابقتين ، مفيدتان لفخامته الذاتية ، كل ذلك لتأكيد بطلان الكفر به وبشاعة قبحه.

الإشارة : إن الذين يلحدون فى آياتنا ، فيطعنون فى أوليائنا ، الدالين علينا ، لا يخفون علينا ، وسيلقون فى نار القطيعة والبعد مع عموم الخوف من هول المطّلع ، أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة؟ اعملوا ما شئتم من التسليم أو الانتقاد ، وكلّ من لا يصحب الرجال لا يخلو خاطره من شك أو وهم فى مواعيد القرآن ، كالرزق وغيره ، ينسحب عليه قوله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ ... الآية ، من طريق الإشارة. واللّه تعالى أعلم.

وقوله تعالى : وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ قال الشيخ عبد الرحمن اللجاى فى كتاب «قطب العارفين» : الكتاب عزيز ، وعلم الكتاب أعز ، والعلم عزيز ، والعمل به أعز ، والعمل عزيز ، والذوق أعز ، والذوق عزيز ، والمشاهدة فى الذوق أعز ، والمشاهدة عزيزة ، والموافقة فى المشاهدة أعز ، والموافقة عزيزة ، والأنس فى الموافقة أعز ، والأنس عزيز ، وآداب الأنس أعز. ثم قال : لكن لا يستنشق رائحة هذه المقامات من غلب جهله على علمه ، وهواه على عقله ، وسفهه على حلمه. هـ.

ثم سلّى نبيه من تكذيب قومه ، فقال :

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة فصلت.

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٤٣ الى ٤٤]

ما يُقالُ لَكَ إِلاَّ ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (٤٤)

يقول الحق جل جلاله : ما يُقالُ لَكَ أي : ما يقول لك كفار قومك إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إلا مثل ما قال للرسل كفار قومهم ، من الكلمات المؤذية ، والمطاعن فى الكتب المنزلة ، فاصبر كما صبروا ، إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ورحمة لأنبيائه وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ لأعدائهم ، وقد نصر من قبلك من الرسل ، وانتقم من أعدائهم ، وسيفعل مثل ذلك بك وبأعدائك ، أو : (ما يقال لك) من الوحى وتخاطب به من

جهته تعالى ، (إلا ما قد قيل للرسل) وأوحى إليهم ، فلست ببدع منهم (إن ربك لذو مغفرة) لمن صدق وحيه ، (و ذو عقاب أليم) لمن كذب.

وَلَوْ جَعَلْناهُ أي : الذكر قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ أي : هلّا بيّنت بلسان العرب حتى نفهمها ، كانوا يقولون لتعنتهم : هلّا نزل القرآن بلغة العجم! فقيل لهم : لو كان كما تقترحون لقلتم : هلّا بيّنت آياته بلغتنا لنفهمه ، أأعجمى وعربىّ ، بهمزتين «١» ، الأولى للإنكار ، يعنى : لو نزل بلغة العجم لأنكروا وقالوا : أقرآن أعجمى ورسول عربى؟ والأعجمى : الذي لا يفصح ولا يفهم كلامه ، سواء كان من العجم أو من العرب ، والعجمي :

منسوب إلى أمة العجم ، فصيحا كان أو غير فصيح ، ومن قرأ بهمزة واحدة ، فالمعنى : هلّا فصّلت آياته فيجعل بعضها أعجميا لإفهام العجم ، وبعضها عربيا لإفهام العرب ، فيكون معنى «فصّلت» : نوّعت.

وقرئ «أعجمى» بفتح العين «٢» ، ويتجه على كونهم طعنوا فيه من أجل ما فيه من الكلمة العجمية ، ك سِجِّينٍ «٣» وإِسْتَبْرَقٍ «٤» ، فقالوا : فيه أعجمى وعربى ، مخلط من كلام العرب وكلام العجم ، وأيّا ما كان فالمقصود : أن آيات اللّه – عز وجل – على أىّ طريق جاءتهم وجدوا متعنتا يتعللون به لأنهم غير طالبين للحقّ ، وإنما يتبعون أهواءهم. قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً يهديهم إلى الحق ، وَشِفاءٌ لما فى الصدور من شك وشبهة إذ الشك مرض.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر (أ أعجمي) بهمزتين. وقرأ حفص عن عاصم (آعجمى) ممدودة. وقرأ هشام بهمزة واحدة من غير مد. راجع الغاية فى القراءات العشر (٣٨٦) والإتحاف (٢/ ٤٤٤).

(٢) وهى قراءة عمرو بن ميمون. وهى قراءة شاذة ، ذكرها فى البحر المحيط (٧/ ٤٨٠).

(٣) كما جاء فى الآية السابعة والثامنة من سورة المطففين.

(٤) كما جاء فى الآية ٣١ من سورة الكهف.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٨٥

وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ به فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ أي : صمم ، فالموصول : مبتدأ ، والجار : خبره ، وقيل : فى موضع الجر ، بدل من (الذين آمنوا) أي : هو للذين آمنوا هدى وللذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ، إلا أن فيه عطفا على عاملين ، وهو جائز عند الأخفش. وَهُوَ أي : القرآن عَلَيْهِمْ عَمًى ظلمة وشبة ، أُولئِكَ

البعداء الموصوفون بما ذكر من التعامي عن الحق الذي يسمعونه ، والتعامي عن الآيات الظاهرة التي يشاهدونها ، يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ يعنى : أنهم لعدم قبولهم وانتفاعهم ، كأنهم ينادون إلى الإيمان بالقرآن من حيث لا يسمعون ، لبعد المسافة ، وهو تمثيل لحالهم بحال من ينادى من مسافة بعيدة ، لا يكاد يسمع من مسافتها الأصوات ، وقيل : ينادون فى القيامة من مكان بعيد بأقبح الأسماء.

الإشارة : ما يقال لك أيها المتوجه أو الوليّ ، إلا ما قد قيل لمن قبلك من المنتسبين ، فقد أوذى من قبلك من أهل النسبة بأنواع الإذايات من ضرب وقتل وسجن ، وغير ذلك ، ففيهم أسوة لمن بعدهم ، (إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم). ومما جرت عادة اللّه فى خلقة ألا يسلّموا لأحياء عصرهم ما نطقوا به من حكم ، وأتوا به من علوم ، ولو بلغت من البلاغة ما بلغت ، كما وقع من طعن الكفرة فى القرآن ، على أىّ وجه جاء ، وهى نزعة جاهلية.

وقوله تعالى : قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ ، قال الورتجبى : هدى ، لقلوب العارفين إلى معدنه ، وهو الذات القديم ، وشفاء لقلوب العاشقين ، وأرواح مرضي المحبة وسقمى الصبابة ، فلأنه خطاب حبيبهم ، وكتاب مشوقهم ، يستلذونه من حيث العبارات ، ويعرفونه من حيث الإشارات. هـ. وقوله تعالى : فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ قال ذو النّون : من وقر سمعه وأصم عن نداء الحق فى الأزل ، لا يسمع نداءه عند الإيجاد ، وإن سمعه كان ذلك عليه عمى ، ويكون عن دقائقه بعيدا ، وذلك أنهم نودوا عن بعد ، ولم يكونوا بالقرب. هـ. ف كل من قرأه ذاهلا عن تدبره بوساوس نفسه ، فهو ممن نودى فى الأزل عن بعد. وباللّه التوفيق.

ولما ذكر بيان القرآن أتبعه بذكر التوراة ، تسلية أيضا ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٤٥ الى ٤٦]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦)

(١٨٥/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٨٦

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ التوراة فَاخْتُلِفَ فِيهِ فقال بعضهم : حق ، وقال بعضهم : كتبه بيده فى الجبل ، كما اختلف قومك فى كتابك القرآن ، فمن مؤمن به وكافر ، وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ فى حق أمتك بتأخير العذاب ، لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ لأهلكهم إهلاك استئصال. وقيل : الكلمة السابقة هو العدة بالقيامة لقوله : بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ «١» ، وأن الخصومات تفصل فى ذلك اليوم ، ولو لا ذلك لقضى بينهم فى الدنيا. وَإِنَّهُمْ أي : كفار قومك لَفِي شَكٍّ مِنْهُ من أجل القرآن مُرِيبٍ

موقع الريبة ، وقيل : الضمير فى (بينهم) و(إنهم) لليهود ، وفى (منه) لموسى ، أو : لكتابه ، وهو ضعيف.

مَنْ عَمِلَ صالِحاً بأن آمن بالكتب وعمل بوحيها ، فَلِنَفْسِهِ نفع ، لا غيره ، وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ضرره ، لا على غيره ، وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ، فيعذب غير المسيئ ، أو ينقص من إحسان المحسن.

الإشارة : الاختلاف على أهل الخصوصية سنّة ماضية ، (و لن تجد لسنة اللّه تبديلا) ، فمن رام الاتفاق على خصوصيته ، فهو كاذب فى دعوى الخصوصية ، وفى الحكم : «استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك فى عبوديتك» «٢».

ثم ذكر بيان الساعة الموعودة بها فى قوله : وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لأنها محل القضاء بين العباد ، فكأن قائلا قال : متى ذلك؟ فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٤٧ الى ٤٨]

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٤٨)

يقول الحق جل جلاله : إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ أي : إذا سئل عنها يجب أن يقال : اللّه أعلم بوقت مجيئها ، أو : لا يعلمها إلا اللّه ، وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها من أوعيتها ، جمع «كم» بكسر الكاف وهو وعاء الثمرة قبل أن تنشق ، أي : لا يعلم كيفية خروجها ومآلها إلا اللّه. وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى أي : تعلق النطفة فى رحمها ، وما ينشأ عنها من ذكورة وأنوثة وأوصاف الخلقة تامة أو ناقصة ، وَلا تَضَعُ حملها إِلَّا بِعِلْمِهِ

---

(١) الآية ٤٦ من سورة القمر. [.....]

(٢) (حكمة ١٦١) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندى (ص ١١).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٨٧

استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أي : ما يحدث شيء من خروج ثمرة ، ولا حمل حامل ، ولا وضع واضع ، ملابسا بشيء من الأشياء ، إلا ملابسا بعلمه المحيط.

وَاذكر يَوْمَ يُنادِيهِمْ فيقول : أَيْنَ شُرَكائِي بزعمكم ، أضافهم إليه على زعمهم ، وفيه تهكم بهم وتقريع ، قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ أي : من أحد يشهد لهم بالشركة ، إذ تبرأنا منهم ، لما عاينا حقيقة الحال

، وتفسير «آذن» هنا بالإخبار ، أحسن من تفسيره بالإعلام لأن اللّه – تعالى – كان عالما بذلك ، وإعلام العالم محال أما الإخبار للعالم بالشيء ليتحقق بما علم به فجائز ، إلا أن يكون المعنى : إنك علمت من قلوبنا الآن : أنّا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة لأنه إذا علمه من نفوسهم ، فكأنهم أعلموه ، أي : أخبرناك بأنّا ما منا أحد اليوم يشهد بأنّ لك شريكا ، وما منا إلا من هو موحّد. أو : (ما منا من) أحد يشاهدهم ، لأنهم ضلوا عنهم فى ساعة التوبيخ ، وقيل :

هو من كلام الشركاء ، أي : ما منا شهيد يشهد بما أضافوا لنا من الشركة.

وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ يعبدون مِنْ قَبْلُ فى الدنيا وَظَنُّوا وأيقنوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ من مهرب ، والظن معلق عنهم بحرف النّفى عن المفعولين.

الإشارة : إليه تعالى يردّ علم الساعة ، التي يقع الفتح فيها على المتوجه ، بكشف الحجاب بينه وبين حبيبه ، وما تخرج من ثمرات العلوم والحكم من أكمام قلبه ، وما تحمل نفس من اليقين والمعرفة ، إلا بعلمه. ثم ذمّ من مال إلى غيره بالركون والمحبة ، وذكر أنه يتبرأ منه فى حال ضيقه ، فلا ينبغى التعلق إلا به ، ولا ميل القصد والمحبة إلا له – سبحانه – وباللّه التوفيق.

ثم ذكر ما جبل عليه طبع الإنسان من الجزع والهلع ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٤٩ الى ٥١]

لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ (٥١)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٨٨

يقول الحق جل جلاله : لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ أي : جنسه ، أو : الكافر ، بدليل قوله : وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً «١» ، أي : لا يملّ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ من طلب السعة فى المال والنّعمة ، ولا يملّ عن إرادة النّفع والسلامة ، والتقدير : من دعائه الخير ، فحذف الفاعل وأضيف إلى المفعول ، وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ الفقر والضيق ، فَيَؤُسٌ من الخير قَنُوطٌ من الرّحمة ، أي : لا يرجو زواله لعدم علمه بربه ، وانسداد الطريق على قلبه فى الرّجوع إلى ربه ، بولغ فيه من طريقين : من طريق بناء فعول ، ومن طريق التكرير لأن اليأس هو القنط ، والقنوط : أن يظهر أثر اليأس فيتضاءل وينكسر ، ويظهر الجزع ، وهذا صفة الكافر لقوله : إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ «٢». وقال الإمام الفخر : اليأس على أمر الدنيا من

صفة القلب ، والقنوط : إظهار آثاره على الظاهر. هـ.

وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي أي : وإذا فرجنا عنه بصّحة بعد مرض ، أو : سعه بعد ضيق ، قال : هذا لِي أي : هذا قد وصل إليّ لأنى استوجبته بما عندى من خير ، وفضل ، وأعمال برّ ، أو : هذا لى لا يزول عنى أبدا ، وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً أي : ما أظنها تقوم فيما سيأتى ، وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي كما يقول المسلمون ، إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى أي : الحالة الحسنى من الكرامة والنّعمة ، أو : الجنة. قاس أمر الآخرة على أمر الدنيا لأن ما أصابه من نعم الدنيا ، زعم أنه لاستحقاقه إياها ، وأن نعم الآخرة كذلك. وهذا غرور وحمق ، الرجاء ما قارنه عمل ، وإلا فهو أمنية ، «الجاهل من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على اللّه ، والكيّس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت» «٣».

فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا أي : فلنخبرنهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب ، وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ شديد ، لا يفتر عنهم.

وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ ، هذا ضرب آخر من طغيان الإنسان إذا أصابه اللّه بنعمته أبطرته النعمة ، وأعجب بنفسه ، فنسى المنعم ، وأعرض عن شكره ، وَنَأى بِجانِبِهِ وتباعد عن ذكر اللّه ودعائه

---

(١) من الآية ٣٦ من سورة الكهف.

(٢) من الآية ٨٧ من سورة يوسف.

(٣) هذا حديث نبوى شريف. أخرجه ابن ماجه فى (الزهد ، باب ذكر الموت والاستعداد له ، ٢/ ١٤٢٣ ، ح ٤٢٦٠) والترمذي فى (صفة القيامة ، باب ٢٥ ، ٤/ ٥٥٠ ح ٢٤٥٩) والحاكم (٤/ ٢٥١) عن شداد بن أوس رضي اللّه عنه. بلفظ : «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على اللّه ، قال الترمذي : حديث حسن.

وطاعته ، أو : ذهب بنفسه وتكبر وتعاظم ، والتحقيق : أن المراد بالجانب النّفس ، فكأنه قال : وتباعد بنفسه عن شكر ربه ، وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ الفقر والضر ، فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ أي : تضرع كثير ، أي : أقبل على دوام الدعاء والابتهال. ولا منافاة بين قوله : فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ وبين قوله : فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ لأن الأول فى قوم ، والثاني فى قوم ، أو : قنوط فى البر ، وذو دعاء عريض فى البحر ، أو : قنوط بالقلب ، وذو دعاء باللسان ، أو : قنوط من الصنم ، وذو دعاء لله تعالى.

الإشارة : اللائق بالأدب أن يكون العبد عند الشدة داعيا بلسانه ، راضيا بقلبه ، إن أجابه شكر ، وإن

منعه انتظر وصبر ، ولا ييأس ولا يقنط ، فإنه ضمن الإجابة فيما يريد ، لا فيما تريد ، وفى الوقت الذي يريد ، لا فى الوقت الذي تريد ، وإن فرّج عنك نسبت النّعمة إليه ، دون شيء من الوسائط العادية ، هذا ما يفهم من الآية ، وتقدم الكلام عليها فى سورة هود «١». واللّه التوفيق.

ثم وبّخ من أعرض عن النّظر ، فقال :

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٥٢ الى ٥٤]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (٥٤)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ أَرَأَيْتُمْ أخبرونى إِنْ كانَ القرآن مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ جحدتم أنه من عند اللّه ، مع تعاضد موجبات الإيمان به ، مَنْ أَضَلُّ منكم؟ فوضع قوله : مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ موضعه ، شرحا لحالهم ، وتعليلا لمزيد ضلالهم.

سَنُرِيهِمْ آياتِنا الدالة على حقيّته وكونه من عند اللّه ، فِي الْآفاقِ من فتح البلاد ، وما أخبر به النّبى صلّى اللّه عليه وسلم من الحوادث الآتية ، وآثار النّوازل الماضية ، وما يسّر اللّه تعالى له ولخلفائه من الفتوحات ، والظهور على آفاق الدنيا ، والاستيلاء على بلاد المشارق والمغارب ، على وجه خرق العادة ، وَنريهم فِي أَنْفُسِهِمْ ما ظهر من فتح مكة وما حلّ بهم.

---

(١) راجع تفسير الآيات : ٩ - ١١ من سورة هود. (٢/ ٥١٤ - ٥١٥).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٩٠

وقال ابن عباس : فى الآفاق : منازل الأمم الخالية وآثارهم ، وفى أنفسهم : يوم بدر. وقال مجاهد وغيره : فى الآفاق : ما يفتح اللّه من القرى على نبيه صلّى اللّه عليه وسلم والمسلمين ، وفى أنفسهم : فتح مكة. وقيل : الآفاق : فى أقطار السموات والأرض ، من الشمس ، والقمر ، والنّجوم ، وما يترتب عليها من الليل ، والنّهار ، والأضواء ، والظلال ، والظلمات ، ومن النبات ، والأشجار ، والأنهار ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ : من لطيف الصنعة وبديع الحكمة ، من تكوين النّطفة فى ظلمات الأرحام ، وحدوث الأعضاء العجيبة ، والتركيبات الغريبة ، كقوله تعالى : وَفِي أَنْفُسِكُمْ ... «١».

وعبّر بالسين مع أن إراءة تلك الآيات قد حصلت قبل ذلك ، بمعنى أن اللّه - تعالى - سيطلعهم على تلك الآيات زمانا فزمانا ، ويزيدهم وقوفا على حقائقها يوما فيوما ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ بذلك أَنَّهُ الْحَقُّ أي :

القرآن ، أو :

الإسلام ، أو : التوحيد ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ، توبيخ على ترددهم فى شأن القرآن ، وعنادهم المحوج إلى إراءة الآيات ، وعدم اكتفائهم بإخباره تعالى. والهمزة للإنكار ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أي : ألم يغن ولم يكف ربك. والباء : مزيدة للتأكيد ، ولا تكاد تزاد إلا مع «كفى».

و(أنه ...) إلخ : بدل منه ، أي : ألم يغنهم عن إراءة الآيات المبنية لحقيّة القرآن ولم يكفهم فى ذلك أنه تعالى – شهيد على كلّ شيء ، وقد أخبر أنه من عنده. وقيل : معناه : إن هذا الموعود من إظهار آيات اللّه فى الآفاق وفى أنفسهم سيرونه ويشاهدونه فيتيقنون عند ذلك أن القرآن تنزيل من عالم الغيب الذي هو على كلّ شيء شهيد.

أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ شك عظيم مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ فلذلك أنكروا القرآن ، أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ عالم بجميع الأشياء وتفاصيلها ، وظواهرها ، وبواطنها ، فلا يخفى عليه خافية منهم ، وهو مجازيهم على كفرهم وشكهم ، لا محالة.

الإشارة : قد اشتملت الآية على مقام الاستدلال فى مقام الإيمان ، وعلى مقام العيان فى مقام الإحسان ، أي :

سنريهم آياتنا الدالة على وجودنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، أي : فى العوالم المنفصلة والمتصلة ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أي : وجوده حق ، لأن الصنعة قطعا تحتاج إلى صانع ، ثم رقّاهم إلى مقام المراقبة بقوله : أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ، ثم زاد إلى المشاهدة بقوله : أَلا إِنَّهُمْ أي : أهل الجهل باللّه ، فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ فى الدنيا ، بحصول الفناء ، فيفنى وجود العبد فى وجود الحق ، ألا إنه بكلّ شيء محيط ، فبحر العظمة أحاط بكلّ شيء ، وأفنى كلّ شيء ، ولم يبق مع وجوده شيء.

---

(١) من الآية ٢١ من سورة الذاريات. وانظر تفسير البغوي (٧/ ١٧٩) وابن كثير (٤/ ١٠٥).

وفى الحكم : «ما حجبك عن اللّه وجود موجود معه إذ لا شيء معه ، وإنما حجبك توهم موجود معه» «١» وقال أيضا : «الأكوان ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته» فأحدية الذات محت وجود الأشياء كلها ، ولم يبق إلا القديم الأزلى.

وقال القطب ابن مشيش لأبى الحسن رضي اللّه عنه : يا أبا الحسن ، حدد بصر الإيمان تجد اللّه فى كلّ شيء ، وعند كل شيء ، ومع كلّ شيء ، وقبل كلّ شيء ، وبعد كلّ شيء ، وفوق كلّ شيء ، وتحت كلّ شيء ، وقريبا من كلّ شيء ، ومحيطا بكلّ شيء ، بقرب هو وصفه ، وبحيطة هى نعته ، وعد عن الظرفية والحدود ، وعن الأماكن والجهات ، وعن الصحبة والقرب فى المسافات ، وعن الدور بالمخلوقات ، وأمحق الكلّ بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو هو هو ، كان اللّه ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان. هـ.

وقوله : وعد عن الجهات : جاوز عن اعتقادها إذ لا ظرف ، ولا حد ، ولا مكان ، ولا جهة ، إذ الكلّ عظمة ذاته ، وأنوار وصفاته ، والحد إنما يتصور فى المحدود ، ولا حد لعظمة ذاته ولا نهاية ، ولا يحصرها مكان ، ولا جهة إذ الكلّ منه وإليه وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ، وصلّى اللّه على سيدنا ومولانا محمد ، عين بحر التحقيق ، وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليما «٢».

---

(١) (حكمة ١٣٧) انظر الحكم بترتيب المتقى الهندي (ص ٣٤).

(٢) فى آخر المجلد الثالث فى المخطوطة الأم ، والمحفوظة بمكتبة السيد الفريق حسن التهامي مايلى :

كمل الجزء الثالث بحول اللّه وقوته ، ووافق الفراغ من تبييضه يوم الأربعاء ، تاسع رمضان ، عام تسعة عشر ومائتين وألف ، والحمد للّه رب العالمين. انتهى استخراجه من مبيضته بحمد اللّه وتوفيقه عشية الأربعاء ، السادس عشر من رمضان المعظم ، موافقا لتاريخ التبييض من هاك العام ، وعلى نبينا محمد أزكى الصلاة والسّلام.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٩٢

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٩٣

سورة الشّورى «١»

مكية. وهى خمس وثلاثون آية ، ومناسبتها لما قبلها قوله : سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ إلى قوله :

حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ «٢» أي : إن القرآن حق ، أي : وحي من اللّه ، مع قوله : كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ ، فهى كالتتمة لما قبلها. قال تعالى :

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (١) عسق (٢) كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤)

تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥)

يقول الحق جل جلاله : حم. عسق يشير – واللّه أعلم – بكلّ حرف إلى وصف يدلّ على تعظيم قدر حبيبه صلّى اللّه عليه وسلم ، فالحاء : أحببناك ، أو : حبيناك ، أي : أعطيناك الملك والملكوت ، والميم : ملكناك ، والعين : علّمناك ما لم تكن تعلم ، أو : عيّناك للرسالة ، والسين : سيّدناك ، والقاف : قرّبناك. كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ أي : كما خصصناك بهذه الخصائص العظام أوحينا إليك وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ، فقد خصصناهم ببعض ذلك ، وأوحينا إليهم ، وفى ابن عطية : عن ابن عباس : أن هذه الحروف بأعيانها نزلت فى كلّ كتب اللّه ، المنزلة على كلّ نبيّ أنزل عليه كتاب ، ولذلك قال تعالى : كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ «٣». وقال القشيري : الحاء : مفتاح اسمه حكيم وحفيظ ، والميم : مفتاح اسمه مالك وماجد ومؤمن ومهيمن ، والعين : مفتاح اسمه عليم وعلىّ ، والسين : مفتاح اسمه سيد وسميع وسريع الحساب ، والقاف : مفتاح اسمه قادر وقاهر وقريب وقدوس ، أقسم اللّه تعالى بهذه الحروف أنه كذلك يوحى إليك يا محمد. هـ.

---

(١) أول المجلد الرّابع فى النّسخة الأم.

(٢) من الآية ٥٣ من سورة فصلت.

(٣) ذكره ابن عطية (٥/ ٢٥) وعزاه للثعلبى ، وانظر : تفسير البغوي (٧/ ١٨٤).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٩٤

وقال ابن عطية : وإنما فصلت «حم عسق» ، ولم يفعل ذلك ب «كهيعص» لتجرى هذه مجرى الحواميم أخواتها.

هـ. زاد النّسفى : وأيضا : هذه آيتان ، و«كهيعص» آية واحدة. هـ. فانظره.

اللَّهُ أي : يوحى اللّه الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ : فاعل «يوحى» ، وقرأ ابن كثير بالبناء للمفعول «١». و«اللّه» : فاعل بمحذوف ، كأن قائلا قال : من الموحى؟ فقال : اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أي : الغالب بقهره ، الحكيم فى صنعه وتدبيره.

لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ملكا وملكا ، وَهُوَ الْعَلِيُّ شأنه الْعَظِيمُ سلطانه وبرهانه.

ثم بيّن عظمته ، فقال : تَكادُ «٢» السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ تتشققن من عظمة اللّه تعالى وعلو شأنه ، يدلّ عليه مجيئه بعد قوله : وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ. وقيل : من دعائهم له ولدا ، كقوله : تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ «٣» إلخ ، ويؤيده : مجيء قوله : وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ «٤». وقرأ البصرىّ وشعبة :

«ينفطرن» ، والأول أبلغ. ومعنى : مِنْ فَوْقِهِنَّ أي : يبتدين بالانفطار من جهتهنّ الفوقانية. وتخصيصها على التفسير الأول لأن أعظم الآيات وأدلها على العظمة والجلال من تلك الجهة ، وأيضا : استقرار الملائكة إنما هو من فوق ، فكادت تنشق من كثرة الثقل ، كما فى الحديث : «أطّت السماء ، وحقّ لها أن تئطّ ، ما فيها موضع قدم إلا وفيها ملك راكع أو ساجد» «٥».

وعلى الثاني للدلالة على التفطر من تحتهن بالطريق الأولى لأن تلك الكلمة الشنعاء ، الواقعة فى الأرض حين أثرت فى جهة الفوق فلأن تؤثر فى جهة التحت أولى. وقيل : «من فوقهن» : من فوق الأرض ، فالكناية راجعة إلى الأرض ، من قوله : لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لأنه بمعنى الأرضين.

وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ خضوعا لما يرون من عظمته ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أي : للمؤمنين منهم ، خوفا عليهم من سطواته ، ويوحدون اللّه وينزهونه عما لا يليق به من الصفات ، حامدين له على ما أولاهم من ألطافه ، متعجبين لما رأوا من تعرض الكفرة لسخط اللّه تعالى ، ويستغفرون لمؤمنى أهل الأرض ،

---

(١) قرأ ابن كثير – وحده : «يوحى» بفتح الحاء. والنّائب إما «إليك» وإما ضمير يعود إلى «ذلك» أي : مثل ذلك الإيحاء يوحى إليك.

انظر الإتحاف (٢/ ٤٤٨).

(٢) أثبت المفسر – رحمه اللّه – قراءة «يكاد» بالياء ، وهى قراءة نافع والكسائي ، وقرأ الباقون «تكاد» بتاء التأنيث. انظر : الإتحاف ٢/ ٤٤٨.

(٣) من الآية ٩٠ من سورة مريم. [.....]

(٤) من الآية ٦ من السورة نفسها.

(٥) أخرجه بنحوه أحمد فى المسند (٥/ ١٧٣) والترمذي فى (الزهد ، باب فى قول النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ٤/ ٤٨١ ، ح ٢٣١٢) وابن ماجة فى (الزهد ،

باب الحزن والبكاء ٢/ ١٤٠٢ ح ٤١٩٠) ، وصحّحه الحاكم (٢/ ٥١٠) وأقره الذهبي ، من حديث أبى ذر ، رضي اللّه عنه. وقوله (أطت) : الأطيط : صوت الأقتاب ، وأطيط الإبل : أصواتها وحنينها ، أي : إن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت ، وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة ، وإن لم يكن ثمّ أطيط ، وإنما هو كلام تقريب ، أريد به تقرير عظمة اللّه تعالى.
انظر النّهاية (أطط ، ١/ ٥٤).

(١٩٤/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٩٥
الذين تبرءوا من تلك الكلمات ، أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ حيث لا يعاجلهم بالعقوبة على ما وصفوه به مما لا يجوز عليه.
الإشارة : حم عسق ، الحاء تشير إلى حمده لأوليائه ، وتنويهه بقدرهم ، والميم إلى تمليكهم التصرف فى حس الملك ، وأسرار الملكوت ، والعين إلى علو رتبتهم ، أو إلى علومهم اللدنية ، والسين إلى سيادتهم وسنا نورهم وسرهم ، والقاف إلى قربهم وتقريبهم حتى يمتحق وجودهم فى وجود محبوبهم ، فيمتحى القرب من شدة القرب ، وبذلك صاروا مقربين. والوحى ينقسم إلى أربعة أقسام وحى أحكام ، ووحي منام ، ووحي إلهام ، ووحي إعلام ، فاختصت الأنبياء بالأول ، وشاركتهم الأولياء فى الثلاثة. ووحي إعلام هو اطلاعهم على بعض المغيبات.
وقوله تعالى : تَكادُ «١» السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ أي : يتشققن من هيبته تعالى وكبريائه. وذلك لما لطف حسها أدركت هيبة معانى أسرار الذات ، وكذلك الأرواح إذا لطفت ورقّ حس بشريتها أدركت عظمة الحق وجلاله وجماله ، وإذا كثفت بشريتها ، بمباشرة الحس واتباع الهوى ، غلظ حجابها ، فبعدت عن حضرة الحق فى حال قربها.
وقوله تعالى : وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ، انظر جلالة قدر هذا الآدمي ، حتى سخّر اللّه له الملائكة الكرام يستغفرون له ، ويسعون فى مصالحه ، فاستحى من اللّه أيها العبد ، إن كان لك عقل وتمييز.
ثم ردّ على أهل الشرك ، فقال :
[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ٦ الى ٩]
وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦) وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٨) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩)

قلت : وَكَذلِكَ : الكاف فى محل النّصب على المصدر ، وقُرْآناً : مفعول «أوحينا».

---

(١) راجع الهامش رقم ٢ فى الصفحة السابقة.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٩٦

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ شركاء ، يوالونهم بالعبادة والمحبة اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ : رقيب على أحوالهم وأعمالهم ، فيجازيهم بها ، وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ بموكّل عليهم ، تجبرهم على الإيمان ، ثم نسخ بالجهاد. أو : ما أنت بموكول إليك أمرهم ، وإنما وظيفتك الإنذار بما أوحينا إليك.

وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا أي : ومثل ذلك الإيحاء البديع الواضح أوحينا إليك قرآنا عربيا ، لا لبس فيه عليك ولا على قومك ، لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى أي : أهلها ، وهى مكة لأن الأرض دحيت من تحتها ، أو : لأنها أشرف البقع ، وَتنذر مَنْ حَوْلَها من العرب أو من سائر البلاد. قال القشيري : وجميع العالم محدق بالكعبة لأنها سرّة الأرض. هـ.

وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ يوم القيامة لأنه تجمع فيه الخلائق ، وفيه تجمع الأرواح والأشباح. وحذف المفعول الثاني من «تنذر» الأول للتهويل ، أي : لتنذر النّاس أمرا فظيعا تضيق عنه العبارة ، لا رَيْبَ فِيهِ لا شك فى وقوع ذلك اليوم ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ أي : بعد جمعهم فى الموقف يفترقون ، فريق يصرف إلى الجنة ، وفريق إلى السعير بعد الحساب ، والتقدير : فريق منهم فى الجنة. والجملة : حال ، أي : وتنذر يوم الجمع متفرقين.

وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ فى الدنيا أُمَّةً واحِدَةً إما مهتدين كلّهم ، أو ضالين ، وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ أي : ويدخل من يشاء فى عذابه ، يدلّ عليه ما بعده ، ومن ضرورة اختلاف الرّحمة والعذاب : اختلاف الداخلين فيهما ، فلم يشأ جعل الكلّ أمة واحدة ، بل جعلهم فريقين ، فيسّر كلّا لمن خلق له. وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ والكافرون ما لهم من شافع ولا دافع.

قال أبو السعود : والذي يقتضيه سياق النّظم أن يراد بقوله : أُمَّةً واحِدَةً الاتحاد فى الكفر ، كما فى قوله تعالى :

كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً ... الآية «١» ، على أحد الوجهين ، بأن يراد بهم الذين هم فى فترة إدريس ، أو فترة نوح. ولو شاء لجعلهم أمة واحدة متفقة على الكفر ، بأن لا يرسل إليهم رسولا لينذرهم ما ذكر من يوم الجمع ، وما فيه من ألوان الأهوال ، فيبقوا على ما هم عليه من الكفر ، ولكن يدخل من يشاء فى

رحمته إن شاء ذلك ، فيرسل إلى الكلّ من ينذرهم ، فيتأثر بعضهم بالإنذار فيعرفون الحق فيوفقهم اللّه تعالى للإيمان والطاعة ،

---

(١) الآية ٢١٣ من سورة البقرة.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٩٧

ويدخلهم فى رحمته ، ولا يتأثر به الآخرون ، ويتمادون فى غيهم ، وهم الظالمون ، فيبقون فى الدنيا على ما هم عليه ، ويصيرون فى الآخرة إلى السعير ، من غير وليّ يلى أمرهم ، ولا نصير يخلصهم من العذاب. هـ.

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ، هذه جملة مقررة لما قبلها ، من انتفاء أن يكون للظالمين وليّ ولا نصير. و«أم» : منقطعة ، وما فيها من الإضراب للانتقال من بيان ما قبلها إلى بيان ما بعدها. والهمزة لإنكار الوقوع ونفيه على أبلغ وجه ، أي : ليس المتخذون أولياء ، ولا ينبغى اتخاذ وليّ سواه. وقوله : فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ : جواب عن شرط مقدر ، كأنه قيل بعد إبطال ما اتخذوه أولياء من الأصنام : إن أرادوا وليا فى الحقيقة فاللّه هو الوليّ ، لا وليّ سواه. وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتى أي : ومن شأنه إحياء الأموات ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فهو الحقيق بأن يتخذ وليا ، فليخصّوه بالاتخاذ ، دون من لا يقدر على شيء. وباللّه التوفيق.

الإشارة : قال القشيري : كل من تبع هواه ، وترك للّه حدا ، أو نقض له عهدا فهو ممن اتخذ الشيطان وليا ، فاللّه يعلمه ، لا يخفى عليه أمره ، وعلى اللّه حسابه ، ثم إن شاء عذّبه ، وإن شاء غفر له. هـ. فيقال للواعظ أو الداعي إلى اللّه : لا تأس عليهم إن أدبروا ، اللّه حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل. وكان الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم داعيا إلى اللّه ، ينذر الناس بالقرآن ، فمن تبعه كان من أهل الجنة ، ومن خالفه كان من أهل السعير ، وبقي خلفاؤه من بعده ، العلماء باللّه ، الذين يذكّرون النّاس ، ويدلونهم على اللّه ، فمن صحبهم وتبعهم كان من أهل الجنة جنة المعارف ، أو الزخارف ، أو هما ، ومن انحرف عنهم كان من أهل السعير ، نار القطيعة أو الهاوية.

قال القشيري : كما أنهم اليوم فريقان فريق فى [درجات] «١» الطاعات وحلاوة العبادات [أو المشاهدات] «٢» ، وفريق فى ظلمات الشّرك وعقوبات الجحد ، فكذلك غدا ، فريق هم أهل اللقاء ، وفريق هم أهل الشقاء. وَلَوْ شاءَ اللَّهُ أي : أراد أن يجمعهم كلهم على الرّشاد لم يكن مانع. هـ.

وقوله تعالى : فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ تحويش إلى التوجه إلى اللّه ، ورفض كلّ ما سواه ، كما قال بعضهم :

اتخذ اللّه صاحبا ، ودع النّاس جانبا ، ف كل من والى غير اللّه تعالى خذله ، ومن حبه أبعده.

---

(١) فى القشيري [راحة].

(٢) ما بين المعقوفتين من تدخل المفسر فى النّقل عن القشيري.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٩٨

ثم أمر بالرجوع إليه عند الاختلاف ، فقال :

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ١٠ الى ١٢]

وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)

يقول الحق جل جلاله : وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ، حكاية لقول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم للمؤمنين ، بدليل قوله : ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي أي : ما خالفكم الكفار فيه من أهل الكتاب والمشركين ، من أمور الدين ، واختلفتم أنتم وهم ، فحكم ذلك المختلف [فيه] «١» راجع إلى اللّه ، ومفوض إليه ، وهو إثابة المحقّين فيه ، ومعاقبة المبطلين. والمختار العموم ، أي : وما اختلفتم فيه أيها النّاس من أمور الدين ، سواء رجع ذلك الاختلاف إلى الأصول أو الفروع ، فحكم ذلك إلى اللّه ، وقد قال فى آية أخرى : فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ «٢».

ف كل ما اختلف فيه يردّ إلى كتاب اللّه ، ثم إلى سنة رسول اللّه ، ثم إلى الإجماع ، ثم القياس ، فهذه هى قواعد الشريعة ، وعليها بنيت الأحكام ، فمن خرج عنها فهو مبطل ، ففى كتاب اللّه ، وسنة رسوله صلّى اللّه عليه وسلم من علم الأصول والفروع ما فيه غنية ، فإن لم يوجد نص فالإجماع أو القياس.

وقيل : وما اختلفتم فيه من العلوم ، التي لا تتصل بتكليفكم ، ولا طريق لكم إلى علمه ، فقولوا : اللّه أعلم.

ثم قال : ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي أي : ذلكم العظيم الشأن اللّه مالكى ومدبر أمرى ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ فى جميع أمورى ، لا على غيره ، وَإِلَيْهِ أُنِيبُ أرجع فى كلّ ما يعرض لى ، لا إلى أحد سواه. وحيث كان التوكّل أمرا واحدا مستمرا ، والإنابة متعددة ، متجددة بحسب تجدد مؤداها ، أوثر فى الأول صيغة الماضي ، والثاني صيغة المضارع.

(١) زيادة ليست فى الأصول.
(٢) من الآية ٥٩ من سورة النّساء.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٩٩
فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ خالقهما ومظهرهما ، وهو خبر ثان لذلكم ، أو عن مضمر ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ من جنسكم أَزْواجاً نساء وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً أي : وجعل للأنعام من جنسها أزواجا ، أو : خلق لكم من الأنعام أصنافا ذكورا وإناثا ، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ أي : يكثّركم فيما ذكر من التدبير البديع ، من : الذرء ، وهو البث ، فجعل النّاس والأنعام أزواجا ، حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل ، واختير لفظ «فيه» على «به» لأنه جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير. والضمير فى «يذرؤكم» يرجع إلى المخاطبين والأنعام ، مغلبا فيه المخاطبون العقلاء على غيرهم.
وقال الهروي : يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ أي : يكّثركم بالتزويج ، كأنه قال : يذرؤكم به. هـ. وقال ابن عطية : لفظة «ذرأ» تزيد على لفظة «خلق» معنى آخر ، ليس فى خلق ، وهو توالى طبقاته على مرّ الزمان ، وقوله : «فيه» الضمير عائد على الجعل. وقال القتبى : الضمير للتزويج. هـ.
لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ أي : ليس مثله شيء [فى شأن] «١» من الشئون ، التي من جملتها هذا التدبير البديع. قيل :
إن كلمة التشبيه كررت لتأكيد نفى التماثل لأن زيادة الحرف بمنزلة إعادة الجملة. قال ابن عطية : الكاف مؤكدة للتشبيه ، فنفى التشبيه أوكد ما يكون ، وذلك أنك تقول : زيد كعمرو ، وزيد مثل عمر ، فإذا أردت المبالغة التامة قلت :
زيد كمثل عمرو ، وجرت الآية فى هذا الموضع على عرف كلام العرب ، وعل هذا المعنى شواهد كثيرة. هـ.
قال النّسفى : وقيل : المثل زائد ، والتقدير : ليس كهو شيء ، كقوله تعالى : فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ «٢» ، وهذا لأن المراد نفى المثليّة ، وإذا لم نجعل الكاف أو المثل زيادة كان إثبات المثل. هـ.
والجواب ما تقدم لابن عطية.
وقيل : الآية جرت على طريق الكناية ، كقولهم : مثلك لا يبخل ، وغيرك لا يجود ، أي : أنت لا تبخل لأنه إذا نفى البخل عمن هو مثله كان نفيه عنه أولى.
ثم قال تعالى : وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ سميع لجميع المسموعات بلا آذان ، بصير بجميع المبصرات بلا

أجفان. وذكرهما لئلا يتوهم أنه لا صفة له ، كما لا مثل له ، وقدّم تنزيهه عن المماثلة على وصفه بالسمع والبصر ليعلمنا أن سمعه وبصره ليس كسمعنا وبصرنا.

---

(١) ما بين المعقوفتين ليس فى الأصول الخطية ، وأثبته من تفسير أبى السعود – رحمه اللّه.
(٢) الآية ١٣٧ من سورة البقرة.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٠٠

لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ مفاتيح خزائنها ، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ أي : يوسعه وَيَقْدِرُ أي : يضيق على ما تقتضيه المناسبة المبنية على الحكم البالغة. إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ لا يخفى عليه شىء ، فيفعل كل ما يفعل على ما ينبغى أن يفعل ، على ما تقتضيه مشيئته وحكمته البالغة.

قال ابن عرفة : تضمنت هذه الآية وصفه تعالى بجميع صفات الكمال ، فالقدرة فى قوله : فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ والوحدانية فى قوله : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ والإرادة فى قوله : يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ لأن تخصيص البعض بالبسط إنما هو بالإرادة. والعلم فى قوله : إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، والكلام فى قوله : شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ لأن المراد به الحكم الشرعي ، وهو خطاب اللّه تعالى المعلق بأفعال المكلفين ، وخطابه كلامه. هـ. زاد فى الحاشية الفاسية :

يعنى وكلّ وصف من هذه الأوصاف يستلزم الحياة ، مع أنه قال : يُحْيِ الْمَوْتى والإحياء إنما يكون من الحي. هـ.

الإشارة : قوله تعالى : وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ قال القشيري : ويقال إذا لم تهتدوا إلى شىء وتعرضت منهم الخواطر فدعوا تدبيركم والتجئوا إلى ظلّ شهود تقديره ، [وانتظروا] «١» ما الذي ينبغى لكم أن تفعلوا بحكم تيسيره. ويقال : إذا اشتغلت قلوبكم بحديث أنفسكم ، فلا تدرون أبالسعادة جرى حكمكم ، أو بالشقاوة جرى اسمكم ، فكلوا الأمر فيه إلى اللّه ، واشتغلوا فى الوقت بأمر اللّه ، دون التفكّر فيما ليس له سبيل إلى علمه من عواقبكم. هـ.

وقوله : فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : شققهما من أسرار الغيب ، ومتجلّ بهما وسائر الكائنات. جعل لكم فى عالم الحكمة من أنفسكم أزواجا ليقع التناسل ، بعضكم من بعض ، ومن الأنعام أزواجا ليقع التناسل فيها وأما بحر الجبروت فليس كمثله شىء. وقال بعض العارفين : ليت شعرى هل معه شىء حتى يشبهه أو لا يشبهه ، كان اللّه ولا شىء معه ، وهو الآن على ما عليه كان. فقوله تعالى : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ أي : ليس معه شىء حتى يشبهه.

وقال الورتجبي عن الواسطي : [أمور] «٢» التوحيد كلها خرجت من هذه الآية لأنه ما عبر عن الحقيقة بشيء إلا والعلة مصحوبة ، والعبارة منقوضة لأن الحق لا ينعت على أقداره لأن كلّ ناعت مشرف على المنعوت ، وجلّ أن يشرف عليه مخلوق. وقال الشبلي : كل ما ميزتموه بأوهامكم ، وأدركتموه بعقولكم فى أتم معانيكم ، فهو مصروف إليكم ، ومردود عليكم ، محدث مصنوع مثلكم لأن حقيقته عالية عن أن تلحقها عبارة ، أو يدركها وهم ،

---

(١) ما بين المعقوفتين أثبته من القشيري.

(٢) فى عرائس البيان : (رموز).

(٢٠٠/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٠١

أو يحيط بها علم ، كلا ، كيف يحيط به علم ، وقد اتفق فيه الأضداد ، بقوله : هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ «١»؟ ، أىّ عبارة تخبر عن حقيقة هذه الألفاظ؟ كلّا ، قصرت عنه العبارة ، وخرست الألسن لقوله :

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ ءٌ. هـ.

ولما عرّف بذاته وصفاته ، ذكر شرائعه لعباده ، فقال :

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ١٣ الى ١٤]

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَما تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤)

يقول الحق جل جلاله : شَرَعَ أي : بيّن وأظهر لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً ومن بعده من أرباب الشرائع ، وأولى العزم من مشاهير الأنبياء – عليهم السّلام – وأمرهم به أمرا مؤكدا. وفى بيان نسبته إلى المذكورين تنبيه على كونه دينا قديما ، أجمع عليه الرّسل ، على أن تخصيصهم بالذكر لما ذكر من علو شأنهم ، ولاستمالة قلوب الكفرة إليه لاتفاق الكلّ على نبوة جلهم. قيل : خص نوحا وإبراهيم بالوصية ، ونبينا محمدا صلّى اللّه عليه وسلم بالوحى لأن متعلق الوصية غير الموصى ، بل الموصى [إليه] «٢» به ، ومتعلق الوحى : الموحى إليه بذاته ، ولمّا كان – صلّى اللّه عليه وسلم – آخر الأنبياء جعل الملقى إليه وحيا ، ولمّا كان ما قبله من الأنبياء متبعين له ، ومنذرين بشريعته ، أنه سيظهر آخر الزمان

نبى اسمه «محمد» ، كان ذلك وصية منهم لقومهم على الإيمان به. انظر ابن عرفة.

---

(١) من الآية ٣ من سورة الحديد.

(٢) ما بين المعقوفتين غير موجود فى النّسخة الأم. [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٠٢

قلت : والظاهر أنه تفنن «١» ، وفرار من تكرار لفظ الوحى إذ الموحى به هو قوله : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وهو الذي أوحى إلى نبينا – عليه الصلاة والسّلام. وقال أبو السعود : والتعبير عن ذلك عند نسبته صلّى اللّه عليه وسلم ب «الذي» لتفخيم شأنه من تلك الحيثية ، وإيثار الإيحاء على ما قبله وما بعده من التوصية لمراعاة ما وقع [فى] «٢» الآيات المذكورة – يعنى فى صدر السورة ، من قوله : كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ ... وفى آخرها من قوله : وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ، ولما فى الإيحاء من التصريح برسالته – صلّى اللّه عليه وسلم – القامع لإنكار الكفرة. والالتفات إلى نون العظمة إظهارا لكمال الاعتناء بإيحائه ، وهو السر فى تقديمه [على ما قبله] «٣» مع تقدمه عليه زمانا. وتقديم وصية نوح – عليه السّلام – للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم دينا قديما – أي : فلا ينبغى إنكاره – وتوجيه الخطاب إليه – عليه الصلاة والسّلام – بطريق التلوين للتشريف ، والتنبيه على أنه تعالى شرع لهم على لسانه عليه الصلاة والسّلام. هـ.

ثم فسّر ما وصاهم به فقال : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ أي : دين الإسلام ، الذي هو توحيد اللّه تعالى ، وطاعته ، والإيمان بكتبه ورسله ، وبيوم الجزاء ، وسائر أركان الإيمان. والمراد بإقامته : تعديل أركانه ، وحفظه من أن يقع فيه زيغ ، والمواظبة عليه ، والتشمير فى القيام به. وموضع «أن أقيموا» إما : نصب ، بدل من مفعول «شرع» ، أو : رفع ، خبر جواب عن سؤال مقدر ، كأن قائلا قال : وما ذاك؟ فقال : هو إقامة الدين. وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ولا تختلفوا فى الدين ، فالجماعة رحمة ، والفرقة عذاب ، والمراد : الاختلاف فى الأصول ، دون الفروع المختلفة حسب اختلاف الأمم باختلاف الأعصار ، كما ينطق به قوله تعالى : لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً «٤».

كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ أي : عظم وشقّ عليهم ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ من التوحيد ، ورفض عبادة الأصنام ، الذي هو إقامة الدين ، اللَّهُ يَجْتَبِي أي : يجلب ويجمع إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ بالتوفيق والتسديد ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ يقبل على طاعته. فالاجتباء يرجع إلى تصديق القلب ، والإنابة إلى توفيق الطاعة فى الظاهر.

---

(١) كتب على هامش النّسخة الأم مايلى : لا يا أستاذ ما هو بتفنن ، بل هو مقصود لحكمة ، ولو كان للتفنن لما كرر الوصية مرتين ، وخص لفظ الوحى بسيد البشر صلّى اللّه عليه وسلم ، ولا بدل «وصينا» الثانية بلفظ الأمر ، كأمرنا وأوجبنا وفرضنا ونحو ذلك. فالحق أنه عبّر فى حق الأنبياء بالوصية دون الوحى للإشارة إلى أنهم مجرد نواب عنه صلّى اللّه عليه وسلم. هـ.

(٢) فى الأصول [من].

(٣) فى تفسير أبى السعود [على ما بعده].

(٤) فى الآية ٤٨ من سورة المائدة.

وَما تَفَرَّقُوا أي : أهل الكتاب من بعد أنبيائهم إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ إلا بعد أن علموا أن الفرقة ضلال ، وأمر متوعّد عليه على ألسنة الرّسل ، بَغْياً بَيْنَهُمْ حسدا ، وطلبا للرئاسة ، والاستطالة بغير حق ، أو : ما تفرقوا فى الدين الذي دعوا إليه ، وهو الإسلام ، ولم يؤمنوا كما آمن بعضهم إلا من بعد ما جاءهم العلم بحقيقته لما يشهدونه فى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم والقرآن من دلائل الحقيّة ، حسبما وجدوه فى كتبهم ، أو : العلم بمبعثه صلّى اللّه عليه وسلم.

وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ، وهى العدة بتأخير العقوبة إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى هو يوم القيامة لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ أي : لوقع القضاء بينهم ، وأهلكوا حين افترقوا لعظم ما اقترفوا. وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ وهم المشركون لَفِي شَكٍّ مِنْهُ أي : القرآن مُرِيبٍ موقع فى الرّيبة. وهو بيان لكيفية كفر المشركين ، بعد بيان كيفية كفر أهل الكتاب ، أي : وإن المشركين الذين أوتوا القرآن من بعدهم ، أي : من بعد ما أورث أهل الكتاب كتابهم ، لفى شك من القرآن مريب. والظاهر : أن التفرق المذكور هنا إنما هو فى شأن الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم لأن سياق النّظم إنما هو لبيان أحوال هذه الأمة ، وإنما ذكر من ذكر من الأنبياء – عليهم السّلام – لتحقيق أن ما شرع لهؤلاء دين قديم ، أجمع عليه أولئك الأعلام – عليهم الصلاة والسّلام – تأكيدا لوجوب إقامته ، وتشديدا للزجر عن التفرق والاختلاف. فالتعرض لبيان تفرق أممهم عنه ربما يوهم الإخلال بذلك المرام. قاله أبو السعود.

الإشارة : الذي شرع اللّه من الدين لأقوياء عباده ، ووصى به خواص أنبيائه : أن يشاهدوه وحده فى الباطن ، ويقوموا برسم العبودية فى الظاهر ، وهذا هو إقامة الدين ، الذي يجب الاتفاق عليه ، لكن لا ينال هذا إلا بعد موت النفوس ، وحط الرّؤوس ، وبذل الفلوس. ولذلك كبر على أهل الفرق ، قال تعالى : كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، فإذا وفق العبد لفعل ما تقدم ، وسلك طريقه اجتباه ربه

لحضرته ، بعد أن هداه لسلوك طريقته. قال تعالى :

اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ فالاجتباء جذب ، والإنابة سلوك ، الاجتباء للحقيقة ، والإنابة للشريعة والطريقة. وقدّم الاجتباء على الاهتداء اهتماما بأمره لأن الجذب عناية يختص به أهل الولاية ، والإنابة هداية ينالها كلّ من تمسك بالشريعة. وحقيقة الجذب : شهود الخلق بلا خلق ، وحقيقة السلوك المحض : شهود الخلق بلا حق ، وحقيقة الجذب فى السلوك : شهود الحق فى قوالب الخلق ، أو : شهود الخلق فى مظهر الحق.

فالناس ثلاثة : مجذوبون فقط ، سالكون فقط ، مجذبون سالكون ، فالأولان لا يصلحان للتربية ، والثالث هو الذي يصلح للتربية ، وهو الذي يتقدمه السلوك ، ثم يختطف إلى الحضرة فى مقام الفناء ، ثم يرجع إلى السلوك فى مقام البقاء. وما وقع من التفرق والاختلاف فى جانب النّبوة ، يقع فى جانب الولاية ، سنّه ماضية ، فيجب على الداعي إلى اللّه أن يجهد نفسه فى الدعاء إليه ، ولا يبالى باختلافهم ، كما قال تعالى :

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ١٥ الى ١٦]

فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (١٦)

يقول الحق جل جلاله : فَلِذلِكَ فَادْعُ

أي : فلأجل ذلك التفرّق ، ولما حدث بسببه من تشعّب الكفر شعبا ، فادع إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفيّة القيمة ، وَاسْتَقِمْ عليها ، وعلى الدعوة إليها كَما أُمِرْتَ كما أمرك اللّه. أو : لأجل ما شرع لكم من الدين القويم القديم ، الحقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون ، فادع الناس كافة إلى إقامته ، والعمل بموجبه فإن كلا من تفرقهم وشكّهم ، سبب للدعوة إليه والأمر بها ، أو : فإلى ذلك الدين المشروع فادع ، واستقم عليه ، وعلى الدعوة إليه ، كما أمرت وأوحى إليك.

وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ الباطلة ، وعقائدهم الزائغة ، وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ أىّ كتاب كان من الكتب المنزلة ، لا كالذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وهم أهل الكتاب ، أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا «١» ، وفيه تحقيق للحق ، وبيان لاتفاق الكتب فى الأصول ، وتأليف لقلوب أهل الكتابين ، وتعريض

بهم. وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ فى الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إلىّ ، أو : في تبليغ الشرائع والأحكام ، لا أخص بعضا دون بعض ، أو :
لأسوى بينى وبينكم ، ولا آمركم بما لا أعمل به ، ولا أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه. أو : لا أفرق بين أكابركم وأصاغركم. واللام : إما على حقيقتها ، أي : أمرت بذلك لأعدل ، أو : زائدة ، أي : أمرت أن أعدل بينكم.
اللَّهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ خالقنا جميعا ، ومتولى أمورنا ، كلنا عبيده ، لَنا أَعْمالُنا لا يتخطانا ثوابها أو عقابها ، وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا يجاوزكم وبالها إلى غيركم ، أو : لنا ديننا التوحيد ، ولكم دينكم الشرك. لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ أي : لا خصومة لأن الحق قد وضح ، ولم يبق للمحاجّاة حاجة ، ولا للفصاحة محل ، سوى المكابرة.

---

(١) من الآية ١٥١ من سورة النّساء.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٠٥
اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا يوم القيامة وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ المرجع ، فيظهر هناك حالنا وحالكم. وهذه محاجة ، لا متاركة ، فلا نسخ فيها.
وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ يخاصمون فى دينه مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ من بعد ما استجاب له الناس ، ودخلوا فيه ، ليردّوهم إلى دين الجاهلية ، كقوله : وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً ... «١» ، والتعبير عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم إليه ، أو : من بعد ما استجاب اللّه لرسوله صلّى اللّه عليه وسلم وأيده بنصره ، كيوم بدر ، أو : من بعد ما استجاب له أهل الكتاب ، بأن أقروا بنعوته صلّى اللّه عليه وسلم ، واستفتحوا به قبل مبعثه. وذلك أن اليهود والنّصارى كانوا يقولون للمؤمنين : كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، فنحن خير منكم ، فنزلت :
وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ ... الآية. «٢» حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ باطلة ، عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وإذا كانت داحضة من حيث كونه ربّا رءوفا فأحرى من حيث كونه قاهرا منتقما. وسمّاها حجة ، وإن كانت شبهة لزعمهم أنها حجة.
وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ عظيم ، لمكابرتهم الحق بعد ظهوره وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ لا يقادر قدره.
الإشارة : إذا استولت الغفلة على النّاس ، وتفرقت القلوب ، يجب على أهل البصيرة النّافذة أن يتحركوا لوعظ الناس وتذكيرهم ، ولا يلتفتون إلى أهوائهم ، وما هو مشغوفون به من حظوظهم. قال تعالى :
فَلِذلِكَ فَادْعُ ، وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ ، وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ فتدعون النّاس إلى التوحيد ، وإقامة الشرائع ،

بامتثال الأوامر ، واجتناب المناكر ، ثم يدسونهم إلى حضرة الحق ، إن رأوا منهم من هو أهله ، فمن فعل هذا كان قدره عند اللّه عظيما ، وجاهه كبيرا. وفى الحديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «والذي نفس محمد بيده إن شئتم لأقسمنّ لكم : إنّ أحب عباد اللّه إلى اللّه الذين يحببون اللّه إلى عباده ، ويحببون عباد اللّه إلى اللّه ، ويمشون فى الأرض بالنصيحة».

ومن وظيفته أن يقول : آمنت بما أنزل اللّه من كتاب ، وما بعث من نبى ووليّ ، وأمرت لأعدل بينكم فى الوعظ ، والنّصيحة ، وإمداد المدد ، لكن يأخذ كلّ واحد على قدر صدقه وتعظيمه ، ثم يقول : (اللّه ربنا وربكم) ، يخص برحمته من يشاء ، لنا أعمالنا : ما يليق بنا من عبادة القلوب ، ولكم أعمالكم : ما تطيقونه من عبادة الجوارح ، لا خصومة بيننا وبينكم لأن قلوبنا سالمة لكم. اللّه يجمع بيننا وبينكم فى الدنيا بجمع متصل ، وإليه مصير الكل بالموت والفناء. والذين يحاجون فى اللّه ، أي : يخاصمون فى طريق اللّه ، ويقولون : انقطعت التربية ، حجتهم داحضة ، وعليهم غضب البعد ، ولهم عذاب الكدّ والتعب.

---

(١) الآية ١٠٩ من سورة البقرة.

(٢) انظر : تفسير البغوي (٧/ ١٨٨).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٠٦

ثم حضّ على التمسك بكتابه لأنه جامع لما أنزل اللّه من كتاب ، فقال

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ١٧ الى ١٩]

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (١٨) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩)

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ القرآن ، أو : جنس الكتاب ، بِالْحَقِّ ملتبسا بالحق فى أحكامه وأخباره ، أو : بما يحق إنزاله من العقائد والأحكام ، وَالْمِيزانَ وأنزل العدل والتسوية بين الناس ، أي : أنزله فى كتبه المنزلة ، وأمر به ، أو : الشرع الذي يوزن به الحقوق ، ويساوى بين النّاس. وقيل : هو عين الميزان ، أي : الآلة ، أنزله فى زمن نوح عليه السّلام. وَما يُدْرِيكَ أىّ شىء يجعلك عالما لَعَلَّ السَّاعَةَ التي أخبر بها الكتاب النّاطق بالحق قَرِيبٌ مجيئها. وضمّن الساعة معنى البعث فذكر الخبر ، وقيل : وجه المناسبة فى ذكر الساعة مع إنزال الكتاب : أن الساعة يقع فيها الحساب ووضع الموازين

بالقسط ، فكأنه قيل : أمركم اللّه بالعدل والتسوية ، والعمل بالشرائع ، فاعملوا بالكتاب والعدل قبل أن يفاجئكم يوم حسابكم ، ووزن أعمالكم.

يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها استعجال إنكار واستهزاء ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ خائفون مِنْها وجلون لهولها ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ الكائن لا محالة ، أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ يجادلون فيها ، من : المرية ، أو : المماراة والملاحاة ، أو : من : مريت النّاقة : إذا مسحت ضرعها بشدة للحلب لأن كلّا من المتجادلين يخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة. لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ عن الحق لأن قيام الساعة أظهر من كلّ ظاهر ، وقد تواترت الشرائع على وقوعها ، والعقول تشهد أنه لا بد من دار الجزاء ، وإلا كان وجود هذا العالم عبثا.

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ أي : برّبهم فى إيصال المنافع ودفع المضار ، أوصل لهم من فنون الألطاف ما لا تكاد تناله أيدى الأفكار والظنون. وقيل : هو من لطف بالغوامض علمه ، وعظم عن الجرائم حلمه ، أو : من ينشر المناقب

ويستر المثالب «١» ، أو : يعفو عمّن يهفو ، أو : من يعطى العبد فوق الكفاية ، ويكلّفه من الطاعة دون الطاقة. وقال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرّحمن الفاسى رضي اللّه عنه : الظاهر حمل العباد على من اصطفاه ، بدليل الإضافة المفيدة للتشريف ، وأنه تعالى لطيف بهم رفيق ، ومن ذلك : حمايتهم من الدنيا ، ومما يطغى من الرّزق ، وعليه ينزل قوله : يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ. هـ. أي : يرزق على حسب مشيئته ، المبنية على الحكم البالغة. وفى الحديث : «إن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإنّ من عبادى المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسده ذلك» «٢».

وأما قوله تعالى : وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها «٣» فهو وعد لجميع الخلق ، وهو مبنى على المشيئة المذكورة هنا ، فلا منافاة بينهما ، خلافا لابن جزى «٤» لأن المشيئة قاضية على ظاهر الوعد ، ولا يقضى ظاهر الوعد عليها «٥». انظر الحاشية.

وَهُوَ الْقَوِيُّ الباهر القدرة ، الغالب على كلّ شىء ، الْعَزِيزُ المنيع الذي لا يغلب.

الإشارة : الميزان هو العقل إذ به تعرف الأشياء ومقاديرها ، نافعها وضارها. فالعقول متفاوتة كالموازين ، فبعض الموازين لرقته لا يوزن فيها إلا الشيء الرّفيع ، كالذهب ، والإكسير ، والفضة ، والطيب الرّفيع ، وبعضها يصلح لوزن الأشياء اللطيفة ، دون الخشينة ، كميزان العطار وشبهه ، وبعضها يصلح للأشياء

الخشينة المتوسطة ، كميزان الغزالين والحاكة ، وبعضها لا يصلح إلا للخشين ، كالفحم وشبه ، وبعضها لا يصلح إلا للخشين الكثير ، كالذى يوزن به القناطير من الشيء الخشين ، فالأول عقول العارفين ، لا يوزن فيها إلا أنوار التوحيد وأسرار التفريد ، لا يصلح لغيرها ، والثاني للعباد ، والزهاد ، والعلماء الصالحين ، والثالث للمتجمدين من العلماء ، والرّابع لعامة المؤمنين ، والخامس للفجار والكفار ، وفيهم نزل : يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها ... الآية ، وما قبله هو قوله : وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها.

---

(١) فى الأصول [المثاقب] والمثبت من تفسير النّسفى – رحمه اللّه تعالى – .

(٢) أخرجه الديلمي (الفردوس ٥/ ٢٥٠ ح ٨١٠٠) والبيهقي فى الأسماء والصفات (ص ١٢١) ، وأخرجه مطولا البغوي فى التفسير (٧/ ١٩٤ – ١٩٥). وعزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٧٠٤ – ٧٠٥) لابن أبى الدنيا فى كتاب الأولياء ، والحكيم الترمذي فى نوادر الأصول ، وابن مردويه ، وأبى نعيم فى الحلية (٨/ ٣١٨) ، وابن عساكر فى تاريخه ، عن أنس بن مالك ، رضي اللّه عنه. وانظر كشف الخفاء (١٧٣٧).

(٣) من الآية ٦ من سورة هود.

(٤) قال ابن جزى – رحمه اللّه تعالى : يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ يعنى الرّزق الزائد على المضمون لكلّ حيوان فى قوله : وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها أي : ما تقوم به الحياة ، فإن هذا على العموم لكلّ حيوان طول عمره ، ولزائد خاص بمن شاء اللّه.

(٥) وجدت على هامش النّسخة الأساسية مايلى : «الحق ما قاله ابن جزى ، وأن المشيئة متعلقة بالتوسعة المسماة فى العرف رزقا أيضا ، لا بأصل الرّزق ، ويدل على ذلك قوله تعالى عقب هذا مباشرة : مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ ... الآية ، ولا مجملة فهى بمعنى قوله تعالى : اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ... ... فهذا قوله تعالى : وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ فالجمع لا بد منه ، والمشيئة متعلقة بوقت الجمع. انتهى.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٠٨

وقوله تعالى : اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ ، اعلم أن لطفه سبحانه بعباده لا ينحصر ولا ينفك عنه مخلوق ، من ظن انفكاك لطف اللّه عن قدره فذلك لقصور نظره ، فمن لطفه سبحانه بخلقه : أنه أعطاهم فوق الكفاية ، وكلّفهم دون الطاقة. ومن لطفه سبحانه : تسهيله الأرزاق ، وتيسير الارتفاق ، فلو تفكر

الإنسان فى اللقمة التي توضع بين يديه ، ما ذا عمل فيها من العوالم العلوية والسفلية لتحقق بغاية عجزه ، وتيقن بوجود لطفه ، وكذا ما يحتاج إليه من مشروب ، وملبوس ، ومطعوم. ومن لطفه سبحانه : توفيق الطاعات ، وتسهيل العبادات ، وتيسير الموافقات. ومن لطفه سبحانه : حفظ التوحيد فى القلوب ، واطلاعها على مكاشفة الغيوب ، وصيانة العقائد عن الارتياب ، وسلامة القلوب عن الاضطراب. ومن لطفه سبحانه : إبهام العاقبة لئلا يتكلوا أو ييأسوا. ومن لطفه سبحانه بالعبد : إخفاء أجله عليه لئلا يستوحش إن كان قد دنا أجله. ومن لطفه سبحانه بخواصه : ستر عيوبهم ، ومحو ذنوبهم ، حتى وصلهم بما منه إليهم ، لا بما منهم إليه ، فكشف لهم عن أسرار ذاته ، وأنوار صفاته ، فشاهدوه جهرا ، وعبدوه شكرا.

وقوله تعالى : يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ إما رزق الأرواح ، أو رزق الأشباح ، وإلى هذا القسمين أشار قوله :

[سورة الشورى (٤٢) : آية ٢٠]

مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠)

يقول الحق جل جلاله : مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ ، سمّى ما يعمله العامل مما يبتغى به الفائدة المستقبلة حرثا ، مجازا لأن الحرث : إلقاء البذر فى الأرض لننظر نتاجه ، فأطلقه على العمل ، لجامع حصول النتاج ، أي : من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ نضاعف له ثوابه ، الواحدة بعشر إلى سبعمائة فما فوقها ، أو : نزد له فى توفيقه وإعانته ، وتسهيل سبيل الخيرات والطاعات عليه. وَمَنْ كانَ يُرِيدُ بأعماله حَرْثَ الدُّنْيا وهو متاعها وطيباتها نُؤْتِهِ مِنْها أي : شيئا منها ، حسبما قسمناه له ، لا ما يريده ويبتغيه ، وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ إذا كانت همته مقصورة على الدنيا. ولم يذكر فى عامل الآخرة أن رزقه المقسوم يصل إليه ، للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده ، من زكاء أعماله ، وفوزه فى المآب لأن ما يعطى فى الآخرة يستحقر أن يذكر معه غيره من الدنيا.

الإشارة : قد مرّ مرارا ذم الدنيا وصرف الهمة إليها ، وفى الحديث عن أبى سعيد الخدري : أنه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول فى بعض خطبه : «أيها النّاس ، أقبلوا على ما كلفتموه من صالح آخرتكم ، وأعرضوا عما ضمن لكم من أمر

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٠٩

دنياكم ، ولا تشغلوا «١» جوارحكم جوارح غذيت بنعمته فى التعرض لخطأ بمعصيته ، واجعلوا شغلكم بالتماس معرفته ، واصرفوا هممكم إلى التقرب بطاعته ، إنه من بدأ بنصيبه من الدنيا فاته نصيبه من

الآخرة ، ولم يدرك منها ما يريد ، ومن بدأ بنصيبه من الآخرة وصل إليه نصيبه من الدنيا ، وأدرك من الآخرة ما يريد» «٢».

قال الورتجبي : حرث الآخرة : مشاهدته ووصاله وقربه ، وهذا للعارفين ، وحرث الدنيا : كرامات الظاهر ، ومن شغلته الكرامات احتجب بها عن الحق. ثم قال : عن بعضهم : من عمل للّه محبة له ، لا طلبا للجزاء ، صغر عنده كل شيء دون اللّه ، فلا يطلب حرث الدنيا ، ولا حرث الآخرة ، بل يطلب اللّه من الدنيا والآخرة. ثم قال : حرث الدنيا : قضاء الوطر منها ، والجمع منها ، والافتخار بها ، ومن كان بهذه الصفة فما له فى الآخرة من نصيب. هـ.

وقال بعض الشعراء فى هذا المعنى :

يا موثر الدنيا على دينه ومشتر دنياه بالآخرة

بعت الذي يبقى بما ينقضى تبّا لها من صفقة خاسره.

ثم ذكر مقابل قوله : شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ، كأنه تعالى لمّا ذكر أنه شرع ما وصى به ، أخذ ينكر ما شرع غيره ، فقال :

أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ ...

[سورة الشورى (٤٢) : آية ٢١]

أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢١)

يقول الحق جل جلاله : أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ، «أم» : منقطعة ، أي : بل ألهم شركاء ، أو : معادلة لمحذوف ، تقديره : أقبلوا ما شرعت لهم من الدين ، أم لهم آلهة شرعوا من الدين ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ أي : لم يأمر به ، وَلَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ أي : القضاء السابق بتأخير الجزاء ، أي : ولو لا العدة بأن الفصل يكون يوم

---

(١) هكذا فى جميع الأصول.

(٢) لم أقف عليه ، رغم كثرة البحث. [.....]

القيامة لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بين الكفار والمؤمنين. أو : لعجلت لهم العقوبة. وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وإن المشركين لهم عذاب أليم فى الآخرة ، وإن أخّر عنهم فى دار الدنيا.

[سورة الشورى (٤٢) : آية ٢٢]

تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢)

تَرَى الظَّالِمِينَ المشركين فى الآخرة مُشْفِقِينَ خائفين مِمَّا كَسَبُوا من جزاء كفرهم ، وَهُوَ واقِعٌ نازل بِهِمْ لا محالة ، أشفقوا أم لم يشفقوا. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ كأنّ روضة جنة المؤمن أطيب بقعة فيها وأنزهها ، فالروضات : المواضع المونقة النّضرة ، فهم مستقرون فى أطيب بقعها وأنزهها. لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ أي : ما يشتهون من فنون المستلذات حاصل لهم عند ربهم ، ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ الذي لا يقادر قدره ، ولا يبلغ غايته على العمل القليل ، فضلا من الكبير الجليل.

[سورة الشورى (٤٢) : آية ٢٣]

ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)

ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ تعالى ، عِبادَهُ فحذف عائد الموصول. ويقال : بشّر وبشر ، بالتشديد والتخفيف ، وقرئ بهما «١». ثم وصف المبشرين بقوله : الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ دون غيرهم.

الإشارة : كل من ابتدع عملا خارجا عن الكتاب والسنة فقد شرع من الدين ما لم يأذن به اللّه ، فينسحب عليه الوعيد ، لقوله صلّى اللّه عليه وسلم : «من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» «٢».

وقوله تعالى : وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ قال القشيري : فى الدنيا جنة الوصلة ، ولذاذة الطاعة والعبادة ، وطيب الأنس فى أوقات الخلوة ، وفى الآخرة فى روضات الجنات ، إن أرادوا دوام اللطف دام لهم ، وإن أرادوا تمام الكشف كان لهم. هـ.

ولمّا كان من شأن المبشر بالخير أن يلتمس الأجر ، نزّه نبيه عن ذلك ، فقال :

[سورة الشورى (٤٢) : آية ٢٣]

ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)

---

(١) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي «يبشر» بفتح الياء ، وسكون الموحدة ، وضم الشين مخففة ، من «بشر» الثلاثي. وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الباء وكسر السين مشددة للتكثير. انظر الإتحاف (٢/ ٤٤٩).

(٢) أخرجه بتمامه مسلم ، فى (الزكاة ، باب الحث على الصدقة ، ٢/ ٧٠٥ ، ح ١٠١٧) من حديث جرير بن عبد اللّه رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢١١

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ على التبليغ أَجْراً. روى أنه اجتمع المشركون فى مجمع لهم ، فقال بعضهم لبعض : أترون أن محمدا يسأل على ما يتعاطاه أجرا؟ فنزلت. أي : لا أسألكم على التبليغ والبشارة أجرا ، أي : نفعا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى إلا أن تودوا أهل قرابتى ، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا ، أي : لا أسألكم أجرا قط ، ولكن أسألكم أن تودّوا قرابتى الذي هم قرابتكم ، ولا تؤذوهم. ولم يقل : إلا مودّة القربى ، أو : المودة للقربى لأنهم جعلوا مكانا للمودة ، ومقرا لها ، مبالغة ، كقولك : لى فى مال فلان مودة ، ولى فيهم حبّ شديد ، تريد : أحبهم ، وهم مكان حبى ومحله. وليست «فى» بصلة للمودة كاللام ، إذا قلت :

إلا المودة للقربى ، وإنما هى متعلقة بمحذوف ، تعلق الظرف. به والتقدير : إلا المودة ثابتة فى القربى ، ومتمكنة فيها. والقربى : مصدر ، كالزلفى والبشرى ، بمعنى القرابة. والمراد : فى أهل القربى.

روى أنه لما نزلت قيل : يا رسول اللّه! من أهل قرابتك هؤلاء ، الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال : «علىّ وفاطمة وابناهما» «١». وقيل : معناه : إلا أن تودّونى لقرابتى فيكم ، ولا تؤذوني ، إذ لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبين رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وبينهم قرابة. وقيل : القربى : التقرب إلى اللّه تعالى ، أي : إلا أن تحبوا اللّه ورسوله فى تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح.

وَمَنْ يَقْتَرِفْ أي : يكتسب حَسَنَةً أىّ حسنة كانت ، فيتناول مودة ذى القربى تناولا أوليا. وعن السدى : أنها المرادة ، قيل : نزلت فى الصدّيق رضي اللّه عنه ومودته فيهم ، والظاهر : العموم ، نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً أي :

نضاعفها له فى الجنة. إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لمن أذنب [بطوله] «٢» شَكُورٌ لمن أطاع بفضله ، بتوفية الثواب والزيادة ، أو : غفور : قابل التوبة ، شكور : حامل عليها.

الإشارة : محبة أهل البيت واجبة على البشر ، حرمة وتعظيما لسيد البشر ، وقد قال : «من أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم» «٣» فمحبة الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم ركن من أركان الإيمان ، وعقد من عقوده ، لا يتم الإيمان إلا بها ، وكذلك محبة أهل بيته. وفى الحديث صلّى اللّه عليه وسلم : «لا يؤمن أحدكم حتى يحبنى ، ولا يحبنى حتى يحب ذوى قرابتى ، أنا حرب لمن حاربهم ، وسلم لمن سالمهم ، وعدو لمن عاداهم ، ألا من آذى قرابتى فقد آذاني ، ومن آذاني

---

(١) أخرجه الطبراني فى الكبير (١١/ ٤٤٤ ، ح ١٢٢٥٩) وعزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٧٠١) لابن المنذر وابن أبى حاتم والطبراني وابن مردويه ، بسند ضعيف ، من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس

رضي اللّه عنه.

(٢) فى الأصول : [بعدله] والمناسب ما أثبته ، وهو الذي فى تفسير النّسفى. والطّول : الفضل والغنى والسعة. انظر اللسان (طول ٤/ ٧٢٨).

(٣) ورد «من أحب هؤلاء ، فقد أحبنى ، ومن أبغضهم فقد أبغضنى» يعنى الحسن والحسين وفاطمة وعليا – رضي اللّه عنهم أجمعين.

والحديث ذكره فى كنز العمال ح (١٠٣) وعزاه لابن عساكر عن زيد بن أرقم.

والأحاديث فى محبة أهل البيت كثيرة. اللهم صلّى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

(٢١١/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢١٢

فقد آذى اللّه تعالى» «١». وقال أيضا – عليه الصلاة والسّلام : «إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا ، كتاب اللّه تعالى وعترتى» «٢» ، فانظر كيف قرنهم بالقرآن فى كون التمسك بهم يمنع الضلال.

وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «من مات على حب آل محمد مات شهيدا ، ألا ومن مات على حب آل محمد بدل اللّه له زوار قبره ملائكة الرّحمة ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب «٣» بين عينيه : آيس من رحمة اللّه» «٤». انظر الثعلبي. زاد بعضهم : ولو عصوا وغيّروا فى المذهب فنكره فعلهم ونحب ذاتهم. قال الشيخ زروق فى نصيحته : وما ينزل بنا من ناحيتهم نعدّه من القضاء النازل. هـ.

وفى همزية البوصيرى – رحمه اللّه :

آل بيت النّبىّ إنّ فؤادى ليس يسليه عنكم التأساء «٥».

وقال آخر :

آل بيت رسول اللّه حبّكم فرض من اللّه فى القرآن أنزله

يكفيكم من عظيم المجد أنّكم من لم يصلّ عليكم لا صلاة له «٦».

وقوله تعالى : وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً ، الزيادة فى الدنيا بالهداية والتوفيق ، وفى الآخرة بتضعيف الثواب وحسن الرّفيق. قال القشيري : إذا أتانا بالمجاهدة زدناه بفضلنا تحقيق المشاهدة.

ويقال : من يقترف حسنة الوظائف نزد له حسن اللطائف. ويقال : الزيادة ما لا يصل إليه العبد بوسيلة ، مما لا يدخل تحت طوق البشر. هـ.

ثم ردّ على من طعن فى الوحى ، الذي نفى الأجر على تبليغه ، فقال :

(١) أخرج أحمد فى المسند (ح ٩٦٥٩) وابن حبان (موارد ح ٢٢٤٤) وابن أبى شيبة (٢/ ٩٦) والطبراني فى الكبير (٣/ ٣١) عن أبى هريرة ، قال : نظر النّبى صلّى اللّه عليه وسلم إلى على والحسن والحسين وفاطمة فقال : «أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم». وأخرجه الترمذي فى المناقب ، باب فضل فاطمة ، ح ٣٨٧٥) عن زيد بن أرقم ، بلفظ «أنا حرب لمن حاربتم ، وسلم لمن سالمتم».

(٢) أخرجه الترمذي وحسّنه فى (المناقب ، باب مناقب أهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ٥/ ٦٢١ ، ح ٣٧٨٦) من حديث جابر بن عبد اللّه ، و(ح ٣٧٨٨) من حديث أبى سعيد وزيد بن أرقم – رضي اللّه عنهما.

(٣) هكذا فى الأصول.

(٤) ذكره بنحوه القرطبي (٧/ ٦٠٢٢) ، وذكره الزمخشري فى تفسيره (٤/ ٢٢٠) بأطول من هذا ، وعزاه الحافظ ابن حجر فى الكافي للثعلبى ، وقال : «وآثار الوضع عليه لائحة» ..

(٥) انظر ديوان البوصيرى/ ٧٠.

(٦) الأبيات للإمام الشافعي. انظر ديوانه/ ٧٢ ، وفيه : [يكفيكم من عظيم الفخر أنكم].

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢١٣

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ٢٤ الى ٢٦]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٢٤) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (٢٦)

يقول الحق جل جلاله : أَمْ يَقُولُونَ أي : بل أيقولون افْتَرى محمد عَلَى اللَّهِ كَذِباً فى دعوة النّبوة ، أو القرآن؟. والهمزة للإنكار التوبيخي ، كأنه قيل : أيمكن أن ينسبوا مثله – عليه الصلاة والسّلام – للافتراء ، لا سيما لعظم الافتراء ، وهو الافتراء على اللّه ، فإن الافتراء إنما يسام به أبعد خلق اللّه ، ومن هو عرضة للختم والطبع ، فالعجب ممن يفوه به فى جانب أكرم الخلق على اللّه.

فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ ، هذا استبعاد للافتراء على مثله لأنه إنما يجترئ على اللّه من كان مختوما على قلبه ، جاهلا بربه ، أمّا من كان على بصيرة ومعرفة بربه ، فلا ، وكأنه قال : إن يشأ اللّه خذلانك يختم على قلبك لتجترئ بالافتراء عليه ، لكنه لم يفعل فلم تفتر. أو : فإن يشأ اللّه عدم صدور القرآن عنك يختم على قلبك ، فلم تقدر أن تنطق بحرف واحد منه ، وحيث لم يكن كذلك ،

بل تواتر الوحى عليك حينا فحينا تبين أنه من عند اللّه تعالى. وهذا أظهر.
وقال مجاهد : إن يشأ يربط على قلبك بالصبر على أذاهم ، وعلى قولهم : افترى على اللّه كذبا لئلا تدخله مشقة بتكذيبهم. هـ.
وَيَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ ، استئناف مقرر لنفى الافتراء ، غير معطوف على «يختم» كما ينبئ عنه إظهار الاسم الجليل ، وإنما سقطت الواو – كما فى بعض المصاحف – لا تباع اللفظ ، كقوله تعالى : وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ ... «١» مع أنها ثابتة فى مصحف نافع. قاله النّسفى. أي : ومن شأنه تعالى أنه يمحق الباطل ، ويثبت الحق بوحيه ، أو بقضائه ، كقوله تعالى : بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ «٢» ، فلو كان افتراء كما زعموا لمحقه ودمغه. أو : يكون عدة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بأنه تعالى يمحو الباطل الذي هم عليه ، ويثبت الحق الذي هو عليه صلّى اللّه عليه وسلم بالقرآن ، أو بقضائه الذي لا مرد له بنصره عليهم ، وقد فعل ذلك ، فمحا باطلهم ، وأظهر

---

(١) من الآية ١١ من سورة الإسراء.
(٢) من الآية ١٨ من سورة الأنبياء.

الإسلام. إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أي : عليم بما فى صدرك وصدورهم ، فيجرى الأمر على حسب ذلك من المحو والإثبات.
وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ. يقال : قبلت الشيء منه : إذا أخذته منه ، وجعلته مبدأ قبولك ، وقبلته عنه ، أي : عزلته وأبنته عنه. والتوبة : الرجوع عن القبيح بالندم ، والعزم ألا يعود ، ورد المظالم واجب غير شرط.
قال ابن عباس : لما نزل. قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً .... الآية. قال قوم فى نفوسهم : ما يريد إلا أن يحثنا على أقاربه من بعده ، فأخبر جبريل النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلم أنهم قد اتهموه ، وأنزل : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً .. الآية ، فقال القوم يا رسول اللّه فإنا نشهد أنك صادق. فنزل : وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ .... هـ.
قال أبو هريرة ، قال النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «اللّه أفرح بتوبة عبده المؤمن من الضال الواجد ، ومن العقيم الوالد ، ومن الظمآن الوارد ، فمن تاب إلى اللّه توبة نصوحا أنسى اللّه حافظيه ، ولو كانت بقاع الأرض خطاياه وذنوبه» «١».

واختلف العلماء فى حقيقة التوبة وشرائطها ، فقال جابر بن عبد اللّه : دخل أعرابى مسجد النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال : اللهم إنى أستغيذك وأتوب إليك ، سريعا ، وكبّر ، فلما فرغ من صلاته ، قال له علىّ : ما هذا؟ إن سرعة الاستغفار باللسان توبة الكذابين ، وتوبتك تحتاج إلى توبة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، وما التوبة؟ قال : اسم يقع على ستة معان : على الماضي من الذنوب النّدامة ، ولتضييع الفرائض الإعادة ، ورد المظالم ، وإذابة النّفس فى الطاعة ، كما أذبتها فى المعصية ، وإذاقة النّفس مرارة الطاعة ، كما أذقتها حلاوة المعصية ، والبكاء بدل كلّ ضحك ضحكته.

وعن السدى : هى صدق العزيمة على ترك الذنوب ، والإنابة بالقلب إلى علّام الغيوب. وعن سهل : هى الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة. وعن الجنيد : هى الإعراض عما سوى اللّه.

قال اللّه تعالى : وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وهو ما دون الشرك ، يعفو لمن يشاء بلا توبة ، وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ كائنا ما كان ، من خير أو شر ، حسبما تقتضيه مشيئته.

وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أي : يستجيب لهم فحذف اللام كما فى قوله : وَإِذا كالُوهُمْ»

أي : يجيب دعوتهم ، ويثيبهم على طاعتهم ، أو : يستجيبون له بالطاعة إذا دعاهم إليها. قيل لإبراهيم

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ ، وفى الصحيح : «اللّه أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلا وبه مهلكة ، ومعه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ، حتى اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء اللّه ، قال : أرجع إلى مكانى ، فرجع فنام نومة ، ثم رفع رأسه ، فإذا راحلته عنده ، أخرجه البخاري فى (الدعوات ، باب التوبة ، ح ٦٣٠٨) ومسلم فى (التوبة ، باب فى الحض على التوبة ، ح ٢٧٤٤) من حديث ابن مسعود رضي اللّه عنه. [.....]

(٢) من الآية ٣ من سورة المطففين.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢١٥

ابن أدهم : مالنا ندعو فلا نجاب؟ قال : «لأنه دعاكم فلم تجيبوا». وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ على ما سألوه ، واستحقوه بموجب الوعد. وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بدل ما للمؤمنين من الفضل العظيم والمزيد.

الإشارة : قال الورتجبي : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فيه تقديس كلامه ، وطهارة نبيه صلّى اللّه عليه وسلم عن الافتراء ، وكيف يفترى وهو مصون من طريان الشك والرّيب والوساوس والهواجس على قلبه؟. وقال أيضا : عن الواسطي : إن يشأ اللّه يختم على قلبك [لكن ما يشاء] «١» ، ويمح اللّه

الباطل بنفسه ونعته ، حتى يعلم أنه لا حاجة له إلى أحد من خلقه ، ثم يحقق الحق فى قلوب أنشأها للحقيقة.

قلت : فى الآية تهديد لأهل الدعوى لأنهم إن داموا على دعواهم الخصوصية بلا خصوصية ختم اللّه على قلوبهم بالنفاق ، ثم يمحو اللّه الباطل بأهل الحق والتحقيق ، فتشرق حقائقهم على ما يقابلها من البال فتدمغه بإذن اللّه وقضائه وكلماته.

وقوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ ... إلخ ، لكلّ مقام توبة ، ولكلّ رجال سيئات ، فتوبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من العيوب ، وتوبه خواص الخواص من الغيبة عن شهود علام الغيوب. وقوله تعالى :

وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ يشير إلى الحلم بعد العلم.

وقوله تعالى : وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أي : فى كلّ ما يتمنون ، وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ النظر إلى وجهه ، ويتفاوتون فيه على قدر توجههم ، ومعرفتهم فى الدنيا. وذكر فى القوت حديثا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فى تفسير قوله تعالى : وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ قال : «يشفعهم فى إخوانهم ، فيدخلهم الجنة» «٢». هـ. قال القشيري : ويقال :

لمّا ذكر أن التائبين يقبل توبتهم ، ومن لم يتب يعفو عن زلّته ، والمطيع يدخله الجنة ، فلعله خطر ببال أحد : فهذه النار لمن هى؟ فقال وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ ، ولعله يخطر بالبال أن العصاة لا عذاب لهم ، فقال : (شديد) بدليل الخطاب أنه ليس بشديد «٣» هـ.

ولمّا ذكر أن أهل الإيمان يستجيب لهم ، ويزيدهم من فضله ، يعنى فى الآخرة ، وأما فى الدنيا فإنما يعطيهم الكفاف ، ذكر حكمة ذلك ، فقال :

---

(١) فى الورتجبي [بما يشاء].

(٢) أخرجه ابن جرير ، من طريق قتادة عن أبى إبراهيم اللخمي ، موقوفا.

(٣) اختصر المفسر عبارة القشيري ، وهذا نصها حتى يتضح المراد : فالعصاة من المؤمنين لهم عذاب ، أما الكافرون فلهم عذاب شديد ، لأن دليل الخطاب يقتضى هذا ، وذاك يقتضى أن المؤمنين لهم عذاب ، ولكن ليس بشديد ، وأما عذاب الكافرين فشديد. هـ.

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨)

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ أي : لو أغناهم جميعا لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ أي : لتكبروا وأفسدوا فيها ، بطرا ، ولعلا بعضهم على بعض بالاستعلاء والاستيلاء ، لأن الغنى مبطرة مفسدة ، وكفى بحال قارون وفرعون عبرة. وأصل البغي : تجاوز الاقتصاد [عما يجزى] «١» من حيث الكمية أو الكيفية.

وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ أي : بتقدير ما يَشاءُ أن ينزله ، مما تقضيه مشيئته. يقال : قدره وقدّره قدرا وتقديرا إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ محيط بخفايا أمورهم وجلاياها ، فيقدر لكلّ واحد منهم ما يليق بشأنه ، فيفقر ويغنى ، ويعطى ويمنع ، ويقبض ويبسط ، حسبما تقتضيه الحكمة الرّبانية ، ولو أغناهم جميعا لبغوا فى الأرض ، ولو أفقرهم لهلكوا ، وما ترى من البسط على من يبغى ، ومن البغي بدون البسط ، فهو قليل ، ولكن البغي مع الفقر أقلّ ، ومع البسط أكثر وأغلب ، فالحكمة لا تنافى بغى البعض بدفعه بالبعض الآخر ، بخلاف بغى الجميع. وَلَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ ... «٢» الآية.

وقال شقيق بن إبراهيم : لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ أي : لو رزق اللّه العباد من غير كسب لَبَغَوْا طغوا وسعوا فى الأرض بالفساد ، ولكن شغلهم بالكسب والمعاش ، رحمة منه. هـ. أي : لئلا يتفرغوا للفساد ، ومثله فى التنوير.

وقال شيخ شيوخنا الفاسى العارف : والظاهر حمل العباد على الخصوص المصطفين من المؤمنين ، فإنهم يحمون من الطغيان وبسط الرّزق لئلا يبغوا. هـ.

وقال قتادة : كان يقال : خير الرّزق : ما لا يطغيك ، ولا يلهيك ، فذكر لنا أن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم قال : «أخوف ما أخاف على أمتى زهرة الدنيا وكثرتها» «٣». هـ.

---

(١) هكذا فى الأصول ، وفى تفسير أبى السعود [فيما يتحرى].

(٢) من الآية : ٤٠ من سورة الحج.

(٣) أخرجه الطبري (٢٥/ ١٩).

روى : أن أهل الصّفة تمنوا الغنى ، فنزلت «١». وقيل : نزلت فى العرب ، كانوا إذا أخصبوا تحاربوا ، وإذا جدبوا انتجعوا. هـ.

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ أي : المطر الذي يغيثهم من الجدب ، ولذا خص بالنافع منه ، فلا يقال للمطر الكثير :

غيث ، مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا : يئسوا منه. وتقييد تنزيله بذلك ، مع نزوله بدونه أيضا لمزيد تذكر كمال النّعمة.

وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ أي : بركات الغيث ومنافعه ، وما يحصل به من الخصب فى كلّ مكان ، من السهل ، والجبل ، والنّبات ، والحيوان. أو : رحمته الواسعة المنتظمة لما ذكر وغيره. وَهُوَ الْوَلِيُّ الذي يتولى عباده بالإحسان ونشر الرحمة ، الْحَمِيدُ المستحق للحمد على ذلك ، لا غيره.

الإشارة : عادته تعالى مع أوليائه أن يعطيهم ما يكفيهم بعد الاضطرار ، ويمنعهم منه فوق الكفاية لئلا يشغلهم بذلك عن حضرته ، وفى الحديث : «إن اللّه يحمى عبده المؤمن – أي : مما يضره الدنيا وغيرها – كما يحمى الرّاعى الشفيق غنمه من مراتع الهلكة» «٢» وفى حديث آخر : «إذا أحب اللّه عبدا حماه الدنيا كما يحمى أحدكم سقيمه الماء» «٣». وروى ابن المبارك ، عن سعيد بن المسيب قال : جاء رجل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال : أخبرنى يا رسول اللّه بجلساء اللّه يوم القيامة؟ فقال : «هم الخائفون ، الخاضعون ، المتواضعون ، الذاكرون كثيرا» فقال : يا رسول اللّه فهم أول النّاس يدخلون الجنة؟ قال : «لا» قال : فمن أول النّاس دخولا الجنة؟ قال «الفقراء يسبقون النّاس إلى الجنة ، فيخرج إليهم ملائكة ، فيقولون : ارجعوا إلى الحساب ، فيقولون : علام نحاسب؟ واللّه ما أفيضت علينا الأموال فنفيض فيها ، وما كنا أمراء نعدل ونجور ، ولكنا جاءنا أمره فعبدنا حتى أتانا اليقين». هـ.

قوله : وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ ... الآية ، كما ينزل غيث المطر على الأرض الميتة ، ينزل أمطار الواردات الإلهية على القلوب الميتة ، فتحيا بالذكر والمعرفة ، بعد أن أيست من الخصوصية.

قال القشيري ، بعد كلام : وكذلك العبد إذا ذبل غصن وقته ، وتكدّر صفو ودّه وكسفت شمس أنسه ، وبعد عن الحضرة وساحات القرب عهده ، فربما ينظر إليه الحقّ نظر رحمة ، فينزل على سرّه أمطار الرّحمة ، ويعود عوده طريّا ، وينبت فى مشاهد أنسه وردا جنيا ، وأنشدوا فى المعنى :

---

(١) أخرجه الواحدي فى أسباب النّزول (ص ٣٩٠) عن عمرو بن حريث ، وذكره الهيثمي فى المجمع (٧/ ١٠٤) وعزاه للطبرانى ، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (ح ١٠٤٥١) من حديث حذيفة رضي اللّه عنه ، والحديث ضعّفه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ١٩٠١).

(٣) أخرجه الترمذي فى (الطب ، باب ما جاء فى الحمية ، ح ٣٠٣٦) والبيهقي فى الشعب (ح ١٤٥٠) من حديث قتادة بن النّعمان رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢١٨

إن راعنى منك الصدود فلعلّ أيامى تعود

ولعل عهدك باللّوى يحيا فقد تحيا العهود

والغصن يبس تارة وتراه مخضرّا يميد.

وقوله تعالى : وَهُوَ الْوَلِيُّ قال القشيري فى شرح الأسماء : الولي هو المتولى لأحوال عباده ، وقيل معناه :

المناصر ، فأولياء اللّه أنصار دينه ، وأشياع طاعته ، والوليّ فى صفة العبد : هو من يواظب على طاعة ربه. ومن علامات من يكون الحق سبحانه وليّه : أن يصونه ويكفيه فى جميع الأحوال ، ويؤمنه ، فيغار على قلبه أن يتعلق بمخلوق فى دفع شر أو جلب نفع ، بل يكون سبحانه هو القائم على قلبه فى كلّ نفس ، فيحقق آماله عند إشارته ، ويجعل مآربه عند خطراته. ومن أمارات ولايته لعبده : أن يديم توفيقه ، حتى لو أراد سوءا ، أو قصد محظورا ، عصمه من ارتكابه. ثم قال : ومن أمارات ولايته : أن يرزقه مودة فى قلوب أوليائه. هـ. قلت : «جعل مآربه عند خطراته» ليس شرطا لأن هذا من باب الكرامة ، ولا يشترط ظهورها عند المحققين. وروى أنس عن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم عن جبريل ، عن ربه – عز وجل – قال : «من أهان لى وليّا فقد بارزني بالمحاربة ، وإنى لأسرع شيء إلى نصرة أوليائى ، وإنى لأغضب لهم ، كما يغضب الليث الحرد» «١» انظر بقية الحديث فى الثعلبي.

ثم ذكر شواهد قدرته ، فقال :

[سورة الشورى (٤٢) : آية ٢٩]

وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ (٢٩)

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْ آياتِهِ الدالة على باهر قدرته ووحدانيته خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ على ما هما عليه من تعاجيب الصنعة ، فإنها بذاتها وصفاتها تدل على شؤونه العظيمة ، وَما بَثَّ أي : فرّق فِيهِما مِنْ دابَّةٍ من حى على الإطلاق ، فأطلق الدابة على مطلق الحيوان ، ليدخل الملائكة. أو : ما يدب على الأرض ،

---

(١) أخرجه مطولا ، البغوي فى التفسير (٧/ ١٩٤ – ١٩٥) وعزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٧٠٤) لابن أبى الدنيا فى كتاب الأولياء ، والحكيم الترمذي فى نوادر الأصول ، وأبى نعيم فى الحلية (٨/ ٣١٥) وابن عساكر فى تاريخه.

وقوله : «الحرد» الحرد : الغيظ والغضب. وحرد الرّجل فهو حرد. انظر اللسان (مادة حرد ٢/ ٨٢٤ – ٨٢٥).

(٢١٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢١٩

فإن ما يختص أحد الشيئين المجاورين يصح نسبته إليهما ، كقوله تعالى : يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ «١» وإنما يخرج المرجان من الملح ، ولا يبعد أن يخلق اللّه فى السموات حيوانا يمشون مشى الأناسىّ على الأرض ، أو :

يكون للملائكة مشى مع الطيران ، فوصفوا بالدّبيب لذلك. وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ أي : حشرهم بعد البعث للحساب إِذا يَشاءُ أي : فى الوقت الذي يشاء قَدِيرٌ لا يعجزه شىء الإشارة : من تعرفاته : إظهار السموات والأرض ، وهذه رسوم المعاني ، وما بثّ فيهما من دابة ، وهذه أشكال توضح أسرار المعاني ، فإذا قبضت المعاني محيت الرسوم والأشكال. وقوله تعالى : وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ ، قال القشيري : الإشارة فى هذا : أنّ الحقّ تعالى يغار على أوليائه أن يسكن بعضهم بقلبه إلى بعض ، فأبدا يبدّد شملهم ، ولا يكاد تتفق الجماعة من أهل القلوب إلا نادرا ، وذلك أيضا مدة يسيرة ، كما أنشدوا :

رمى الدهر بالفتيان حتى كأنّهم بأكناف أطراف السماء نجوم «٢»

وقد يتفضّل تعالى باجتماعهم فى الظاهر ، وذلك وقت نظر الحقّ بفضله إلى العالم ، وفى بركات اجتماعهم حياة العالم ، وإذ كان قادرا فهو على جمعهم إذا يشاء قدير. «٣» هـ.

قلت : مما جرت به عادة اللّه تعالى فى أوليائه : أنه لا يجتمع فى موضع واحد منهم اثنان فأكثر إلا قام أحدهما بالآخر ، ويفقد نظامهما ، فلا تكاد تحد أهل النّور القوى إلا متباعدى الأوطان ، لئلا يطفى نور أحداهما نور الآخر ، وقد يجتمعون نادرا فى وقت مخصوص ، وذلك وقت النّفحات. كما تقدم للقشيرى.

ثم ذكر سبب نزول المصائب بعباده ، فقال :

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ٣٠ الى ٣١]

وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٣١)

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الرّحمن.

(٢) البيت منسوب للقشيرى كما فى تبيين كذب المفترى للدمشقى/ ٣٥٦.
(٣) بتصرف. [.....]

(٢١٩/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٢٠
يقول الحق جل جلاله : وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ غمّ ، أو ألم ، أو مكروه فَبِما «١» كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ أي : بجناية كسبتموها ، عقوبة لكم. ومن قرأ بالفاء ف «ما» شرطية. ومن قرأ بغيرها فموصلة. وتعلق بهذه الآية من يقول بالتناسخ ، ومعناه عندهم : أن أرواح المتقدمين حين تموت أشباحها تنتقل إلى أشباح أخر ، فإن كانت صالحة انتقلت إلى جسم صالح وإن كانت خبيثة انتقلت إلى جسم خبيث ، وهو باطل وكفر. ووجه التعلق : أنه لو لم يكن للأطفال حالة كانوا عليها قبل هذه الحالة لما تألّموا. ويجاب : بأن تألم الأطفال إما زيارة فى درجات آبائهم إن عاشوا ، أو فى درجاتهم إن ماتوا لأنهم يلحقون بآبائهم فى الدرجة ، ولا عمل لهم إلا هذا التألم. واللّه أعلم.
والآية مخصوصة بالمكلّفين بدليل السياق ، وهو قوله : وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ أي : من الذنوب فلا يعاقب عليها ، أو : عن كثير من النّاس ، فلا يعاجلهم بالعقوبة. وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «واللّه أكرم من أن يثنّى عليكم العقوبة فى الآخرة ، وما عفا عنه فاللّه أحلم من أن يعود فيه بعد عفوه» «٢» وقال ابن عطاء : من لم يعلم أنّ ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه ، وأن ما عفا عنه مولاه أكثر ، كان قليل النّظر فى إحسان ربه إليه. وقال محمد بن حامد : العبد ملازم للجنايات فى كلّ أوان ، وجناياته فى طاعته أكثر من جناياته فى معاصيه لأن جناية المعصية من وجه ، وجناية الطاعة من وجوه ، واللّه يطهّر العبد من جناياته بأنواع من المصائب ليخفّف عنه أثقاله فى القيامة ، ولو لا عفوه ورحمته لهلك فى أول خطوة.
وعن علىّ – كرم اللّه وجهه – : هذه أرجى آية للمؤمنين فى القرآن لأنّ الكريم إذا عاقب مرة لا يعاقب ثانيا ، وإذا عفا لا يعود. هـ. وقد تقدم حديثا. قال فى الحاشية الفاسية : قلت : وإنما يعفو فى الدنيا عما يشاء ، ويؤخر عقوبة من شاء إلى الآخرة ، فلا يلزم إبطال وعيد الآخرة. ثم الآية إما خاصة بالحدود ، أو بالمجرم المذنب ، وأما من لا ذنب له فما يصيبه من البلاء اجتباء وتخصيص ، لا تمحيص. هـ. قلت : لكلّ مقام ذنب ، حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فالتمحيص جار فى كلّ مقام ، وراجع ما تقدم عند قوله : لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ... «٣» وسيأتى عند قوله : وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ .. «٤» ما يبين هذا. واللّه أعلم

---

(١) قرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر (بما) بغير فاء ، على جعل (ما) فى ما أَصابَكُمْ موصولة ، مبتدأ ، و(بما كسبت) خبر ، وعلى جعلها شرطية ، تكون الفاء محذوفة ، نحو قوله تعالى : وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ ... – الآية ١٢١ من سورة الأنعام. وقرأ الباقون (فبما كسبت). ف (ما) شرطية ، أي : فهى بما كسبت ، أو موصولة ، والفاء تدخل فى حيز الموصول إذا أجرى مجرى الشرط. انظر : الحجة للفارسى ، (٦/ ١٢٩) والإتحاف (٢/ ٤٥٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (١/ ٨٥) والحاكم (٤/ ٣٨٨) وزاد السيوطي عزوه فى الدر المنثور (٥/ ٧٠٥) لابن راهويه ، وابن منيع ، وعبد بن حميد ، والحكيم الترمذي ، وأبى يعلى ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، عن سيدنا علىّ – كرم اللّه وجهه – .

(٣) من الآية ١١٧ من سورة التوبة.

(٤) من الآية ١٩ من سورة سيدنا محمد.

وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ أي : ما أنتم بفائتين ما قضى عليكم من المصائب ، وإن هجرتم فى أقطارها كل مهرب ، وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ متول يحميكم منها وَلا نَصِيرٍ يدفعها عنكم ، أو يدفع عذابه إن حلّ.

الإشارة : إذا كان العبد عند اللّه فى عين العناية أدّبه فى الدنيا ، ويبقى فى حال قربه ، وإذا كان عنده فى عين الإهمال أمهل عقوبته إلى دار البقاء ، وربما استدرجه بالنعم فى حال إساءته ، والعياذ باللّه من مكره. وإذا علم العبد أن ما يصيبه فى هذه الدار من الأكدار كلها تخليص وتمحيص لم يستوحش منها ، بل يفرح بها إذ هى علامة العناية ، وإذا كانت على أيدى النّاس ، لم يقابلهم بالانتصار ، بل يعفو ويصفح لعلمه أن ذلك زيارة وترقية. وقوله تعالى : وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ. هذا – واللّه أعلم – فى حق العامة ، وأما الخاصة فيشدد عليهم المحاسبة والتأديب ليرفع مقامهم ، ويكرم مثواهم.

ثم ذكر برهانا آخر على قدرته تعالى ، فقال :

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ٣٢ الى ٣٥]

وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥)

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْ آياتِهِ للدلالة على قدرته ووحدانيته الْجَوارِ «١» السفن الجارية فِي الْبَحْرِ

كَالْأَعْلامِ كالجبال إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ «٢» التي تجريها. وقرئ بالإفراد. فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ فيبقين ثوابت على ظهر البحر ، أي : غير جاريات لا غير متحركات أصلا ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ عظيمة فى أنفسها ، كثيرة فى العدد ، دلالة على باهر قدرته لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ لكلّ من حبس نفسه عن الهوى ، وصرف همته إلى النّظر فى آلائه ، أو : لكلّ صبّار على بلائه ، شكور لنعمائه ، أي : لكلّ مؤمن كامل فإن الإيمان نصفان : نصف شكر ، ونصف صبر لأن الإنسان لا يخلو من ضر يمسه ، أو نفع يناله ، فآداب

---

(١) هكذا فى الأصول ، وقد أثبت الياء فى (الجوار) وصلا نافع ، وأبو عمرو ، وأبو جعفر ، وفى الحالين ابن كثير ويعقوب. وقرأ الباقون بغير ياء. انظر الإتحاف (٢/ ٤٥٠)

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر «الرياح» بالجمع. وقرأ الجمهور (الريح) إفرادا.

الضر : الصبر ، وآداب النّفع : الشكر ، وأيضا : راكب السفن ملزوم ، إما للمشقة أو السلامة ، فالصبر والشكر لا زمان له.

ولم يعطف إحدى الصفتين على الأخرى لأنهما لموصوف واحد.

أَوْ يُوبِقْهُنَّ أي : يهلكهن ، عطف على قوله : يُسْكِنِ أي : إن يشأ يسكن الرّيح فيركدن ، أو يعصفها فيغرقن [بعصفها] «١» بِما كَسَبُوا من الذنوب. وإيقاع الإيباق عليهن مع أنه حال [أهلهن] «٢» للمبالغة والتّهويل ، وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ منها ، فلا يجازى عليها ، وإنما أدخل العفو فى حكم الإيباق ، حيث جزم جزمه لأن المعنى : أو إن يشأ يهلك ناسا وينج ناسا ، على طريق العفو عنهم. وقرئ : «ويعفو» «٣» على الاستئناف. وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا أي : فى إبطالها وردها ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ من مهرب من العذاب. والجملة معلقة بالنفي ، ومن نصب «يعلم» عطفه على علة محذوفة ، أي : لينتقم منهم وليعلم ، كما فى قوله : وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ «٤». وقيل غير ذلك. ومن رفعه «٥» فعلى الاستئناف. وقرئ بالجزم ، عطفا على : «يعف» ، فيكون المعنى :

أو إن يشأ يجمع بين إهلاك قوم وإنجاء آخرين وتحذير قوم.

الإشارة : ومن آياته الأفكار الجارية فى بحر التوحيد ، كالأعلام ، أي : أصحابها كالجبال الرّواسى ، لا يهزهم شيء من الواردات ولا غيرها ، إن يشأ يسكن رياح الواردات عن أسرارهم ، فيبقين رواكد على ظهر بحر الأحدية ، مستغرقين فى شهود الذات العلية ، أو يوبقهن بما كسبوا من سوء الأدب ، فيغرقن

فى الزندقة أو الحلول والاتحاد ، ويعف عن كثير ، ويعلم الذين يطعنون فى آياتنا الدالة علينا ما لهم من مهرب.

ثم زهّد فى الدنيا لأنها العائقة للأفكار ، عن الجري فى بحار الأسرار ، فقال :

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ٣٦ الى ٤٣]

فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)

وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)

---

(١) فى الأصول [بعضها] والمناسب ما أثبته ، وهو الذي فى تفسير النّسفى وأبى السعود.

(٢) فى الأصول [أهلها].

(٣) قرأ بها الأعمش ، انظر البحر المحيط ٧/ ٤٩٧.

(٤) من الآية ٢١ من سورة مريم.

(٥) وهى قراءة نافع وابن عامر ، وأبى جعفر. وقرأ الجمهور (و يعلم) بالنصب. انظر الإتحاف (٢/ ٤٥٠).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٢٣

يقول الحق جل جلاله : فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ مما ترجون وتتنافسون فيه فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا أي : فهو متاعها ، تتمتعون به مدة حياتكم ، ثم يفنى ، وَما عِنْدَ اللَّهِ من ثواب الآخرة خَيْرٌ ذاتا لخلوص نفعه ، وَأَبْقى زمانا لدوام بقائه. لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، و«ما» الأولى ضمّنت معنى الشرط ، فدخلت فى جوابها الفاء ، بخلاف الثانية. وعن علىّ رضي اللّه عنه : أن أبا بكر – رضي اللّه عنه – تصدّق بماله كله ، فلامه النّاس ، فنزلت الآية.

ثم قال تعالى : وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ أي : الكبائر من هذا الجنس. وقرأ الأخوان : (كبير الإثم). قال ابن عباس : هو الشرك ، وَيجتنبون الْفَواحِشَ وهى ما عظم قبحها ، كالزنى ونحوه ، وَإِذا ما غَضِبُوا من أمر دنياهم هُمْ يَغْفِرُونَ أي : هم الأخصّاء بالغفران فى حال الغضب ، فيحلمون ، ويتجاوزون.

وفى الحديث : «من كظم غيظه فى الدنيا ردّ اللّه عنه غضبه يوم القيامة» «١».

وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ أتقنوا الصلوات الخمس ، وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ أي : ذو شورى ، يعنى : لا ينفردون برأيهم حتى يجتمعون عليه. وعن الحسن : ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمورهم.

والشورى : مصدر ، كالفتيا ، بمعنى التشاور. وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ يتصدقون.

وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ الظلم هُمْ يَنْتَصِرُونَ ينتقمون ممن ظلمهم ، أي : يقتصرون فى الانتصار على ما حدّ لهم ، ولا يعتدون ، وكانوا يكرهون أن يذلّوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفسّاق ، فإذا قدروا عفوا ، وإنما حمدوا على الانتصار لأن من انتصر ، وأخذ حقه ، ولم يجاوز فى ذلك حدّ اللّه ، فلم يسرف فى القتل ، إن كان وليّ دم ، فهو مطيع للّه. وقال ابن العربي : قوله : وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ ... الآية ، ذكر الانتصار فى معرض

---

(١) أخرج الطبراني فى الأوسط (ح ١٣٢٠) عن أنس رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «من دفع غضبه دفع اللّه عنه عذابه» قال الهيثمي فى مجمع الزوائد (٨/ ٧٠) : فيه عبد السّلام بن هلال ، وهو ضعيف».

وأخرج أبو داود فى (الأدب ، باب فى كظم الغيظ ح ٤٧٧٧) والترمذي وحسّنه فى (البر والصلة ، باب فى كظم الغيظ ، ح ٢٠٢١) وابن ماجه فى (الزهد ، باب الحلم ، ح ٤١٨٦) عن معاذ بن أنس الجهني رضي اللّه عنه عن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم قال : «من كظم غيظا هو قادر على أن ينفذه ، دعاه اللّه على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، حتى يخيره فى أىّ الحور شاء».

المدح ، ثم ذكر العفو فى معرض المدح ، فاحتمل أن يكون أحدهما رافعا للآخر ، واحتمل أن يكون ذلك راجعا إلى حالين ، أحدهما : أن يكون الباغي معلنا بالفجور وقحا فى الجمهور ، ومؤذيا للصغير والكبير ، فيكون الانتقام منه أفضل ، وفى مثله قال إبراهيم النّخعى : يكره للمؤمنين أن يذلّوا أنفسهم ، فيجترئ عليهم الفسّاق. وإما أن تكون الفلتة ، أو يقع ذلك ممن يعترف بالزلة ، ويسأل المغفرة ، فالعفو هاهنا أفضل ، وفى مثله نزل : وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى «١» ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا الآية «٢».

هـ.

ثم بيّن حدّ الانتصار ، فقال : وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها ، فالأولى سيئة حقيقة ، والثانية مجازا للمشاكلة ، وفى تسميتها سيئة نكتة ، وهى الإشارة إلى أن العفو أولى ، والأخذ بالقصاص سيئة بالنسبة إلى العفو ،

ولذلك عقبه بقوله :

فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ بينه وبين خصمه بالتجاوز والإغضاء فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وهى عدة مبهمة لا يقادر قدرها ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ الذين يبدؤون بالظلم ، أو : يتجاوزون حدّ الانتصار. وفى الحديث : «ينادى مناد يوم القيامة : من كان له أجر على اللّه فليقم ، فلا يقوم إلا من عفا» «٣».

وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ أي : أخذ حقه بعد ما ظلم – على إضافة المصدر إلى المفعول – فَأُولئِكَ جمع الإشارة مراعاة لمعنى «من» ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ للمعاقب ولا للمعاتب إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ يبتدئونهم بالظلم ، وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ يتكبرون فيها ، ويعلون ، ويفسدون بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بسبب بغيهم وظلمهم. وفسّر السبيل بالتبعة والحجة.

وَلَمَنْ صَبَرَ على الظلم والأذى ، وَغَفَرَ ولم ينتصر ، أو : ولمن صبر على البلاء من غير شكوى ، وغفر بالتجاوز عن الخصم ، ولا يبقى لنفسه عليه دعوى ، بل يبرى خصمه من جهته من كلّ دعوى فى الدنيا والعقبى ، إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ أي : إن ذلك الصبر والغفران منه لمن عزم الأمور ، أي : من الأمور التي ندب إليها ، وعزم على فعلها ، أو : مما ينبغى للعاقل أن يوجبه على نفسه ، ولا يترخّص فى تركه. وحذف الرّاجع – أي : منه – كما حذف فى قولهم : السمن منوان بدرهم. وقال أبو سعيد القرشي : الصبر على المكاره من علامات الانتباه ، فمن صبر على مكروه أصابه ، ولم يجزع ، أورثه اللّه تعالى حال الرّضا ، وهو أصل الأحوال ومن جزع من المصيبات ، وشكى ، وكله إلى نفسه ، ثم لم تنفعه شكواه. هـ. وانظر تحصيل الآية فى الإشارة ، إن شاء اللّه.

قال ابن جزى : ويظهر لى أن هذه الآية إشارة إلى ذكر الخلفاء الرّاشدين – رضي اللّه عنهم – لأنه بدأ أولا بصفات أبى بكر الصدّيق ، ثم صفات عمر ، ثم صفات عثمان ، ثم صفات علىّ بن أبى طالب ، فأما صفات

---

(١) من الآية ٢٧٧ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٢٢ من سورة النّور. [.....]

(٣) عزاه فى اتحاف السادة المتقين ٧/ ٥٦١ لابن عساكر فى التاريخ ، من حديث علىّ رضي اللّه عنه.

أبى بكر ، فقوله : الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وإنما جعلنا هذه صفات أبى بكر ، وإن كان جميعهم

متصفا بها ، لأن أبا بكر كانت له مزية فيها لم تكن لغيره ، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان الأمة لرجح» «١» وقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «أنا مدينة الإيمان ، وأبو بكر بابها». وقال أبو بكر : «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا». والتوكّل إنما يقوى بقوة الإيمان.

وأما صفات عمر : فقوله وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ لأن ذلك هو التقوى ، وقد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم :

«أنا مدينة التقوى وعمر بابها» وقوله : وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ، وقوله : قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ نزلت فى عمر. وأما صفات عثمان فقوله : وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ لأن عثمان لمّا دعاه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إلى الإسلام بادر إليه ، وقوله : وَأَقامُوا الصَّلاةَ لأن عثمان كان كثير الصلاة بالليل ، وفيه نزلت :

أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ... الآية. «٢» وروى أنه كان يحيى الليل بركعة ، يقرأ فيها القرآن كله. وقوله : وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ لأن عثمان ولى الخلافة بالشورى ، وقوله : وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ لأن عثمان كان كثير النّفقة فى سبيل اللّه ، ويكفيك أنه جهز جيش العسرة.

وأما صفات علىّ فقوله : وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ لأنه لمّا قاتلته الفئة الباغية قاتلها ، انتصارا للحق ، وانظر كيف سمى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم المقاتلين لعلىّ الفئة الباغية ، حسبما ورد فى الحديث الصحيح ، أنه قال لعمّار : «ويح عمّار ، تقتله الفئة الباغية» «٣» وذلك هو البغي الذي أصابه. وقوله : فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إشارة إلى فعل الحسن بن علىّ ، حين بايع معاوية ، وأسقط حق نفسه ، ليصلح أحوال المسلمين ، ويحقن دماءهم. قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فى الحسن : «إنّ ابني هذا سيّد ، وسيصلح اللّه به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» «٤». وقوله : وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إشارة إلى انتصار الحسين بعد موت

---

(١) أخرجه البيهقي فى الشعب (ح ٣٦) وابن أبى شيبة فى الإيمان (١٠٨) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه موقوفا.

وقال فى كشف الخفاء (٢/ ٢٣٤) : (أخرجه ابن عدى والديلمي ، كلاهما عن ابن عمر ، مرفوعا ، بلفظ : «لو وضع إيمان أبى بكر على إيمان هذه الأمة لرجح بها». وفى سنده «عيسى بن عبد اللّه» ضعيف ، لكن يقويه ما أخرجه ابن عدى أيضا من طريق أخرى بلفظ : «لوزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجحهم» وله شاهد أيضا فى السنن عن أبى بكرة ، مرفوعا : أن رجلا قال : رأيت يا رسول اللّه! كأنّ ميزانا نزل من السماء فوزنت أنت وأبو بكر ، فرجحت أنت ، ثم وزن أبو بكر بمن بقي فرجح ..» الحديث.

قلت : حديث أبى بكرة ، أخرجه أبو داود فى (السنة ، باب فى الخلفاء ، ح ٤٦٣٤) والترمذي فى

(الرؤيا ، باب ما جاء فى رؤيا النبي صلّى اللّه عليه وسلم الميزان والدلو ، ح ٢٢٨٧) وقال : «حسن صحيح» وعندهما : «ووزن عمر وأبو بكر ، فرجح أبو بكر ...».

(٢) الآية ٩ من سورة الزمر.

(٣) أخرج البخاري فى (الصلاة ، باب التعاون فى بناء المسجد ، ح ٤٤٧) عن أبى سعيد ، قال – وهو يحدث عن بناء المسجد – : كنا نحمل لبنة لبنة ، وعمار لبنتين لبنتين ، فرآه النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، فينفض التراب عنه ، ويقول : «ويح عمار ، تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ، ويدعونه إلى النّار» قال : يقول عمار : أعوذ باللّه من الفتن.

(٤) أخرجه البخاري فى (الصلح ، باب قول النّبى صلّى اللّه عليه وسلم للحسن بن علىّ رضي اللّه عنهما : إن هذا سيد ، ح ٢٧٠٤) من حديث أبى بكرة رضي اللّه عنه.

(٢٢٥/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٢٦

أخيه ، وطلبه للخلافة ، وانتصاره من بنى أمية. وقوله : إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ إشارة إلى بنى أمية ، فإنهم استطالوا على النّاس ، كما فى الحديث : «إنهم جعلوا عباد اللّه خولا ، ومال اللّه دولا ، فيكفيك من ظلمهم أنهم كانوا يلعنون علىّ بن أبى طالب على منابرهم. وقوله : وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إشارة إلى صبر أهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه وسلم على ما نالهم من الضر والذل ، طول مدة بنى أمية. «١» هـ.

الإشارة : قوله تعالى : فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا أي : وينقص من درجاتكم فى الآخرة بقدر ما تمتعتم به ، كما فى الخبر ، ولذلك زهّد فيه بقوله : وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى .. الآية ، أي : وما عند اللّه من الثواب الموعود خير من هذا القليل الموجود. وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ هى أمراض القلوب ، كالحسد والكبر والرّياء وغيرها ، وَالْفَواحِشَ هى معاصى الجوارح كالزنا وغيره. وقوله تعالى : وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ لم يقل الحق تعالى : والذين لم يغضبوا لأن الغضب وصف بشرى ، لا ينفك عنه مخلوق ، فالمطلوب المجاهدة فى دفعه ، وردّ ما ينشأ عنه ، لا زواله من أصله ، فعدم وجوده فى البشر أصلا نقص ، ولذلك قال الشافعي رضي اللّه عنه : «من استغضب ولم يغضب فهو حمار» فالشرف هو كظمه بعد ظهوره ، لا زواله بالكلية.

وقوله تعالى : وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ قال القشيري : المستجيب لربه هو الذي لا يبقى له نفس إلا على موافقة رضاه ، ولا يبقى لهم منه بقية ، وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ أي : لا يستبدّ [أحدهم] «٢» برأى ، ويتّهم رأيه وأمره ، ثم إذا أراد القطع توكّل على اللّه. هـ.

وحاصل ما اشتملت عليه الآية فى رد الغضب : أربع مقامات الأول : قوم من شأنهم الغفران مطلقا ، قدروا أو عجزوا ، لا يتحركون فى الانتصار قط ، وهو قوله تعالى : وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ والثاني : قوم قادرون على إنفاذ الغضب ، فتحركوا فى الانتصار ، ثم عفوا بعد الاقتدار ، وهذا قوله : وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ، ثم قال : فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ. والثالث : قوم قدروا وانتصروا ، وأخذوا حقهم ، لكن وقفوا عند ما حدّ لهم ، وهو قوله : وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ .. الآية. والرّابع : قوم ظلموا ، فعفوا ، وزادوا الإحسان إلى من أساء إليهم ، والدعاء له بالمغفرة ، حتى يصير مرحوما بهم ، وهى رتبة الصدّيقية ، أن ينتفع بهم أعداؤهم ، وهو قوله تعالى :
وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ، ولذلك جعل اللّه هذا القسم من عزم الأمور.

---

(١) على هامش النّسخة الأم مايلى : قلت : هذا التفسير الذي نقله عن ابن جزى باطل ، يجل كلام اللّه تعالى عنه ، والأحاديث التي ذكرها كلها موضوعة ، ما عدا : «لو وزن إيمان أبى بكر ..» وما عدا حديث : أنا مدينة العلم ، وعلىّ بابها.
(٢) ما بين المعقوفتين مستدرك من لطائف الإشارات.

وعند الصوفية : ثلاث طبقات : العامة ينتصرون ، والخاصة لا ينتصرون ، لكن يرفعون أمرهم إلى اللّه فى أخذ حقهم من ظالمهم ، وخاصة الخاصة يحسنون لمن أساء إليهم ، كما تقدم. وقال القشيري : وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ وهو الظلم ، ينتصرون لعلمهم أن الظلم أصابهم من قبل أنفسهم ، فينتصرون من الظالم ، وهو النّفس ، ويكبحون عنانها من الرّكض فى ميدان المخالفة. ثم قال : قوله : وَلَمَنِ انْتَصَرَ .. الآية ، علم اللّه أنّ من عباده من لا يجد الحرية من أحكام النّفس ، ولا يستمكن من محاسن الخلق ، فرخّص لهم فى المكافأة على سبيل العدل والقسط ، وإن كان الأولى بهم الصفح والعفو. هـ.
ثم ذكر وبال الظلم وعقوبته ، فقال :
[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ٤٤ الى ٤٨]
وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤) وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ (٤٥) وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ

يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ (٤٨)

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ أي : فما له من أحد يلى هدايته من بعد إضلال اللّه إياه ، ويمنعه من عذابه. وَتَرَى الظَّالِمِينَ يوم القيامة ، وهم الذين أضلهم اللّه ، لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ حين يرون العذاب ، وأتى بصيغة الماضي للدلالة على تحقيق الوقوع ، يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ رجعة إلى الدنيا مِنْ سَبِيلٍ حتى نؤمن ونعمل صالحا.

(٢٢٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٢٨

وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها على النّار ، يدلّ عليها ذكر العذاب. والخطاب لكلّ من يتأتى منه الرّؤية خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ متذللين متضائلين مما دهاهم ، فالخشوع : خفض البصر وإظهار الذل ، يَنْظُرُونَ إلى النار مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ضعيف بمسارقة ، كما ترى المصبور ينظر إلى السيف عند إرادة قتله. وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ بالتعرض للعذاب الخالد يَوْمَ الْقِيامَةِ ، و«يوم» : متعلق بخسروا. وقول المؤمنين واقع فى الدنيا. ويقال ، أي : يقولونه يوم القيامة ، إذا رأوهم على تلك الصفة : أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ دائم ، وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ برفع العذاب عنهم مِنْ دُونِ اللَّهِ حسبما كانوا يرجون ذلك فى الدنيا ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ إلى النّجاة.

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ إلى ما دعاكم إليه على لسان نبيه ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ أي : يوم القيامة لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ أي : لا يرده اللّه بعد ما حكم بمجيئه ، ف «من» متعلق ب «لا مرد» ، أو : ب «يأتى» أي : من قبل أن يأتى من اللّه يوم لا يقدر أحد على رده ، ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ أي : مفر تلتجئون إليه ، وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ أي : وليس لكم إنكار لما اقترفتموه لأنه مدون فى صحائف أعمالكم ، وتشهد عليكم جوارحكم.

فَإِنْ أَعْرَضُوا عن الإيمان فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً رقيبا ، تحفظ أعمالهم ، وتحاسبهم ، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ ما عليك إلا تبليغ الرّسالة ، وقد بلغت ، وليس المانع لهم من الإيمان عدم التبليغ ، وإنما المانع :

الطغيان وبطر النّعمة ، كما قال تعالى : وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً أي : نعمة من الصحة ، والغنى ، والأمن ، فَرِحَ بِها وقابلها بالبطر ، وتوصل بها إلى المخالفة والعصيان. وأريد بالإنسان الجنس ، لقوله تعالى :

وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ، بلاء ، من مرض ، وفقر ، وخوف ، بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ بليغ الكفر ، ينسى النّعمة رأسا ، ويذكر البلية ، ويستعظمها ، بل يزعم أنها أصابته من غير استحقاق.

وأفرد الضمير فى (فرح) مراعاة للفظ ، وجمعه فى «تصبهم» مراعاة للمعنى. وإسناد هذه الخصلة إلى الجنس مع كونها من خواص الجنس ، لغلبتها فيهم. وتصدير الشرطية الأولى بإذا ، مع إسناد الإذاقة إلى نون العظمة للتنبيه على أن إيصال الرّحمة محقق الوجود ، كثير الوقوع ، وأنه مراد بالذات ، كما أن تصدير الثانية بأن ، وإسناد الإصابة إلى السيئة ، وتعليلها بأعمالهم للإيذان بندرة وقوعها ، وأنها غير مرادة بالذات ، «إن رحمتى سبقت غضبى». ووضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النّعم. قاله أبو السعود.

الإشارة : من تنكبته العناية السابقة ، وأدركته الغواية اللاحقة ، لم ينفع فيه وعظ ولا تذكير ، وليس له من عذاب اللّه ولىّ ولا نصير ، فإذا تحققت الحقائق ، وطلب الرّجوع ، لم يجد له سبيلا ، وبقي فى الهوان خاشعا ذليلا ، فيعيرهم

(٢٢٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٢٩

من سبقت لهم العناية ، من أهل الجد والتشمير ، ويقولون : هؤلاء الذين خسروا أنفسهم ، حيث لم يتعبوها فى مرضاة اللّه ، وأهليهم ، حيث لم يذكّروهم اللّه.

قال القشيري : قوله تعالى : اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ بالوفاء بعهده ، والقيام بحقّه ، والرّجوع من مخالفته إلى موافقته ، والاستسلام فى كلّ وقت لحكمه والطريق اليوم إلى الاستجابة مفتوح ، وعن قريب سيغلق الباب على القلب بغتة ، ويؤخذ فلتة. هـ. ويقال لكلّ واعظ وداع : فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ... الآية.

ثم بيّن وجه ما تقدم ، من أن الأمور كلها بيده ، هداية وإضلالا ، وإنعاما وابتلاء ، فقال :

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ٤٩ الى ٥٠]

لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)

يقول الحق جل جلاله : لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : يملك التصرف فيهما ، وفى كلّ ما فيهما ، كيف يشاء ، ومن جملته : أن يقسم النّعمة والبلية ، حسبما يريده. يَخْلُقُ ما يَشاءُ مما يعلمه الخلق ومما لا يعلمونه ، يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً من الأولاد وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ منهم ، من غير أن يكون لأحد فى ذلك مدخل ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ أي : يقرن بين الصنفين ، ويهبهما جميعا ذُكْراناً وَإِناثاً ، بأن تلد

غلاما ثم جارية ، أو تلدهما معا. وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً لا نسل له. والعقيم : الذي لا يولد له ، رجل أو امرأة.

وقدّم الإناث أولا على الذكور لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء ، لا ما يشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهمّ ، أو : لأن الكلام فى البلاء ، والعرب تعدهن عظيم البلايا ، أو : تطييب قلوب آبائهم ، ولمّا أخّر الذكور – وهم أحقاء بالتقديم – تدارك ذلك بتعريفهم لأن التعريف تنويه وتشريف ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين ما يستحقه من التقديم والتأخير ، فقال : ذُكْراناً وَإِناثاً. وقيل المراد : أحوال الأنبياء – عليهم السّلام – حيث وهب لشعيب ولوط إناثا ، ولإبراهيم ذكورا ، وللنبى صلّى اللّه عليه وسلم ذكورا وإناثا ، وجعل يحيى وعيسى عقيمين.

إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ مبالغ فى العلم والقدرة ، فيفعل ما فيه حكمة ومصلحة.

الإشارة : يهب لمن يشاء إناثا ، علوما وحسنات ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أذواقا وواردات ، ويجعل من يشاء عقيما ، لا علم ولا ذوق ، وانظر لطائف المنن «١». أو تقول : يهب لمن يشاء إناثا من ورّث علم الرّسوم الظاهر ،

---

(١) للشيخ أحمد بن عطاء السكندرى. باب تبيان معنى آيات كتاب اللّه تعالى ص ١٦٦.

وأقيمت بعده ، ويهب لمن يشاء الذكور من ورّث علم الأذواق والوجدان ، وعمّر رجالا ، أو يزوجهم من ورثهما ، ويجعل من يشاء عقيما لم يترك وارثا ، لا من الظاهر ، ولا من الباطن ، وقد يكون كاملا وهو عقيم ، وقد يكون غير كامل وله أولاد كثيرة ، لكن الغالب على من له أولاد أن يتسع بهم ، بخلاف العقيم. واللّه تعالى أعلم.

ثم قرر عظمة ملكه ، فقال :

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ٥١ الى ٥٣]

وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلا الْإِيمانُ وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣)

يقول الحق جل جلاله : وَما كانَ لِبَشَرٍ أي : ما صحّ لأحد من البشر أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ بوجه من الوجوه إِلَّا

وَحْياً إلهاما ، كقوله عليه الصلاة والسّلام : «ألقى فى روعى» «١» أو : رؤيا فى المنام لقوله صلّى اللّه عليه وسلم :

«رؤيا الأنبياء وحي» «٢» كأمر إبراهيم عليه السّلام بذبح الولد ، وكما أوحى إلى أم موسى ، روى عن مجاهد : «أوحى اللّه الزبور إلى داود عليه السّلام – فى صدره». أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ بأن يسمع كلاما من اللّه ، من غير رؤية السامع من يكلّمه ، كما سمع موسى عليه السّلام من الشجرة ، ومن الفضاء فى جبل الطور ، وليس المراد به حجاب اللّه تعالى على عبده حسا إذ لا حجاب بينه وبين خلقه حسا ، وإنما المراد : المنع من رؤية الذات بلا واسطة.

أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا أو : بأن يرسل ملكا فَيُوحِيَ الملك بِإِذْنِهِ بإذن اللّه تعالى وتيسيره ما يَشاءُ من الوحى.

وهذا هو الذي يجرى بينه تعالى وبين أنبيائه فى عامة الأوقات. روى : أن اليهود قالت للنبى صلّى اللّه عليه وسلم : ألا تلكم اللّه ، وتنظر إليه إن كنت نبيا ، كما كلمه موسى ، ونظر إليه؟ فقال صلّى اللّه عليه وسلم : «لم ينظر موسى إلى اللّه تعالى» فنزلت «٣».

---

(١) ورد : «إن روح القدس نفث فى روعى أنّ نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها ، وتستوعب رزقها ...» الحديث. أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١٠/ ٢٧) من حديث أبى أمامة رضي اللّه عنه. وجاءت كلمة «ألقى فى روعى» بنصها عن أبى سعيد الخدري فى حديث الرّقية بالفاتحة ، ذلك عند ما قال الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم : «وما يدريك أنها رقية»؟ فقال أبو سعيد : ألقى فى روعى». الحديث أخرجه أحمد (٣/ ٥٠).

(٢) أخرجه البخاري فى (الوضوء ، باب التخفيف فى الوضوء ، ١٣٨) عن عبيد بن عمير (تابعي) موقوفا ، وقال الحافظ ابن حجر فى فتح الباري (١/ ٢٨٩) : «رواه مسلم مرفوعا».

(٣) قال الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف (ص ١٤٦) : «لم أجده».

والذي عليه جمهور المحققين أن نبينا عليه الصلاة والسّلام رأى ربه ليلة المعراج ، وكلّمه مشافهة ، وعليه حمل البيضاوي قوله تعالى : إِلَّا وَحْياً لأن الوحى هو : الكلام الخفي ، المدرك بسرعة ، أعم من أن يكون مشافهة أو غيرها.

قال الطيبي : وإذا حمل الوحى على ما قاله البيضاوي ، وأنه المشافهة ، المعنى بقوله : فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى

«١» اتجه ترتيب الآية ، وأنه ذكر أولا الكلام بلا واسطة ، بل مشافهة ، وهو حال نبينا صلّى اللّه عليه وسلم ، ثم ذكر ما كان بغير واسطة ، ولكن لا بمشافهة ، بل من وراء الغيب ، ثم ذكر الكلام بواسطة الإرسال «٢». هـ. بالمعنى.

إِنَّهُ عَلِيٌّ متعال عن صفات المخلوقين ، لا يتأتى جريان المفاوضة بينه تعالى وبينهم إلا بأحد الوجوه المذكورة ، ولا تكون المكافحة إلا بالغيبة عن حس البشرية ، حَكِيمٌ يجرى أفعاله على سنن الحكمة ، فيكلم تارة بواسطة ، وأخرى بدونها ، مكافحة ، أو غيرها.

وَكَذلِكَ أي : ومثل ذلك الإيحاء البديع – كما وصفنا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا وهو القرآن ، الذي هو للقلوب بمنزلة الرّوح للأبدان ، فحييت الحياة الأبدية. ما كُنْتَ تَدْرِي قبل الوحى مَا الْكِتابُ أىّ شىء هو ، وَلَا الْإِيمانُ بما فى تضاعيف الكتاب من الأمور التي لا تهتدى إليها العقول ، لا الإيمان بما يستقل به العقل والنّظر ، فإنّ درايته صلّى اللّه عليه وسلم مما لا ريب فيه قطعا. قال القشيري : ما كنت تدرى قبل هذا ما القرآن ولا الإيمان بتفصيل هذه الشرائع. وقال الشيخ البكري : أي الإيمان على الوجه الأخص ، المرتب على تنزلات الآيات ، وتلاوة البينات ، واستكشاف وجه الحق بأنوار العلم المنزل على قلبه من حضرة ربه. هـ.

وقال ابن المنير : الإيمان برسالة نفسه ، وهو المنفي عنه قبل الوحى لأن حقيقة الإيمان التصديق باللّه وبرسوله. هـ.

وَلكِنْ جَعَلْناهُ أي : الروح الذي أوحيناه إليك نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ هدايته مِنْ عِبادِنا ، وهو الذي يصرف اختياره نحو الاهتداء به. وَإِنَّكَ لَتَهْدِي بذلك النّور من نشاء هدايته ، أو : وإنك لتدعو إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

---

(١) الآية : ١٠ من سورة النّجم.

(٢) على هامش النّسخة الأساسية مايلى :

وعلى كلام البيضاوى يختل نظام القرآن المعجز ببلاغته ، إذ معناه : وما كان لبشر أن يكلمه اللّه إلا كلاما مواجهة أو من وراء حجاب .. إلخ ، وهذا غير معقول صدوره من بلغاء البشر ، فضلا عن كلام اللّه ، فأعجب للطيبى وللمؤلف ، ولكلّ من أمره على هذا المعنى المختل. هـ.

هو الإسلام وسائر الشرائع والأحكام ، صِراطِ اللَّهِ بدل من الأول ، وإضافته إلى الاسم الجليل ، ثم

وصفه بقوله تعالى : الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لتفخيم شأنه ، وتقرير استقامته ، وتأكيد وجوب سلوكه فإن كون جميع ما فيهما من الموجودات له تعالى ، خلقا ، وملكا ، وتصرفا ، مما يوجب ذلك أتم الإيجاب. أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ أي : الأمور قاطبة راجعة إليه ، لا إلى غيره ، فيتصرف فيها على وفق حكمته ومشيئته.

الإشارة : قد تحصل للأولياء المكالمة مع الحق تعالى بواسطة تجلياته ، فيسمعون خطابه تعالى من البشر والحجر ، أو بلا واسطة ، بحيث يسمعون الكلام من الفضاء ، وإليه أشار الشيخ أبو الحسن رضي اللّه عنه بقوله : «وهب لنا مشاهدة تصحبها مكالمة» ، ولا تكون هذه الحالة إلا للأكابر من أهل الفناء والبقاء. وأما مكالمة الحق من النّور الأقدس ، بلا واسطة ، فهو خاص نبينا صلّى اللّه عليه وسلم ليلة الإسراء. قال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرّحمن الفاسى رضي اللّه عنه :

والذي عندى أن التكلم على المكافحة والمشافهة إنما يكون بالانخلاع عن البشرية ، ومحوها ، والبقاء بصفات الربوبية ، وذلك إشارة إلى أنه – عليه السّلام – إنما شوفه وكلّم بعد العروج عن أرض الطبيعة إلى سماء الحقيقة ، وكان بالأرض يكلم بالواسطة ، وموسى كلّم بغير واسطة ، ولكن بغير مشافهة ، ولذلك كان كلامه بالأرض ، ولم يعط الرؤية لأنها لا تكون فى الأرض ، أي : فى أرض البشرية بل لا بد من الغيبة عنها. وذهب الورتجبي إلى أن الحصر فيما ذكر فى الآية إنما هو لمن كان فى حجاب البشرية ، فأما من خرج عنها إلى الغيب ، وألبس نور القرب وكحّل عينه بنوره تعالى ، ومدّ سمعه بقوة الرّبوبية ، فإنه يخاطب كفاحا وعيانا. ونقل مثل ذلك عن الواسطي ، فراجع بسطه فيه.

والفرق بينه وبين ما ذكرنا : أن خطاب المكافحة عنده خارجة من الثلاثة المذكورة فى الآية ، وعندنا داخلة فى قوله : إِلَّا وَحْياً لأنه أعم من المشافهة ، واللّه أعلم.

وقوله تعالى : وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أي : طريق الوصول والترقي أبدا ، فيؤخذ منه : أن وساطته صلّى اللّه عليه وسلم لا تنقطع عن المريد أبدا لأن الترقي يكون باستعمال أدب العبودية ، وهى مأخوذه عنه صلّى اللّه عليه وسلم ، وكما أن الترقي لا ينقطع فالأدب – الذي هو سلوك طريقته صلّى اللّه عليه وسلم لا ينقطع. واللّه تعالى أعلم ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وسلم.

(٢٣٢/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٣٣

سورة الزّخرف

مكية. وهى تسع وثمانون آية. ومناسبتها لما قبلها قوله : ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ ... «١» إلخ ، مع قوله :

وَالْكِتابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا ، فإنه تتميم له.

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (١) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤)

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (٥)

يقول الحق جل جلاله : حم يا محمد ، وَحق الْكِتابِ الْمُبِينِ أي : المبين لما أنزل عليهم ، لكونه بلغتهم ، وعلى أساليبهم ، أو : الموضّح لطريق الهدى من الضلالة ، أو : المبيّن لكلّ ما تحتاج إليه الأمة فى أبواب الديانة. وجواب القسم : إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا بلغتكم لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أي : جعلنا ذلك الكتاب قرآنا عربيا لكى تفهموه ، وتحيطوا بما فيه من النّظم الرّائق ، والمعنى الفائق ، وتقفوا على ما تضمنه من الشواهد القاطعة بخروجه عن طوق البشر ، وتعرفوا حق النّعمة فى ذلك ، فتنقطع أعذاركم بالكلية.

وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا أي : وإن القرآن العظيم مثبت عند اللّه فى اللوح المحفوظ ، دليله قوله تعالى :

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ «٢». وسمّى أمّ الكتاب لأنه أصل الكتب السماوية ، منه تنقل وتنسخ. وقوله تعالى : لَعَلِيٌّ خبر" إن" أي : إنه رفيع القدر بين الكتب ، شريف المنزلة لكونه معجزا من بينها. أو : فى أعلى طبقات البلاغة. حَكِيمٌ ذو حكمة بالغة ، . أو : محكم ، لا ينسخه كتاب.

وبعد ما بيّن علو شأنه ، وبيّن أنه أنزله بلغتهم ليعلموه ، ويؤمنوا به ، ويعملوا بما فيه ، عقّب ذلك بإنكار أن يكون الأمر بخلافه ، فقال : أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ أي : ننحيه ونبعده. والضرب : مجاز ، من قولهم : ضرب الغرائب

---

(١) الآية ٥٢ من سورة الشورى. [.....]

(٢) الآيتان : ٢١ – ٢٢ من سورة البروج.

عن الحوض «١». وفيه إشعار باقتضاء الحكمة توجيه الذكر إليهم ، وملازمته لهم ، كأنه يتهافت عليهم ثم يضربه عنهم. والفاء : للعطف على محذوف ، أي : أنهملكم فنضرب عنكم الذكر صَفْحاً أي :

إعراضا ، مصدر ، من :
صفح عنه : إذا أعرض ، منصوب على أنه مفعول له ، على معنى : أفنعزل عنكم إنزال القرآن ، وإلزام الحجة به إعراضا عنكم. ويجوز أن يكون مصدرا مؤكدا لما دلّ عليه «نضرب» لأنه فى معنى الصفح ، كأنه قيل : أفنفصح صفحا أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ ، أي : لأن كنتم منهمكين فى الإسراف ، مصرّين عليه لأن حالكم اقتضى تخيلتكم وشأنكم ، حتى تموتوا على الكفر والضلالة ، فتبقوا فى العذاب الخالد ، لكن بسعة رحمتنا لا نفعل ذلك ، بل نهديكم إلى الحق ، بإرسال الرّسول الأمين ، وإنزال الكتاب المبين.
ومن قرأ بالكسر «٢» فشرط حذف جوابه لدلالة ما قبله عليه ، وهو من الشرط الذي يصدر عن الجازم بصحة الأمر ، كما يقول الأجير : إن كنت عملت لك فوفّنى حقى ، وهو عالم بذلك. وعبّر ب «أن» إخراجا للمحقق مخرج المشكوك لاستهجالهم «٣» ، كأن الإسراف من حقه ألا يقع.
الإشارة : (حم) أي : حببناك ، ومجدناك ، وملكناك ، وحق الكتاب المبين. ثم استأنف فقال : (إنا جعلناه) أي :
ما شرفناك به أنت وقومك (قرآنا عربيا) يفهمه من يسمعه (لعلكم تعقلون) عن اللّه ، فتشكروا نعمه. (و إنه فى أمّ الكتاب) أي : وإن الذي شرفناكم به فى أمّ الكتاب. قال الورتجبي : أي : إنه صفتى ، كان فى ذاته «٤» منزها عن النقائص والافتراق – أي : منزها عن الحروف والأصوات ، التي من شأنها التغير ، وعن التقديم والتأخير ، وهو افتراق كلماته. إذ هما من صفات الحدث. وأم الكتاب عبارة عن [ذاته القديم ، لأنها] «٥» أصل جميع الصفات ، (لدينا) معناه : ما ذكرنا أنه فى أمّ الكتاب عندنا (لعلىّ) علا عن أن يدركه أحد بالحقيقة ، ممتنع من انتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، (حكيم) محكم مبين. وقال جعفر : علىّ عن درك العباد وتوهمهم ، حكيم فيما دبّر وأنشأ وقدّر. هـ.
فانظره ، فإنّ هذه من صفات الحق ، والكلام فى أوصاف القرآن.
وقوله تعالى : أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً ... الآية ، قال القشيري : وفى هذه إشارة لطيفة ، وهو : ألا يقطع الكلام عمّن تمادى فى عصيانه ، وأسرف فى أكثر شأنه ، [فأحرى] «٦» أن من لم يقصّر فى إيمانه ، أو تلطّخ

---

(١) الغرائب : جمع غريبة ، وهى الإبل الغريبة عن إبل صاحب الحوض.
(٢) قرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر «إن كنتم» بكسر الهمزة ، على أنها شرطية. وقرأ الباقون بالفتح على العلة. انظر الإتحاف (٢/ ٤٥٣).
(٣) فى الأصول (لاستهجانهم) والمثبت من تفسير أبى السعود.
(٤) فى الورتجبي [ذاتى].

(٥) فى الورتجبي : [ذات القدم لأنه].
(٦) فى الأصول [أرجو].

(٢٣٤/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٣٥
بعصيانه ، ولم يدخل خلل فى عرفانه ، فإنه لا يمنع عنه رؤية لطائف غفرانه. هـ. يعنى : أن الحق جل جلاله لم يقطع كلامه عمن تمادى فى ضلاله ، فكيف يقطع إحسانه عمن تمسك بإيمانه ، ولو أكثر من عصيانه. وكذلك أهل النّسبة التصوفية ، إذا اعوجّ أخوهم ، لا يقطعون عنه كلامهم وإحسانهم ، بل يلاطفونه ، حتى يرجع ، وهذا مذهب الجمهور.
ثم سلّى نبيه بمن قبله ، فقال :
[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٦ الى ٨]
وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٧) فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨)
يقول الحق جل جلاله : وَكَمْ أَرْسَلْنا أي : كثيرا أرسلنا قبلك مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ فى الأمم الماضية فكذّبوهم واستهزءوا بهم. وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ، فاصبر كما صبروا. ويحتمل أن يكون تقريرا لما قبله لبيان أن إسراف الأمم السابقة لم يمنعه تعالى من إرسال الرّسل إليهم ، وكونها تسلية للرسول صلّى اللّه عليه وسلم أظهر. فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً أي : فأهلكنا من الأمم السالفة من كان أكثر منهم طغيانا وإسرافا ، وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ أي : سلف فى القرآن غير مرة ذكر قصة الأولين ، وهى عدة له صلّى اللّه عليه وسلم ، ووعيد لقومه ، بطريق الأولوية. فمثل ما جرى على الأولين يجرى على هؤلاء لاشتراكهم فى الوصف. وظاهر الآية : أن النبي والرّسول واحد ، والمشهور : أن النّبى أعم ، ف كل رسول نبى ، ولا عكس ، فالنبى مقصور فى الحكم على نفسه ، والرّسول نبيّ مكلف بالتبليغ.
الإشارة : ما سليت به الأنبياء والرّسل يسلّى به الأولياء لأنهم خلفاؤهم ، ف كل من أوذى واستهزئ به يتذكر ما جرى على من كان أفضل منه من الأنبياء وأكابر الأولياء ، فيخف عليه الأذى. وباللّه التوفيق.
ثم ذكر إقرارهم بوجود الصانع ، فقال :
[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٩ الى ١٤]
وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ (١٢)

لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣)
وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤)

(٢٣٥/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٣٦
يقول الحق جل جلاله : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ أي : المشركين مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ أي : ينسبون خلقها إلى من هذا وصفه فى نفس الأمر لا أنهم يعبّرون عنه بهذا العنوان. واختار هذين الوصفين للإيذان بانفراده بالإبداع والاختراع والتدبير لأن العزة تؤذن بالغلبة والاقتدار ، والعلم يؤذن بالتدبر والاختيار ، وليرتب عليه ما يناسبه من الأوصاف ، وهو قوله : الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً «١» أي :
موضع قرار كالمهد المعلق فى الهواء ، وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا تسلكونها فى أسفاركم لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ أي : لكى تهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم ، أو : بالتدبر فيها إلى توحيد ربكم ، الذي هو المقصد الأصلى.
وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ بمقدار يسلم معه العباد ، وتحتاج إليه البلاد ، على ما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ، فَأَنْشَرْنا بِهِ أي : أحيينا بذلك الماء بَلْدَةً مَيْتاً خاليا عنه الماء والنّبات. وقرئ : «ميّتا» بالتشديد «٢». وتذكيره لأن البلدة بمعنى البلد. والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء والإشعار بعظيم خطره ، كَذلِكَ تُخْرَجُونَ أي : مثل ذلك الإحياء ، الذي هو فى الحقيقة : إخراج النّبات من الأرض ، تخرجون من قبوركم أحياء. وفى التعبير عن إخراج النّبات بالإنشاء ، الذي هو إحياء الموتى ، وعن إحيائهم بالإخراج تفخيم لشأن الإنبات ، وتهوين لأمر البعث ، لتقويم سنن الاستدلال ، وتوضيح منهاج القياس.
وهذه الجمل ، من قوله الَّذِي جَعَلَ ... : استئناف منه تعالى ، وليست من مقول الكفار لأنهم ينكرون الإخراج من القبور ، بل الآية حجة عليهم فى إنكار البعث ، وكذا قوله : وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها ، أي :
أصناف المخلوقات بحذافيرها ، على اختلاف أنواعها وألوانها. وقيل : الأزواج : ما كان مزدوجا ، كالذكر والأنثى ، والفوق والتحت ، والأبيض والأسود ، والحلو والحامض ، وقيل : كل ما ظهر من الغيب فهو مزدوج. والفرد هو اللّه.

---

(١) أثبت المفسر قراءة : «مهادا» بكسر الميم وفتح الهاء ، وألف بعدها ، وهى قراءة نافع وابن كثير

وأبى عمرو ، وابن عامر. وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : «مهدا» بفتح الميم وسكون الهاء ، مع القصر.

(٢) وبذلك قرأ أبو جعفر .. انظر الإتحاف (٢/ ٤٥٤).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٣٧

وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ أي : ما تركبونه ، يقال : ركبوا فى الفلك ، وركبوا الأنعام ، فغلب المتعدّى بغير واسطة لقوته [على] «١» المتعدى بواسطة ، فقيل : تركبونه.

لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ : ولتستعلوا على ظهور ما تركبونه من الفلك والأنعام ، ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ تذكروها بقلوبكم ، معترفين بها بألسنتكم ، مستعظمين لها ، ثم تحمدوا عليها بألسنتكم ، وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا أي : ذلّل لنا هذا المركوب ، متعجبين من ذلك وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ مطيقين. يقال : أقرن الشيء : إذا أطاقه ، وأصله : وجده قرينه لأن الصعب لا يكون قرينا للضعيف إلا إذا ذللّه اللّه وسهّله ، وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ أي : راجعون. وفيه إيذان بأن حق الرّاكب أن يذكر عند ركوبه مركب الدنيا ، آخر مركبه منها ، وهو : الجنازة فيبنى أموره فى مسيره على تلك الملاحظة ، حتى لا يخطر بباله شيء من زينة الدنيا ، وملاهيها وأشغالها.

وعن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم «أنه كان إذا وضع رجله فى الرّكاب ، قال : «بسم اللّه» فإذا استوى على الدابة قال : الحمد للّه الذى سخر لنا هذا ... إلى : لَمُنْقَلِبُونَ ، ثم كبّر «ثلاثا ، وهلل ثلاثا ، ثم قال : «اللهم اغفر لى ..» «٢» ، وحكى أن قوما ركبوا ، وقالوا : «سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا ... الآية ، وفيهم رجل على ناقة لا تتحرك هزالا ، فقال : إنى مقرن لهذه – أي مطيق – فسقط منها لوثبتها ، واندقت عنقه «٣». وينبغى ألا يكون ركوب العاقل للشهرة والتلذذ ، بل للاعتبار ، فيحمد اللّه ويشكره على ما أولاه من نعمه ، وسخّر له من أنعامه.

الإشارة : قد اتفقت الملل كلها على وجود الصانع ، إلا من لا عبرة به من الفلاسفة ، وإنما كفر من كفر بالإشراك ، أو : بوصف الحق على غير ما هو عليه ، أو : بجحد الرّسول. وقد تواطأت الأدلة العقلية والسمعية على وجود الحق وظهوره ، بظهور آثار قدرته ، والصفة لا تفارق الموصوف ، فدلّ بوجود آثاره على وجود أسمائه ، وبوجود أسمائه ، على وجود أوصافه ، وبثبوت أوصافه على وجود ذاته. فأهل السلوك يكشف لهم أولا عن وجود آثاره ، ثم عن أسمائه ، ثم عن صفاته ، ثم عن شهود ذاته. وأهل الجذب يكشف لهم أولا عن ذاته ، ثم عن أوصافه ، ثم عن أسمائه ، ثم عن آثاره ، فربما التقيا فى الطريق ، هذا فى ترقيه ، وهذا فى تدليه ، كما فى الحكم.

(١) فى الأصول (فى) والمثبت من تفسير النّسفى.
(٢) أخرجه ، مطولا ، أبو داود فى (الجهاد ، باب ما يقول الرّجل إذا ركب ٣/ ٧٧ ، ح ٢٦٠٢) والترمذي فى (الدعوات ، باب ما يقول إذا ركب دابة ٥/ ٤٦٧ ح ٣٤٤٦). وقال : [حديث حسن صحيح]. وابن حبان (الأذكار ، باب ما يقول إذا ركب الدابة ح ٢٣٧٠ - ٢٣٨١. ص ٥٩١ موارد) والحاكم (٢/ ٩١) وصحّحه على شرط مسلم. من حديث سيدنا على رضي اللّه عنه وكرم وجهه.
(٣) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٧١٧) لعبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن سليمان بن يسار.

(٢٣٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٣٨
وقوله تعالى : الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً ... «١» إلخ ، قال القشيري : كما جعلها قرارا لأشباحهم ، جعل الأشباح قرارا لأرواحهم فهى سكّان النّفوس ، كما أن الخلق سكّان الأرض ، فإذا انتهت مدة كون النّفوس ، حكم اللّه بخرابها .. كذلك إذا فارقت الأرواح الأشباح بالكليّة ، قضى اللّه بخرابها.
ثم قال فى قوله : فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً : وكما يحيى الأرض بالمطر يحيى القلوب بحسن النّظر. والذي خلق من الأزواج أصناف الخلق ، كذلك حبس عليكم الأحوال كلها ، فمن رغبة فى الخيرات ، وخوف يحملكم على ترك الزلات ، ورجاء يبعثكم على فعل الطاعات ، طمعا فى المثوبات ، وغير ذلك من فنون الصفات ، وكما سخّر الأنعام ، وأعظم المنّة بذلك ، سخّر للمؤمنين مركب التوفيق ، يحملهم عليه إلى بساط الطاعة ، وسهّل للمريدين مركب الإرادة ، وحملهم عليه إلى عرصات الجود ، وفضاء الشهود ، وسهّل للعارفين مركب الهمّة ، فأناخوا بالحضرة القدسية ، وعند ذلك محط الكافة ثم لا تخرق سرادقات العزة همّة مخلوق ، سواء كان ملكا مقرّبا ، أو نبيّا مرسلا ، أو وليّا مكرّما.
فعند سطوات العزّ يتلاشى كلّ مخلوق ، ويقف وراءها كلّ محدث مسبوق. هـ. ببعض المعنى.
وسرادقات العز :
حجاب الكبرياء ، فلا تحصل الإحاطة بكنه الرّبوبية لأحد من الخلق. ولهذا يبقى الترقي أبدا للعارفين ، فى هذه الدار ، وفى تلك الدار ، ولا يحصل على غاية أسرار الرّبوبية أحد ، ولو بقي يترقى أبدا سرمدا. واللّه تعالى أعلم.
ثم أبطل مذهب أهل الشرك ، فقال :
[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ١٥ الى ١٩]
وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ

(١٦) وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ (١٩)

يقول الحق جل جلاله : وَجَعَلُوا أي : المشركين لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً حيث قالوا : الملائكة بنات اللّه ، فجعلوهم جزءا له ، وبعضا منه ، كما يكون الولد لوالده جزءا. وهذا متصل بقوله : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ... إلخ ، أي :

---

(١) راجع التعليق على هذه القراءة فى موضعها أثناء التفسير.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٣٩

ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به ، وقد جعلوا له سبحانه بألسنتهم ، واعتقادهم مع ذلك الاعتراف ، من عباده جزءا. وعبّر بالجزء لمزيد استحالته فى حق الواحد الأحد ، من جميع الجهات. وقرأ أبو بكر وحمد بضمتين. إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ لجحود للنعمة ، ظاهر الكفران ، مبالغ فيه لأن نسبة الولد إليه أشنع الكفر. والكفر أصل الكفران كله.

ثم ردّ عليهم بقوله : أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ ، الهمزة للإنكار ، تجهيلا [وتعجيبا] «١» من شأنهم ، حيث ادّعوا أنه اختار لنفسه أخس الأشياء ، ولهم الأعلى ، أي : بل أتخذ لنفسه أخس الصنفين ، واختار لكم أفضلهما؟ على معنى : هبوا أنكم اجترأتم إضافة جنس الولد إليه سبحانه ، مع استحالته وامتناعه ، أما كان لكم شيء من العقل ، ونبذة من الحياء ، حتى اجترأتم على التفوّه بهذه العظيمة ، الخارقة للمعقول ، من ادعاء أنه تعالى آثركم على نفسه بخير الصنفين وأعلاهما ، وترك له شرهما وأدناهما؟. وتنكير «بنات» ، وتعريف «البنين» لما اعتبر فيهما من الحقارة والفخامة.

وجملة : وَأَصْفاكُمْ : إما عطف على اتَّخَذَ ، داخل فى حكم [التعجيب] «٢» والإنكار ، أو : حال من فاعله ، بإضمار قد ، أو : بدونه ، على الخلاف. والالتفات إلى الخطاب لتأكيد الإجرام وتشديد التوبيخ.

ثم قرره بقوله : وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا أي : وإذا أخبر أحدهم بولادة ما جعل مثلا له سبحانه ، وهى الأنثى ، لأنهم جعلوا الملائكة بنات اللّه ، وجزءا منه إذ الولد لا بد أن يجانس الوالد ويشابهه. ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يعنى : أنهم نسبوا إليه هذا الجنس ، ومن حالهم : أن أحدهم إذا قيل له : قد ولدت لك بنت ، اغتم ، واربدّ وجهه غيظا وتأسفا ، وهو مملوء من الكرب. والظلول :

بمعنى الصيرورة ، أي : صار أسود فى الغاية من سوء ما بشر به.

أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا «٣» فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ أي : أو يجعل للرحمن من الولد من هذه الصفة المذمومة صفته ، وهو أنه ينشأ فى الحلية ، أي : يتربّى فى الزينة والتخنث ، وإذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم ، ومجاراة الرّجال ، كان غير مبين ، ليس عنده بيان ، ولا يأتى ببرهان لضعف عقولهن.

قال مقاتل : لا تتكلم المرأة إلا وتأتى بالحجة عليها – أي : فى الغالب – وفيه : أنه جعل النّشأ فى الزينة من المعايب. فعلى الرّجل أن يجتنب ذلك ، له ولأولاده ، ويتزين بلباس التقوى. و«من» منصوب المحل ، أي : أو جعلوا من يربى فى الحلية – يعنى البنات – للّه – عز وجل. وقرأ الأخوان وحفص «ينشأ» ، أي : يربّى.

---

(١) فى الأصول [وتعجبا]. [.....]

(٢) فى الأصول [التعجب].

(٣) قرأ حفص وحمزة والكسائي : «ينشأ» بضم الياء ، وفتح النّون ، وتشديد الشين ، مضارع «نشّأ» معدّى بالتضعيف ، مبنيا للمفعول.

وقرأ الباقون : بفتح الياء ، وسكون النّون : وتخفيف الشين من «نشأ» لازم ، مبنى للفاعل. انظر الإتحاف (٢/ ٤٥٤).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٤٠

وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ «١» الرَّحْمنِ إِناثاً أي : اعتقدوا الملائكة وسموهم إناثا. وهو بيان لتضمن كفرهم كفرا آخر ، وتقريع لهم بذلك وهو جعلهم أكمل العباد وأكرمهم على اللّه – عز وجل – أنقصهم رأيا. والعندية عندية منزلة ومكانة ، لا مكان. ومن قرأ «عباد» فجمع «عبد» ، وهو ألزم فى الاحتجاج مع أهل العناد لتضاد العبودية والولادة. أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ أي : أحضروا خلقهم ، فشاهدوا اللّه حين خلقهم إناثا حتى يحكموا بأنوثتهم ، فإنّ ذلك لا يعلم إلا بالمشاهدة ، وهو تجهيل لهم ، وتهكم بهم. وقرأ نافع بهمزتين ، أي : أحضروا خلقهم. سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ التي شهدوا بها على الملائكة من أنهم إناث ، فى ديوان أعمالهم. وَيُسْئَلُونَ عنها يوم القيامة ، وقرئ : شهاداتهم وهى قولهم : إن للّه جزءا من خلقه ، وإن للّه بنات ، وأنها الملائكة.

الإشارة : وجعلوا له من عباده جزءا ، أشركوا فى المحبة معه غيره ، والمطلوب : إفراد المحبة للمحبوب ، فلا يجب معه شيئا. إن الإنسان لكفور مبين ، حيث علم أن الحبيب الذي أنعم عليه واحد

، وأنه غيور ، لا يرضى لعبده أن يحب معه غيره.

قال القشيري : جعلوا الملائكة جزءا على التخصيص من جملة مخلوقاته. هـ. أي : جعلوا له جزءا من عين الفرق ، ولو نظروا بعين الجمع لرأوا الأشياء كلها متدفقة من بحر الجبروت. وفى الآية تحذير من كراهية البنات ، حيث جعله من نعت أهل الكفر.

ثم أبطل شبهتهم ، فقال :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٢٠ الى ٢٥]

وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥)

---

(١) أثبت المفسر قراءة «عند» بالنون الساكنة وفتح الدال بلا ألف ، ظرفا ، وتصديقه إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ .... الأعراف/ ٢٠٦. وهى قراءة ابن كثير ونافع ، وقرأ أبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي «عباد» بالألف. انظر الإتحاف (٢/ ٤٥٤ – ٤٥٥).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٤١

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ عدم عبادتنا للملائكة ما عَبَدْناهُمْ ، أرادوا بذلك بيان أن ما فعلوه مرضى عنده تعالى ، ولو لا ذلك ما خلّى بينهم وبينها ، ويجاب : بأنه تعالى قد يخلى بين العبد ومعصيته ، لينفذ فيه ما سبق من درك الوعيد. وتعلقت المعتزلة بظاهر الآية فى أن اللّه تعالى لم يشأ الكفر من الكافر ، وإنما شاء الإيمان ، فإنّ الكفار ادّعوا أن اللّه شاء منهم الكفر ، وما شاء منهم ترك عبادة الأصنام ، حيث قالوا :

لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ أي : لو شاء بنا أن نترك عبادة الأصنام لمنعنا عن عبادتها ، لكنه لم يشأ ذلك. واللّه تعالى ردّ عليهم قولهم ، واعتقادهم ، بقوله : ما لَهُمْ بِذلِكَ القول مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ :

يكذبون ، ومعنى الآية عندنا : أنهم أرادوا بالمشيئة : الرضا ، وقالوا : لو لم يرض بذلك لعجّل عقوبتنا ، ولمنعنا من عبادتها مع قهر واضطرار ، وإذ لم يفعل ذلك فقد رضى بذلك ، فردّ اللّه عليهم بقوله : ما

لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ ... الآية. أو : قالوا هذا القول استهزاء ، لا جدا واعتقادا ، فأكذبهم وجهّلهم حيث لم يقولوه اعتقادا ، كما قالوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ «١». وهذا كلام حق أرادوا به باطلا. انظر النّسفى.

قلت : ما تمسكوا به من قوله : لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ من الاحتجاج بالقدر ، وهو لا ينفع فى هذه الدار ، لأنه من التمسك بالحقيقة الخالية عن الشريعة ، وهى بطالة وزندقة ، ولذلك ردّهم اللّه تعالى إلى التمسك بالشريعة بقوله : أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ من قبل القرآن ، أو : من قبل ادعائهم ذلك ، ينطق بصحة ما يدّعونه ، فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ آخذون.

بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ على دين وقلدناهم. والأمّة فى الأصل : الطريقة التي تؤمّ وتقصد وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ أي : لم يأتوا بحجة نقلية ولا عقلية ، ولا سند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم.

والظرف : صلة لمهتدون ، أو : هما خبران.

وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ من نبىّ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها أي : منعّموها ، وهم الذين أترفتهم النّعمة ، أي : أبطرتهم ، فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي ، ويعافون مشاقّ الدين وتكاليفه ، قالوا : إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ ، وفيه تسلية للنبى صلّى اللّه عليه وسلم ، وبيان أن التقليد فيهم ضلال قديم.

وتخصيص المترفين بتلك المقالة للإيذان بأن التنعم بالشهوات ، وحب البطالة ، هو الذي صرفهم عن النظر إلى التقليد.

" قل" «٢» ، هو حكاية لما جرى بين المنذرين وبين أممهم ، عند تعللهم بتقليد آبائهم ، أي : قيل لكلّ نذير وأوحى إليه : أن قل ، وليس خطابا لنبينا – عليه الصلاة والسّلام – بدليل ما بعده من قوله : قالُوا .. إلخ. وقيل :

---

(١) من الآية ٤٧ من سورة يس.

(٢) قرأ ابن عامر ، وحفص «قال» على الخبر ، والباقون «قل» بغير ألف على الأمر. انظر الإتحاف (٢/ ٤٥٥).

خطاب له عليه الصلاة والسّلام ، فتكون الجملة معترضة بين قصة المتقدمين لأن قوله : «قالوا» راجع

للمتقدمين.

وقرأ الشامي وحفص : قالَ أي : النذير : أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ أي : أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم بِأَهْدى بدين أهدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ من الضلالة التي ليست من الهداية فى شى ء؟ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ أي : قالت كلّ أمة لنذيرها : إنا ثابتون على ديننا ، وإن جئتمونا بما هو أهدى وأهدى. وقد أجمل عند الحكاية للإيجاز ، كقوله : يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ «١».

فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فعاقبناهم بما استحقوه على إصرارهم ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ من الأمم المذكورين ، فلا تكترث بتكذيب قومك. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : وقالوا : لو شاء الرّحمن ما عبدناهم ، تمسكوا بالحقيقة الظلمانية ، الخالية عن التشريع ، وهو كفر وزندقة ، ولذلك ردّ اللّه عليهم بقوله : أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً ... إلخ ، وترى كثيرا ممن خذله اللّه يقول : لو أراد اللّه هدايتى لهدانى ، ولا ينفع ذلك فى هذه الدار ، التي هى التكليف ، بل يجب عليه النّهوض ، والقصد إلى ما أمر اللّه به ، من حقوق العبودية ، فإن منعته الأقدار فلينظر إلى الواحد القهار ، وإلا فالشقاء لازم له. وقد قالوا : من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق ، ومن تشرع ولم يتحقق فقد تفسق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق. فالواجب : النظر إلى تصريف الحقيقة فى الباطن ، والتمسك بالشريعة فى الظاهر. وباللّه التوفيق.

وقوله تعالى : بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ ... الآية ، فيه توبيخ لمن تجمّد على تقليد أسلافه ، وقد ظهر من هو أهدى منهم ، ففيه نزعة جاهلية ، وحمية من حميتهم.

ثم برهن على بطلان التقليد الرّديء ، فقال :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٢٦ الى ٣٠]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ (٣٠)

---

(١) من الآية ٥١ من سورة المؤمنون.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٤٣

يقول الحق جل جلاله : وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ أي : واذكر وقت قوله عليه السّلام لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ المنكّبين على التقليد ، كيف تبرأ مما هم فيه بقوله : إِنَّنِي بَراءٌ أي : برىء مِمَّا تَعْبُدُونَ ، وتمسك بالبرهان. وذكر

قصته ليسلكوا مسلكه فى الاستدلال ، أو : ليقلدوه ، إن لم يكن لهم بد من التقليد فإنه أشرف آبائهم. «وبراء» : مصدر ، يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع ، والمذكر والمؤنث ، كرجل عدل ، وامرأة عدل ، وقوم عدل. و«ما» : إما مصدرية ، أو : موصولة ، أي : برىء من عبادتكم ومن معبودكم إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي استثناء متصل ، أو : منقطع ، على أن «ما» تعم أولى العلم وغيرهم ، وأنهم كانوا يعبدون اللّه تعالى والأصنام ، أو : صفة ، على أن «ما» موصوفة ، أي : إننى براء من آلهة تعبدونها غير الذي فَطَرَنِي خلقنى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ يثبتنى على الهداية ، أو : سيهدين إلى ما وراء الذي هدانى إليه الآن. والأوجه : أن السين للتأكيد دون التسويف ، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار.

وَجَعَلَها أي : وجعل إبراهيم عليه السّلام كلمة التوحيد التي تكلم بها ، وهى قوله : إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ، كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ أي : فى ذريته ، حيث وصّاهم بها ، كما نطق به قوله تعالى : وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ ... «١» ، فلا يزال فيهم من يوحّد اللّه تعالى ، ويدعوهم إلى توحيده. لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أي : جعلها باقية فى ذريته رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم بدعاء الموحّد.

بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ ، إضراب عن محذوف ، ينساق إليه الكلام ، كأنه قيل : جعلها كلمة باقية فى عقبه رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم ، فلم يحصل ما رجاه ، بل متعت هؤلاء المعاصرين من أهل مكة. وَآباءَهُمْ بالمد فى العمر ، والنّعمة ، والمهلة ، فاغترّوا بالمهلة ، وانهمكوا فى الشهوات ، وشغلوا بها عن كلمة التوحيد ، حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ القرآن وَرَسُولٌ مُبِينٌ ظاهر الرّسالة ، واضحها بالمعجزات الباهرة ، أو : مبين التوحيد بالآيات والحجج القاطعة.

وفى الآية توبيخ لهم فإن التمتع بزيادة النّعم يوجب أن يجعلوه سببا لزيادة الشكر ، والثبات على التوحيد والإيمان ، فجعلوه سببا لزيادة أقصى مراتب الكفر والضلال.

وحاصل معنى الآية : أنه تعالى جعل كلمة التوحيد باقية فى عقب إبراهيم عليه السّلام ليدعو الموحّد المشرك ، نسلا بعد نسل ، فيرجع المشرك عن شركه ، فلم يرجعوا ، بل اغتروا بما متّعوا به ، فاستمروا على الشرك حتى جاءهم

---

(١) من الآية ١٣٢ من سورة البقرة.

الحق ، فكفروا وأصروا ، وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ أي : القرآن ينبههم على ما هم عليه من الغفلة ، ويرشدهم إلى التوحيد ، ازدادوا كفرا وعتوا ، وضموا إلى كفرهم السابق معاندة الحق والاستهانة به ، حيث قالُوا

هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ فسمّوا القرآن سحرا ، وجحدوه ومن جاء به. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كان إبراهيم عليه السّلام إمام أهل التوحيد ، لقوله تعالى : إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً «١» ، وجعل الدعوة إليه فى عقبه إلى يوم القيامة ، وهو على قسمين توحيد البرهان ، وتوحيد العيان. وقد جاءت بعده الرّسل بالأمرين معا ، وقام بها خلفاؤهم بعدهم ، فقام بالأول العلماء ، وقام بالثاني خواص الأولياء ، أهل التربية الحقيقية ، ولا ينال من توحيد العيان شيئا من علق قلبه بالشهوات الجسمانية ، والحظوظ الفانية ، كما قال الششترى رضي اللّه عنه :

تركنا حظوظا من حضيض لحوظنا مع المقصد الأقصى إلى المطلب الأسنى

وكلّ من تمتع بذلك ، وانهمك فيه حرم بركة صحبة العارفين إذ يمنعه ذلك من حط رأسه ، ودفع فلسه ، فينخرط فى سلك قوله تعالى : بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ ... الآية. وكلّ زمان له رسول ، خليفة عن الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم يدعو إلى الحق ومعرفته. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر تحكمهم على اللّه ، واستحقارهم لرسوله صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٣١ الى ٣٢]

وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أي : من إحدى القريتين مكة والطائف ، على نهج قوله تعالى : يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ «٢» وعنوا بعظيم مكة : الوليد بن المغيرة ، وبعظيم الطائف : عروة بن مسعود الثقفي. وعن مجاهد : عظيم مكة : [عتبة] «٣» بن ربيعة ، وعظيم الطائف : ابن عبد ياليل «٤». ولم يتفوهوا بهذه العظيمة حسدا ، بل استدلالا على عدم نزوله ، بمعنى : لو كان قرآنا

---

(١) من الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٢٢ من سورة الرّحمن.

(٣) فى الأصول [عقبة].

(٤) انظر تفسير الطبري (٢٥/ ٦٥). والدر المنثور للسيوطى (٥/ ٧٢١).

لأنزل على أحد هؤلاء ، بناء على ما زعموا من أن الرّسالة منصب جليل ، لا يليق له إلا من له جلالة من جهة المال والجاه ، ولم يدروا أنها رتبة روحانية ، لا يترقى إليها إلا همم الخواص ، المختصين بالنفوس الزكية ، المؤيّدين بالقوة القدسية ، المتحلين بالفضائل الإنسية ، وأما المتزخرفون بالزخارف الدنيوية ، المتمتعون بالحظوظ الدنية ، فهم من استحقاق تلك الرّتبة بألف معزل.

قال ابن عطية : وإنما قصدوا إلى من عظم ذكره بالسن ، وإلا فرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم كان أعظم هؤلاء إذ كان المسمى عندهم الأمين. هـ. ومرادهم : الشرف الدنيوي ، بحيث يتعرض للأمور ليذكر ويشار إليه ، ورسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم كان منزها عن ذلك من أول النّشأة ، كما هو حال أهل الآخرة ، والنّفوس فى مهماتها إليهم أميل ، وعليهم تعول ، ولذلك كان أمينا عندهم ، ولا ترضى جل النّفوس أهل الفضول لأماناتها ، ولا تسكن إليها وتطمئن بها ، وإنما تعظمها ظاهرا ، لا حقيقة.

وهذا كاف فى الرّد عليهم فى أنهم لا يرضونهم لأماناتهم ، فكيف يرضون لأمانات الوحى.

اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ «١». قاله فى الحاشية.

وقوله تعالى : أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ، إنكار عليهم ، وفيه تجهيل لهم وتعجيب من تحكمهم فى اختيار من يصلح للنبوة. والمراد بالرحمة : النبوة.

نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ ما يعيشون به ، وهو أرزاقهم الحسية فِي الْحَياةِ الدُّنْيا أي : لم نجعل قسمة الأدون إليهم ، وهو رزق الأشباح ، فكيف بالنبوة ، والعلم ، الذي هو رزق الأرواح؟ وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ أي : جعلنا البعض أقوياء وأغنياء وموالى ، والبعض ضعفاء وفقراء وخدماء ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا أي : ليصرف بعضهم بعضا فى حوائجهم ، ويستخدموهم فى مهماتهم ، ويسخروهم فى أشغالهم ، حتى يتعايشوا ، ويصلوا إلى أعمالهم ، هذا بماله ، وهذا ببدنه ، ولو استووا فى الغنى والفقر لبطل جل المصالح ، فسبحان المدبر الحكيم.

قال القشيري : لو كانت المقادير متساوية لتعطلت المعايش ، ولبقى كلّ عند حاله ، فجعل بعضهم مخصوصا بالترفه والمال ، وآخرين بالفقر ورقة الحال ، حتى احتاج الفقير فى حين حاجته أن يعمل للغنىّ ، ليترفق من جهته بأجرته ، فيصلح بذلك أمر الفقير والغنىّ معا. هـ. ولو فوضنا ذلك إلى تدبيرهم لهلكوا. وإذا كانوا فى تدبير خويصة أمرهم ، وما يصلحهم من متاع الدنيا الدنية ، فى غاية العجز ، فما ظنهم فى تدبير أمر الدين والنّبوة؟!.

---

(١) من الآية ١٢٤ من سورة الأنعام.

وقيل : «سخريا» أي : يسخر بعضهم من بعض.

وَرَحْمَتُ رَبِّكَ أي : النبوة ، أو : الدين وما يتبعه من الفوز فى المآب ، خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ أي : مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا الدنية الفانية.

الإشارة : مما جرى فى طبع النّاس أنهم لا يقرون الولاية إلا فيمن عظم جاهه ، وكثر طعامه ، أو كثرت صلاته ، أو كان مجذوبا مصطلما ، أو : سبقت فى أسلافه ، وهذا خطأ ، فإن الولاية سر من أسرار اللّه ، أودعها قلوب أصفيائه ، لا تظهر على جوارحهم ، ولا تكون فى الغالب إلا فى أهل التجريد ، وأهل الخمول ، أخفاها اللّه فى عباده ، فمن ادعاها من غير تجريد ولا تخريب ، فهو مدع ، ولذلك قال أبو المواهب رضي اللّه عنه : من ادعى شهود الجمال ، قبل تأدبه بالجلال ، فارفضه فإنه دجال.

ويقال لمن أنكر على أهلها من أهل التجريد : أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ... الآية ، ورحمة ربك – هى سر الخصوصية – خير مما يجمعون.

وقال القشيري على قوله تعالى : نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ ... إلخ ، بعد كلام : ثم إنه تعالى قسم [لبعض لعباده] «١» النعمة والغنى ، ولقوم الفقر والقلّة ، وجعل لكلّ واحد منهم مسكنا يسكنون إليه ، ويستقلون به ، فللأغنياء وجود الإنعام ، وجزيل الأقسام ، فشكروا واستبشروا ، وللفقراء شهود القسّام ، فحمدوا وافتخروا ، فالأغنياء وجدوا النّعمة فاستغنوا وانشغلوا ، والفقراء سمعوا قوله : «نحن» فاشتغلوا ، وفى الخبر : أنه صلّى اللّه عليه وسلم قال للأنصار : «أما ترضون أن يرجع الناس بالشاء والبعير ، وترجعوا برسول اللّه إلى أهليكم؟ واللّه ما تنقلبون به خير مما ينقلبون» «٢» هـ.

قوله تعالى : نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ ... إلخ ، قد سبقت أقسام الرّزق قبل ظهور الخلق ، فالواجب انتظار القسمة ، والرّضا بما قسم ، كما قال الشاعر :

اقنع بما قسم الرّزّاق من قسم وسلّم الأمر فالرزاق مختار

لا تجزعن ولا تبطر على محن أو منح ، فإنما هى أحكام وأقدار

واقنع بكلّ الذي يجرى الزمان به ولا يكن منك للمغرور انكسار.

---

(١) فى الأصول [لعباده] والمثبت من القشيري ، وهو الأنسب.

(٢) أخرجه مسلم فى (الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم ... ، ٢/ ٧٣٤ ، ح ١٠٥٩) وبنحوه البخاري فى (مناقب الأنصار باب مناقب الأنصار ح ٣٧٧٨) من حديث أنس رضي اللّه عنه. [.....]

ثم ذكر إهانة الدنيا ، وخساستها عنده ، فقال :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٣٣ الى ٣٥]

وَلَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ (٣٤) وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً أي : ولو لا كراهة أن يجتمع النّاس على الكفر ، ويطبقوا عليه ، لَجَعَلْنا لأجل حقارة الدنيا عندنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ : بدل «من» سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ أي : متخذة منها ، وَمَعارِجَ أي : ولجعلنا لهم مصاعد ، أي : سلالم من فضة أيضا ، يصعدون عليها إلى السطوح ، عَلَيْها يَظْهَرُونَ أي : يعلون السطوح والعلالي عليها. وَلِبُيُوتِهِمْ أي : وجعلنا لبيوتهم أَبْواباً وَسُرُراً من فضة أيضا ، عَلَيْها أي : السرر يَتَّكِؤُنَ ، ولعل تكرير «بيوتهم» لزيادة التقرير. وَزُخْرُفاً أي : وجعلنا لهم زخرفا ، أي : زينة من كلّ شيء. والزخرف : الذهب والزينة. ويجوز أن يكون الأصل : سقفا من فضة وزخرف ، أي : بعضها من فضة ، وبعضها من ذهب ، فنصب عطفا على محل «من فضة».

وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا أي : وما كلّ ما ذكر من البيوت الموصوفة بما ذكر من الزخارف الغرارة ، إلا شيء يتمتع به فى الحياة الدنيا ، ثم يفنى وتبقى تبعته. وَالْآخِرَةُ أي : ونعيم الآخرة الذي يقصر عنه البيان ، خير عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ الكفر والمعاصي. وبهذا يتبين أن العظيم إنما هو العظيم فى الآخرة ، لا فى الدنيا ، ولذلك لم يجعل للمؤمنين فيها حظا وافرا لأنه تمتع قليل بالنسبة إلى ما لهم فى الآخرة ، ولأنه ربما يشغلهم عن ذكر الرحمن ، كما أشار إليه بقوله : وَمَنْ يَعْشُ ... إلخ.

الإشارة : فى الآية ذم للدنيا ولمن اشتغل بها. وفى الحديث : «لو كانت الدنيا تزن عند اللّه جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء» «١». وعن علقمة عن ابن مسعود رضي اللّه عنه قال : اضطجع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم على حصير ، فأثّر الحصير فى جنبه ، فلما استيقظ ، جعلت أمسح عنه ، وأقول : يا رسول اللّه ألا آذنتني قبل أن تنام على هذه الحصير ، فأبسط لك عليه شيئا ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «مالى وللدنيا ، وما للدنيا ومالى ، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظلّ فى فيء ، أو ظل

---

(١) أخرجه الترمذي فى (الزهد ، باب ما جاء فى هوان الدنيا على اللّه ، ح ٢٣٢٠) وقال : «حديث صحيح غريب» ، وابن ماجه فى (الزهد ، باب مثل الدنيا ، ح ٤١١٠) من حديث سهل بن سعد رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٤٨

شجرة ، ثم راح وتركها» «١». وروى أن عيسى عليه السّلام أخذ لبنة من طوب ، فجعلها تحت رأسه ، فجاءه جبريل عليه السّلام ، فوكز الطوبة من تحت رأسه ، ونزعها ، وقال : «اترك هذه مع ما تركت».

وأنشدوا فى هذا المعنى :

رضيت من الدنيا بقوت وخرقة وأشرب من كوز حوافيه تكسر

فقل لبنى الدنيا : اعزلوا من أردتم وولوا ، وخلونى على البعد أنظر

وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «الدنيا خراب ، وأخرب منها قلب مشتغل بها» «٢». ومن اشتغل بها غفل عن ذكر الرّحمن ، وسلط عليه الشيطان ، كما قال تعالى :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٣٦ الى ٤٢]

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٤٠)

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢)

قلت : «من يعش» : شرط وجواب. وحكى أن أبا عبد اللّه بن مرزوق دخل على ابن عرفة ، فحضر مجلسه ، ولم يعرفه أحد ، فوجده يفسر هذه الآية : وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ ، فكان أول ما افتتح به – يعنى ابن مرزوق – أن قال : وهل يصح أن تكون «من» هنا موصولة؟ فقال ابن عرفة : وكيف ، وقد جزمت؟ فقال ابن مرزوق : جزمت تشبيها بالشرطية ، فقال ابن عرفة : إنما يقدم على هذا بنص من إمام ، أو شاهد من كلام العرب ، فقال : أما النّص فقال ابن مالك فى التسهيل : وقد يحزم مسبب عن صلة الذي ، تشبيها بجواب الشرط ، وأما الشاهد فقوله :

فلا تحفرن بئرا تريد أخا بها فإنك فيها أنت من دونه تقع

كذاك الذي يبغى على النّاس ظالما تصبه على رغم عواقب ماصنع

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الموضع السابق (ح ٤١٠٩) والترمذي فى الموضع السابق (باب ٤٤ ، ح ٢٣٧٧) وقال : «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) لم أقف عليه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٤٩

فقال ابن عرفه : فأنت إذا أبو عبد اللّه بن مرزوق؟ فقال : نعم ، فرحّب به. وقال : واللّه ما ظلمناك. هـ.

وقرأ ابن عباس : «يعش» – بفتح الشين ، أي : يعم ، من : عشى يعشى «١». وقرئ : «يعشو» على أن «من» موصولة غير مضمنة معنى الشرط ، وإلا جزمت كما تقدم. قلت : والذي يظهر من كلام التسهيل أن الموصول المضمن معنى الشرط إنما يجزم الجواب لا الشرط ، فتأمله ، مع كلام ابن مرزوق. والشاهد الذي أتى به إنما فيه جزم الجواب لا الشرط ، فلا يصح ما قاله ابن مرزوق باعتبار جزم لفظ الشرط. واللّه تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يَعْشُ أي : يتعام ، أو : يعم. والفرق بين القراءتين «٢» أنه إذا حصلت الآفة فى بصره قيل : عشى يعشى ، وإذا ضعف بصره بلا آفة قيل : عشى يعشو. والمعنى : ومن يعرض عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ وهو القرآن ، لفرط اشتغاله بزهرة الدنيا ، وانهماكه فى الحظوظ الفانية ، فلم يلتفت إليه ، ولم يعرف أنه حق – على قراءة الفتح – أو : عرف أنه حق وتعامى عنه ، تجاهلا ، على قراءة الضم ، نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ، قال ابن عباس : نسلطه عليه فهو معه فى الدنيا والآخرة ، لا يفارقه ، ولا يزال يوسوسه ويغويه. وفيه إشارة إلى أن من دام عليه لم يغوه الشيطان. وإضافته إلى «الرحمن» للإيذان بأن نزوله رحمة للعالمين ، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله ، أي : ما ذكره الرّحمن وأوحى به فى كتابه. وقال ابن عطية : ما ذكّر اللّه به عباده من المواعظ. ويحتمل أن يريد مطلق الذكر ، أي : ومن يغفل عن ذكر اللّه نسلط عليه شيطانا ، عقوبة على الغفلة ، فإذا ذكر اللّه تباعد عنه. وَإِنَّهُمْ أي : الشياطين ، الذي قيض كلّ واحد منهم لكلّ واحد ممن يعشو ، لَيَصُدُّونَهُمْ ليمنعون العاشين عَنِ السَّبِيلِ عن سبيل الهدى الذي جاء به القرآن ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ أي : أنفسهم مهتدون ، أو : ويحسب العاشون أن الشياطين مهتدون ، فلذلك قلّدوهم ، فمدار جمع الضمير اعتبار معنى «من» كما أن مدار إفراده فيما سبق اعتبار لفظها. وصيغة المضارع فى الأفعال الأربعة للدلالة على الاستمرار التجديدى ، لقوله : حَتَّى إِذا جاءَنا فإن «حتى» تقتضى أن تكون غاية لأمر ممتد ، أي : يستمر العاشون على ما ذكر من مقارنة الشياطين والصد والحسبان الباطل ، حتى إذا جاءنا كلّ واحد منهم مع قرينه يوم القيامة. ومن قرأ بالتثنية «٣» ، فالمراد العاشى وقرينه. قال مخاطبا لقرينه : يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فى الدنيا بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ

---

(١) فهو أعشى ، وامرأة عشواء.

(٢) أي : قراءة «يعش» بضم الشين و«يعش» بفتحها.

(٣) قرأ نافع ، وابن كثير ، وابن عامر ، وأبو بكر ، وأبو جعفر (جاءانا) بألف بعد الهمزة على التثنية وهما العاشى وقرينه. وقرأ الباقون بغير ألف بعد الهمزة. والضمير يعود على العاشى. انظر شرح الهداية (٢/ ٥٠٨) والإتحاف (٢/ ٤٥٦).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٥٠

أي : بعد المشرق والمغرب ، أي : تباعد كلّ منهما من صاحبه ، فغلب المشرق على المغرب ، كما قيل : القمران والعمران ، وأضيف البعد إليهما ، فَبِئْسَ الْقَرِينُ أنت.

قال تعالى : وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ أي : يوم القيامة إِذْ ظَلَمْتُمْ أي : حين صحّ وتبيّن ظلمكم وكفركم ، ولم تبق لكم ولا لأحد شبهة فى أنكم كنتم ظالمين. و«إذ» : بدل من اليوم. وقوله : أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ :

فاعل ينفع ، أي : لن ينفعكم يوم القيامة اشتراككم فى العذاب ، كما كان فى الدنيا يهون عليكم المصيبة اشتراككم فيها ، لتعاونكم فى تحمل أعبائها وتقسيمكم لعنائها ، ولذلك قيل : المصيبة إذا عمّت هانت ، وإذا خصت هالت ، وفى ذلك تقول الخنساء :

ولو لا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى

ولا يبكون مثل أخى ولكن أعزّى النّفس عنه بالتأسّى «١»

أما هؤلاء فلا يؤسّيهم اشتراكهم ، ولا يروّحهم ، لأن بكلّ منهم ما لا تبلغه طاقة ، وقد ورد أنهم يكونون فى توابيت من نار ، لا يرى أحد صاحبه ، بل يظن أنه وحده فيها. وقيل : الفاعل مضمر ، أي : ولن ينفعكم هذا التمني ، أو هذا الاعتذار لأنكم فى العذاب مشتركون لاشتراككم فى سببه ، وهو الكفر ، ويؤيده : قراءة من قرأ : «إنكم» بالكسر.

وكان صلّى اللّه عليه وسلم يبالغ فى المجاهدة فى دعاء قومه ، وهم لا يزيدون إلا غيا وتعاميا عما يشهدونه من شواهد النّبوة ، وتصاممما عما يسمعونه من القرآن ، فأنزل اللّه تعالى : أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ ، وهو إنكار وتعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم ، وقد تمرنوا فى الكفر ، واستغرقوا فى الضلال ، حيث صار ما بهم من العشى عما مقرونا بالصمم ، أي : أفأنت تقدر أن تسمع من فقد سمع القبول ، أو تهدى من فقد بصر الاستبصار. وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي : ومن كان فى علم اللّه أنه يموت على الضلال. ومدار الإنكار هو التمكن والاستقرار فى الضلال المفرط ، بحيث لا ارعواء له منه ، لا توهم القصور من قبل الهادي ، ففيه رمز فى أنه لا يقدر على ذلك إلا اللّه.

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ أي : فإن قبضناك قبل أن ننصرك على أعدائك ، ونشفى صدور لمؤمنين منهم ، فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أشد الانتقام فى الآخرة. أَوْ نُرِيَنَّكَ العذاب الَّذِي وَعَدْناهُمْ بل أن نتوفينك ، كما وقع بهم يوم بدر ، فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ بحيث لا ناصر لهم من حلول نقمتنا وقهرنا. و«إما» : شرط دخلت «ما» على «إن» توكيدا للشرط ، وزاد التوكيد نون الثقيلة.

---

(١) انظر البحر المحيط (٨/ ١٧) تفسير القرطبي (٧/ ٦٠٩٤).

الإشارة : كل من غفل عن ذكر اللّه تسلط الشيطان على قلبه بالوسوسة والخواطر الردية ، وقد ورد فى الحديث :

إن قلب ابن آدم بين ملك وشيطان ، فإذا ذكر اللّه قرب الملك منه وانخنس الشيطان «١» ، وإذا غفل عن ذكر الشيطان قرب منه ، فلا يزال يوسوسه ويمنيه حتى يغفله عن اللّه. ولا شك أن الذكر الذي يصرف الشيطان عن القلب إنما هو الذكر القلبي لا اللساني ، فكم من ذاكر بلسانه وقلبه مشغول بهواه ، فذكر اللسان نتائجه الأجور ، وذكر القلوب نتائجه الحضور ورفع الستور ، وشتان بين من همه الحور والقصور ، ومن همه الحضور ورفع الستور ، هذا من عامة أهل اليمين ، وهذا من خاصة المقربين ، فإن أردت يا أخى ذكر القلوب ، ولمعان أسرار الغيوب ، فاصحب الرجال ، حتى ينقلوك من عالم الطبيعة إلى عالم الروحانية ، وإلا بقيت فى عالم الأشباح.

قال القشيري : من لم يعرف قدر الخلوة مع اللّه ، فحاد عن ذكره ، وأخلد إلى الخواطر الرديّة ، قيّض اللّه له من يشغله عن اللّه – وهذا جزاء من ترك الأدب فى الخلوة. وإذا اشتغل العبد فى خلوته مع ربّه ، وتعرّض له من يشغله عن ربه ، صرفه الحق عنه بأى وجه كان .. ويقال : أصعب الشياطين نفسك ، والعبد إذا لم يعرف قدر فراغ قلبه ، واتّبع شهوته ، وفتح ذلك الباب على نفسه ، بقي فى يد هواه أسيرا ، لا يكاد يتخلص منه إلا بعد مدة. هـ.

[وقال فى الإحياء : للشيطان جندان جند يطير ، وجند يسير ، والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار ، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار. ثم قال : فتحقق أن الشيطان من المنظرين ، فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين إلا أن تصبح وهمومك هم واحد ، وهو اللّه ، فيشتغل قلبك باللّه وحده ، فلا يجد الملعون مجالا فيك ، فعند ذلك تكون من عباد اللّه المخلصين ، الداخلين فى الاستثناء من سلطنته. ولا تظن أن يفرغ منه قلب فارغ من ذكر اللّه ، بل هو سيال يجرى من ابن آدم

مجرى الدم ، وسيلانه مثل الهواء فى القدح ، إن أردت أن يخلو عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو غيره ، فقد طمعت فى غير مطمع ، بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه من الهواء لا محالة ، فكذلك القلب المشغول بتفكر مهم فى الدين ، يخلو عن جولان الشيطان ، وإلا فمن غفل عن اللّه ، ولو لحظة ، فليس له فى تلك اللحظة قرين إلا الشيطان ، ولذلك سبحانه : وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. هـ. المرا منه] «٢».

---

(١) هذا معنى حديث ، ولفظه : «إن الشيطان واضع حطمه على قلب ابن آدم ، فإن ذكر اللّه خنس ، وإن نسى التقم قلبه» رواه أبو يعلى فى مسنده (١٧/ ٤٣٠) والبيهقي فى الشعب (٥٤٠) ، قال الهيثمي فى مجمع الزوائد (٧/ ١٤٩) : رواه أبو يعلى : وفيه عدى بن أبى عمارة ، وهو ضعيف.

(٢) ما بين المعكوفتين من هامش النسخة الأم ، وليس فى غيرها.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٥٢

وكلّ من عوّق النّاس عن طريق الحق يصدق عليه قوله : وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ، فإذا تحققت الحقائق ، وارتفع الغطاء ، وظهر الصواب من الخطأ ، قال للذى صده عن طريق القوم :

يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ، فيقول الحق جل جلاله : وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ حيث حرمتموها من الوصول إلىّ أنكم فى عذاب الحجاب مشتركون. ويقال لمن وعظ ودعا إلى اللّه ، فلم يقبل منه :

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ... الآية. فإما نذهبنّ بك بالموت ، فيقع النّدم عليك ، أو نرينك الذي وعدناهم من العز لك والنّصر ، والانتقام ممن آذى أولياء اللّه ، فإنا عليهم مقتدرون.

ثم أمر بالثبوت فى طريق الحق ، فقال :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٤٣ الى ٤٥]

فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ (٤٤) وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)

يقول الحق جل جلاله : فَاسْتَمْسِكْ أي : تمسك بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ من الآيات والشرائع ، واعمل بذلك ، سواء عجلنا لك الموعود أو أخرناه ، إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ على دين قيم لا عوج فيه ، وهو تعليل للأمر بالاستمساك. وَإِنَّهُ أي : ما أوحى إليك لَذِكْرٌ لشرف عظيم لَكَ وَلِقَوْمِكَ ولأمتك ، أو :

لقومك من قريش ، فمازال العز فيهم ، والشرف لهم ، من زمانه صلّى اللّه عليه وسلم إلى قرب الساعة. قال صلّى اللّه عليه وسلم : «لا يزال هذا الشأن فى قريش ما بقي منهم اثنان» «١». وفى رواية : «لا يزال هذا الأمر فى قريش ، لا يعاديهم أحد إلا كبّ على وجهه ما أقاموا الدّين» «٢». قال ابن عباس : كان صلّى اللّه عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل بمكة ، ويعدهم الظهور ، فإذا قالوا : لمن الملك بعدك؟ أمسك فلم يجبهم ، حتى نزلت : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ فكان بعد تلك إذا سئل قال : «لقريش» فلا يجيبونه ، فقبلته الأنصار على ذلك «٣».

---

(١) أخرجه البخاري فى (المناقب ، باب مناقب قريش ح ٣٥٠١) ومسلم فى (الإمارة ، باب النّاس تبع لقريش والخلافة لقريش ٣/ ١٤٥٢ ح ١٨٢٠) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنه.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري ، فى الموضع السابق (ح ٣٥٠٠) ، من حديث معاوية رضي اللّه عنه.

(٣) عزاه فى الدر المنثور (٥/ ٧٢٥) لابن عدى وابن مردويه ، عن علىّ وابن عباس – رضي اللّه عنهما – قلت : على هامش النّسخة الأم مايلى : هذا غريب جدا ، والمعروف أنه كان يقول : «الملك للّه يضعه حيث يشاء». هـ.

أو : وإنه لموعظة لك ولأمتك بأجمعها. وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ يوم القيامة عن شكركم هذه النّعمة ، أو : عما أوحى إليه ، وعن قيامكم بحقوقه ، وعن تعظيمكم له.

وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ، فليس المراد سؤال الرّسل حقيقة ، ولكنه مجاز عن النّظر فى أديانهم والفحص عن مللهم ، هل جاءت عبادة الأوثان قط فى ملة من ملل الأنبياء؟ وكفاه نظرا وفحصا نظره فى كتاب اللّه المعجز ، المصدق لما بين يديه. وإخبار اللّه فيه بأنهم إنما يعبدون من دون اللّه ما لم ينزل به سلطانا. وهذه الآية فى نفسها كافية ، لا حاجة إلى غيرها.

وقيل إنه صلّى اللّه عليه وسلم جمع له الأنبياء – عليهم السّلام – وقيل له : سلهم «١» ، وهو ضعيف. وقيل معناه : سل أمم من أرسلنا ، وهم أهل الكتابين التوراة والإنجيل ، وإنما يخبرونه عن كتب الرّسل ، فإذا سألهم فكأنما سأل الأنبياء ، ومعنى هذا السؤال : التنبيه على بطلان عبادة الأوثان ، والاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد ، وأنه ليس ببدع ابتدعه حتى ينكر ويعادى. وقيل : الخطاب

له ، والمراد غيره ممن يرتاب. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الاستمساك بالوحى كان حاصلا له صلّى اللّه عليه وسلم ، وإنما المراد الثبوت على ما هو حاصل ، والاسترشاد إلى ما ليس بحاصل ، فالمراد الترقي فى زيادة العلم ، والكشف إلى غير نهاية ، كقوله : اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ ، فالترقى لا ينقطع لمن تمسك بالوحى التمسك الحقيقي ، بحيث كشف له عن غوامض أسرار القرآن ، وزال الحجاب بينه وبين اللّه تعالى ، فهو دائما فى زيادة العلم والكشف ، إلى ما لا نهاية له. وهذا هو الشرف العظيم فى الدارين. فمن لم يشكره سئل عنه ، أو سلب منه فى الدنيا. ثم إن التوحيد فى الذات والصفات والأفعال مما أجمعت عليه الملل ، وكل داع إنما يدعو إليه ، وكلّ شيخ مربى إنما يوصل إليه ، ومن لم يوصل إليه أصحابه فهو دجّال. وباللّه التوفيق.

ثم سلّى رسوله بقوله :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٤٦ الى ٥٠]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ (٤٧) وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠)

---

(١) ذكره البغوي (٧/ ٢١٦) والقرطبي (٧/ ٦٠٩٧) عن ابن عباس ، وفيه : قال صلّى اللّه عليه وسلم : «لا أسأل فقد اكتفيت».

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٥٤

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أي : متلبسا بآياتنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ فأجابوه بقولهم : فأتنا بآية إن كنت من الصادقين كما صرح به فى آية أخرى «١». فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ يسخرون منها ، ويهزؤون ، ويسمّونها سحرا. و«إذا» للمفاجأة ، وهو جواب «لمّا» لأن فعل المفاجأة معها مقدّر ، وهو العامل فى «إذا» ، أي : لما جاءهم فاجؤوا وقت ضحكهم منها ، أي :

استهزؤوا بها أول ما رأوها ، ولم يتأملوا فيها.

وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ من الآيات إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها قرينتها ، وصاحبتها التي كانت قبلها ، أي :

ما ظهر لهم آية إلا وهى بالغة أقصى مراتب الإعجاز ، بحيث يجزم كلّ من ينظر إليها أنها أكبر من كلّ ما يقاس بها من الآيات. والمراد : وصف الكلّ بغاية الكبر من غير ملاحظة قصور فى شىء منها ، قال النّسفى : وظاهر النظم يدلّ على أن اللاحقة أعظم من السابقة ، وليس كذلك ، بل المراد بهذا الكلام : أنهن موصوفات بالكبر ، كما يقال : هما أخوان ، كل منهما أكبر من الآخر. هـ. وقال فى الانتصاف : الظاهر : أن كلّ آية إذا أفردت استغرقت عظمتها الفكر وبهرته ، حتى يجزم أنها النّهاية ، وأنّ كلّ آية دونها ، فإذا نقل الفكر إلى الأخرى كانت كذلك.

وحاصله : أنه لا يقدر الفكر أن يجمع بين آيتين ، لتتميز الفاضلة من المفضولة. هـ.

وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ وهو ما قال تعالى : وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ «٢» ، فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ ... الآية «٣». لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ لكى يرجعوا عما هم عليه من الضلال.

وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ، كانوا يقولون للعالم : إنما هو ساحر لتعظيمهم علم السحر ، أو : نادوه بذلك فى مثل تلك الحالة لغاية عتوهم ونهاية حماقتهم. وقرأ الشامي بضم الهاء «٤» ، لاتباع حركة ما قبلها حين سقطت الألف ، ادْعُ لَنا رَبَّكَ يكشف عنا العذاب بِما عَهِدَ عِنْدَكَ أي : لعهده عندك بأن دعوتك مستجابة ، أو : بما عهد عندك من النّبوة والجاه ، أو : بما عهد من كشف العذاب عمن اهتدى ، إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ مؤمنون إن كشف عنا بدعوتك ، كقوله : لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ «٥» ، فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ بدعوته إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ ينقضون العهد ، أي : فاجؤوا وقت نكث عهدهم بالاهتداء. وقد مرّ تمامه فى الأعراف «٦».

---

(١) فى قوله تعالى : .. إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ الآية ١٠٦ من سورة الأعراف. [.....]

(٢) الآية ١٣٠ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ١٣٣ من سورة الأعراف.

(٤) أي «يا أيّه» وبهذا قرأ ابن عامر.

(٥) من الآية ١٣٤ من سورة الأعراف.

(٦) راجع تفسير الآيات ١٣٣ – ١٣٦ من سورة الأعراف.

الإشارة : قد ظهرت الآيات على الأنبياء والرّسل ، فلم ينتفع بها إلا من سبقت له العناية ، وكذلك

ظهرت الكرامات على أيدى الأولياء الداعين إلى اللّه ، فلم ينتفع بها إلا من سبق له التقريب والاصطفاء. على أن الصادق فى الطلب لا يحتاج إلى ظهور كرامة ، بل إذا أراد اللّه أن يوصله إليه وصله إلى وليّ من أوليائه ، فطوى عنه وجود بشريته ، وأشهده سر خصوصيته ، فخضع له من غير توقف على كرامة ولا آية. وأما من لم يسبق له التقريب إذا رأى ألف آية ضحك منها واستهزأ ، ورماها بالسحر والشعوذة ، والعياذ باللّه من البعد والطرد.

ثم ذكر عتو فرعون وطغيانه ، فقال :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٥١ الى ٥٦]

وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥)

فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ (٥٦)

يقول الحق جل جلاله : وَنادى فِرْعَوْنُ ، إما بنفسه ، أو : أمر من ينادى ، كقولك : قطع الأمير اللص. والظاهر أنه نادى بنفسه ، فِي قَوْمِهِ فى مجمعهم وفيما بينهم ، بعد أن كشف العذاب عنهم ، مخافة أن يؤمنوا ، قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ أنهار النّيل ، ومعظمها أربعة نهر الملك ، ونهر طولون ، ونهر دمياط ، ونهر تنيس ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِي تحت سريرى لارتفاعه ، أو : بين يدى فى جناتى وبساتينى.

قال عمرو بن العاص رضي اللّه عنه : نيل مصر سيد الأنهار ، سخّر اللّه له كلّ نهر بين المشرق والمغرب ، فإذا أراد اللّه أن يجريه أمر الأنهار فأمدته بمائها ، وفجّر له الأرض عيونا ، فإذا انتهت جريته إلى ما أراد اللّه سبحانه أوحى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره. قاله فى الاكتفاء. ومهبطه من جبل القمر. وقيل : أصله من الجنة ، واللّه تعالى أعلم. وحدّ مصر : من بحر الاسكندرية إلى أسوان ، بطول النّيل. والأنهار المذكورة هى الخلجان الكبار ، الخارجة من النيل.

(٢٥٥/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٥٦

وعن عبد اللّه بن طاهر : أنه لما ولى مصر خرج إليها ، فلما شارفها ، قال : أهي القرية التي افتخر بها فرعون ، حتى قال : أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ؟ واللّه لهى أقلّ عندى من أن أدخلها ، فثنى عنانه. وعن هارون الرّشيد : أنه لما قرأها ، قال : واللّه لأوليّنها أخسّ عبيدى ، فولاها الخصيب ، وكان خادم

وضوئه «١».

وَهذِهِ الْأَنْهارُ : إما عطف على «ملك مصر» ، ف «تجرى» : حال منها ، أو : واو الحال ، ف «هذه» مبتدأ ، و«الأنهار» : صفتها و«تجرى» : خبر ، أَفَلا تُبْصِرُونَ قوتى وسلطانى ، مع ضعف موسى وقلة أتباعه. أراد بذلك استعظام ملكه وترغيب النّاس فى اتباعه.

ثم قال : أَمْ أَنَا خَيْرٌ مع هذه المملكة والبسطة مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ أي : ضعيف حقير ، من : المهانة ، وهى القلة. وَلا يَكادُ يُبِينُ الكلام لما به من اللثة. قاله افتراء عليه عليه السّلام ، وتنقيصا له فى أعين الناس ، باعتبار ما كان فى لسانه عليه السّلام. وقد كانت ذهبت عنه ، لقوله تعالى : قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى «٢». والهمزة للتقرير ، كأنه قال إثر ما عدد من أسباب فضله ، ومبادئ خيريته : أثبت عندكم واستقر لديكم أنى أنا خير ، وهذه حالى ، من هذا. وإما متصلة ، والمعنى : أفلا تبصرون أم تبصرون؟ فوضع قوله : أَمْ أَنَا خَيْرٌ موضع «تبصرون» لأنهم إذا قالوا : أنت خير فهم عنده بصراء. وهذا من باب تنزيل السبب منزلة المسبب. انظر أبا السعود.

فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ «٣» مِنْ ذَهَبٍ أي : فهلا ألقى عليه مقاليد الملك إن كان صادقا ، لأنهم كانوا إذا سوّدوا رجلا سوّروه بسوار ، وطوقوه بطوق من ذهب. أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ مقرونين يمشون معه ، مقترن بعضهم ببعض ، ليكونوا أعضاده وأنصاره ، أو : ليشهدوا له بالنبوة؟ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ أي : فاستفزهم ، وطلب منهم الخفة والسرعة فى مطاوعته. أو : فاستخف أحلامهم واستزلهم ، فَأَطاعُوهُ فيما أمرهم به إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ ، خارجين عن الدين ، فلذلك سارعوا إلى طاعته.

فَلَمَّا آسَفُونا أغضبونا أشد الغضب ، منقول من : أسف : إذ اشتد غضبه ، انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ ، والمعنى : أنهم أفرطوا فى المعاصي فاستوجبوا أن نعجّل لهم العذاب ، وألا نحلم عليهم. فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً قدوة لمن بعدهم من الكفار ، يسلكون مسلكهم فى استيجاب مثل ما حلّ بهم من العذاب ، ف كل من تفرعن

---

(١) انظر تفسير القرطبي (٧/ ٦١٠٢) وتفسير النّسفى (٣/ ٢٧٦).

(٢) الآية ٣٦ من سورة طه.

(٣) قرأ حفص ويعقوب «أسورة» بسكون السين بلا ألف ، جمع «سوار» كأخمرة وخمار ، وقرأ الباقون «أساورة» بفتح السين ، وألف ، جمع «أسورة» ، كأسقية وأساقى ، أو جمع «أساور» بمعنى «سوار». وقد أثبت المفسر – رحمه اللّه – قراءة «أساورة». انظر : شرح الهداية (٢/ ٥٠٨) والإتحاف (٢/ ٤٥٧).

وتجبر ففرعون إمامه وقدوته. أو : جعلناهم متقدمين فى الهلاك ، ليتعظ بهم من بعدهم إلى يوم القيامة. والسلف : جمع سالف ، وهو الفارط المتقدم ، وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ أي : عظة لهم ، أو : قصة عجيبة ، تسير مسير الأمثال ، فيقال : مثلكم كقوم فرعون ، كما قال تعالى : كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ «١». وهاهنا قراءات ، قد وجهناها فى كتاب مستقل.

الإشارة : عاقبة التكبر والافتخار الذّل والهوان والدمار ، وعاقبة التواضع والانكسار العز والنّصرة ، انظر إلى فرعون لما تعزز واستكبر هلك مع قومه فى لجة البحار. قال القشيري : ليعلم أن من تعزز بشيء دون اللّه فهلاكه وحتفه فيه ، وفرعون لمّا استصغر موسى وحديثه ، وعابه بالفقر ، سلّطه اللّه عليه ، فكان هلاكه بيده ، وما استصغر أحد أحدا إلا سلط عليه. ثم قال فى قوله تعالى : فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ : طاعة الرهبة لا تكون مخلصة ، وإنما تكون الطاعة صادقة إذا صدرت عن الرّغبة ، فَلَمَّا آسَفُونا أغضبونا ، وإنما أراد : أغضبوا أولياءنا ، وهذا أصل فى باب الجمع ، أضاف إغضابهم أولياءه إلى نفسه. وفى الخبر أنه تعالى يقول : «مرضت فلم تعدنى» «٢» وقال لإبراهيم عليه السّلام : يَأْتُوكَ رِجالًا «٣» وقال لنبينا صلّى اللّه عليه وسلم : مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ «٤» هـ.

ثم ذكر شأن عيسى ، فقال :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٥٧ الى ٦٢]

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَاتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١)

وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢)

---

(١) من الآية ١١ من سورة آل عمران.

(٢) حديث قدسى صحيح ، أوله : «يا ابن آدم ...» ، أخرجه مسلم فى (البر والصلة ، باب فضل عيادة المريض ، ٤/ ١٩٩٠ ، ح ٥٦) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٣) من الآية ٢٧ من سورة الحج.

(٤) من الآية ٨٠ من سورة النّساء.